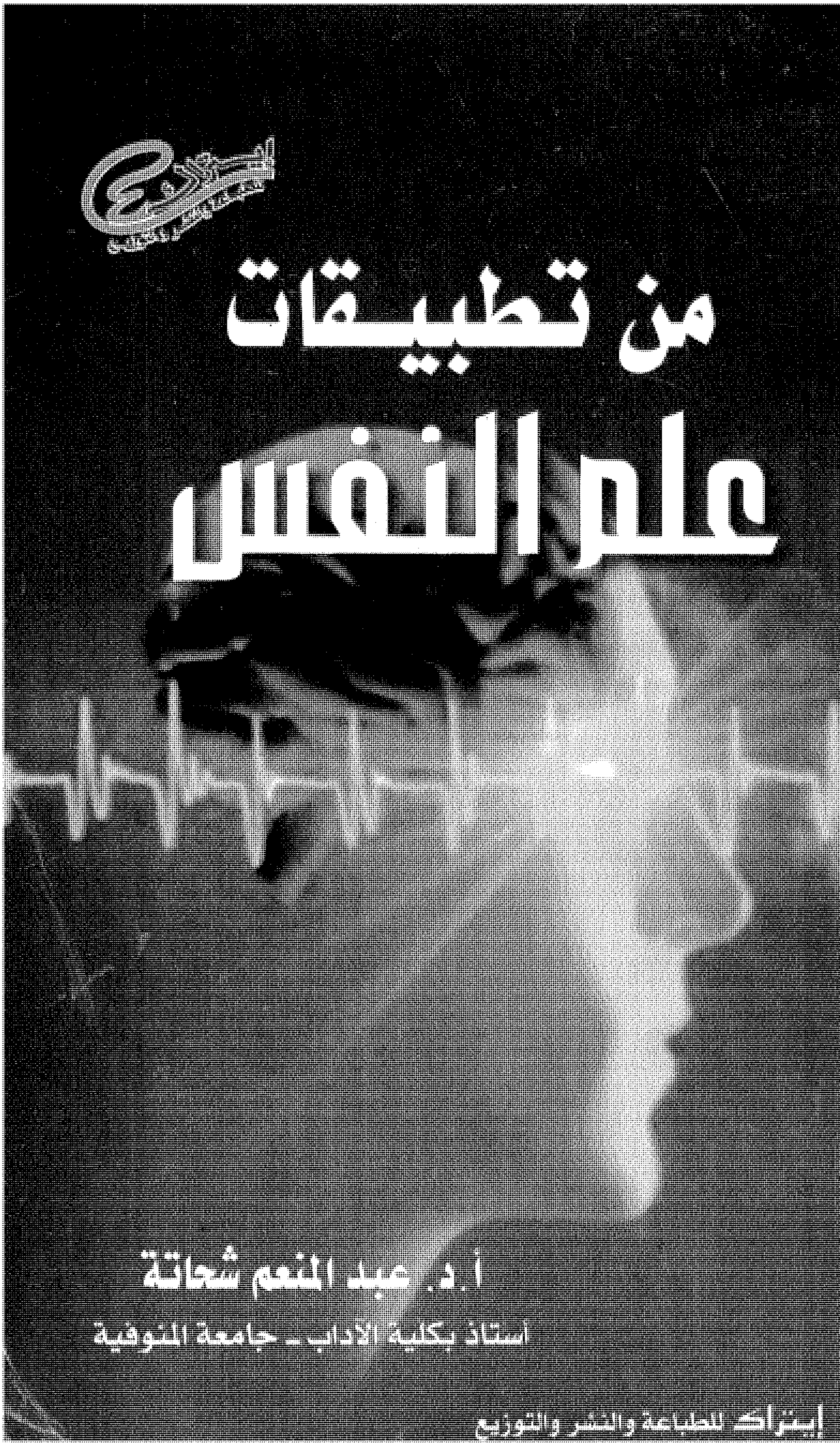
سلسلة علم النفس التطبيقي

من تطبيقات علم النفس



أ.د. عبد المنعم شحاتة

أستاذ بكلية الآداب - جامعة المنوفية

إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع

من تطبيقات

علم النفس

دكتور/عبد المنعم شحاته

أستاذ ورئيس قسم علم النفس

كلية الآداب – جامعة المنوفية

حقوق النشر

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

رقم الإيداع

٢٠٣٤٣

ايتـــراك للنشـــر والتـــوزيع

طريق غرب مطار ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

فهرس

تقديم

يسعدني أن أقدم للقارئ العربي هذا الكتاب الذي يسعى إلى إبراز بعض ملامح الصورة الحقيقية لإسهام علم النفس في مجالات الحياة المختلفة: التربوية - والوقائية - وإرساء العدالة - والحرب - واستشراف المستقبل. هذه الصورة لا تحدد قسماتها أفكار نظرية فحسب وإنما أساليب تناول إجرائية قابلة للتطبيق من خلال استراتيجيات تدخل يمكن التحقق من كفاءتها وفعاليتها، فمضمون علم النفس اليوم تشكله النظريات وبرامج مساعدة الأفراد للتغلب على مشكلاتهم اليومية سواء بسواء، فقد أدى التطور المتلاحق والنمو الهائل لبحوث علم النفس في مختلف مجالات الحياة إلى تطوير عدد من استراتيجيات التدخل لمساعدة الأفراد والجماعات على تجاوز العقبات التي تعرقل مسيرة حياتهم.ويعرض هذا الكتاب ثماني مقالات يعد كل منها مثالا لتطبيقات عام النفس في مجال ما من مجالات الحياة:-

١- تمثل المقالة الأولى دعوة لإعمال الحكمة عند تحديث مصر؛ والترشيد أحد علامات الحكمة؛ وخطوته الأولي هي تحديد الأولويات، من هنا جاء التعليم على رأس المجالات الواجب البدء بتحديثها. وتقدم المقالة نموذجين متزامنين لهذا التحديث؛ يعد أحدهما (المصري) تقليدا جزئيا وغير واع للآخر(الأمريكي).

٢- وتعرض المقالة الثانية مؤشرات ارتفاع معدلات الانحراف؛ وفي ظل توقعات بزيادة هذه المعدلات مستقبلا؛ تتضاعف المسئولية الاجتماعية لمؤسسات المجتمع المختلفة؛ وضرورة تدخلها لخفض هذه المعدلات؛ والذي يبدأ باكتشاف مبكر للحالات المعرضة للانحراف؛ أو ما يمكن تسميته "الشخص المشكل"، وقد رسمت البحوث العلمية ملامحه وآليات

تفاعلها مع خصائص السياق المحيط به وكيفية عمل هذه الآليات؛وبالتالي فان معرفتهما - الملامح والآليات - تشكل اكتشافا مبكرا للشخص المشكل؛ يعد هذا الاكتشاف أساسا لتدخل يحول بينه وبين الانحراف.

٣- وتبرز المقالة الثالثة أهمية نشر ثقافة التعامل مع الحزن والكيفية الناجحة لهذا التعامل؛ خاصة وأن أي فرد عرضة لنوبات حزن تصيبه عدة مرات أمد حياته؛ نتيجة - كما يقول الكندي (توفى ٢٥٦هـ)- إما موت محبوب أو فوت مطلوب.

٤- وتمثل المقالة الرابعة نموذجا للاستفادة من علم النفس الاجتماعي في مجال الوقاية الأولية لقائمة طويلة من أمراض السرطان والدورة الدموية ... وغيرهما من خلال مكافحة التدخين.

٥- وتعرض المقالة الخامسة العوامل العضوية والنفسية والبيئية؛ سواء كانت اجتماعية أو فزيائية؛ المرتبطة بالعنف وتفسيره بوصفه مشكلة صحية وجنائية في الوقت نفسه، حيث حصر هذه العوامل وفهم علاقاتها بالعنف مدخل فعال لأية استراتيجية لخفض معدل السلوك العدواني.

٦-ولأن للشاهد دوره الخطير في إرساء العدالة؛ فبقدر دقته بقدر عدالة الأحكام القضائية، ولأن الشهادة تقوم أساسا علي جوانب نفسية: كانتباه الفرد أن جريمة ما تقع - وإدراك وقائعها - والاحتفاظ بتفاصيلها في الذاكرة - واستعادتها أثناء التحقيق أو المحاكمة. من هنا إبراز إسهام علم النفس في فهم هذه الجوانب وكيفية توظيف هذا الفهم حتى يميز القاضي شاهد العدل من شاهد الزور ويتعرف علي العوامل التي تقلل دقة ما يدلي به شاهد عدل؛ وكيف ينشط ذاكرته.

٧-وتبرز المقالة السابعة الدور التطبيقي الذي يمكن أن يلعبه علم النفس؛ وعلم النفس الاجتماعي خصوصا؛ في تهيئة الأجواء قبل بدء الحرب العسكرية وأثنائها وبعد انتهائها، وتسمى تهيئة الأجواء هذه الحرب النفسية والتي يشير مفهومها الواسع إلى نوع من الدعاية يوجهها طرف للتأثير في معنويات أفراد طرف أخر بهدف ترسيخ اعتقاد أنهم لن ينتصروا في معركتهم معه مهما طالت الحرب؛ وتعد هذه الدعاية تطبيقا لمبادئ تغيير الاتجاهات النفسية.

٨- تؤكد المقالة الثامنة أن التخطيط للمستقبل يبدأ بادراك التناقض في الحاضر والمعبر عن مشكلات يواجهها المجتمع؛ يشكل سعيه للتغلب عليها أسلوب حياة الأفراد مستقبلا.

والمقالات الثماني تغطي مجالات تبدو مختلفة إنما يجمعها معا التوجه نحو المستقبل مهنيا أو اجتماعيا؛ حيث التركيز على النشء - بتطوير أساليب تعليمه وحمايته من التدخين والانحراف...الخ - توجه نحو مستقبل المجتمع، كذلك يتمثل هذا التوجه في كل من:- الاهتمام بالوقاية كإجراء يمنع وقوع المشاكل - وإبراز تعامل المهن النفسية مع المستقبل؛ كتعاملها مع الحاضر؛ بتوقع الأحداث والتدخل في مسارها.

يبقي التنويه إلى أن هذا الكتاب يمثل إشارة ودعوة:-

١) إشارة إلى ما يمكن أن تسهم به جهود علماء النفس في مجالات: تحديث التعليم - والوقاية سواء من بدء التدخين أو العنف أو الانحراف - والتخفف من الحزن - وزيادة دقة شاهد العيان - واستشراف المستقبل.

٢) دعوة إلى إعمال العقل في قضايا أساسية تعرقل مسيرة المجتمع نحو التقدم وتؤدي إلى غياب مساهمته الحضارية؛ وهنا نكرر السؤال - الذي

طرحه قبل ثلاثين عاما أ.د./مصطفي سويف ("العبقرية في الفن" ، ١٩٧٣: ١٣٧؛ مطبوعات مجلة الجديد)- هل نحن كمجتمع نريد فعلا أن نصبح مجتمعا عصريا يهتدي بالحلول العلمية في مواجهة مشكلاته والتخطيط لحياته وتوظيف طاقاته المتاحة بأفضل صورة ممكنة؟.

مع تقديري لصاحب دار "ايتراك" ورجالها الذين أظهروا الإشارة وأعلنوا الدعوة؛ أرجو أن تحقق الإشارة مدلولها وأن تجد الدعوة مجيبا.

عبد المنعم شحاته

شبين الكوم: ٢٠٠٣/٦/١

أولا: في مجال التربية

مدخل:

التعليم قضية الأمة؛ إذ يشغل اهتمام الجميع؛ بغض النظر عن أعمارهم أو مستوى تعليمهم أو مكانتهم الاقتصادية الاجتماعية أو...الخ، ولما لا والتعليم علي رأس مشكلات المجتمع؛ إذ هو مقدمة لها ونتيجة في الوقت نفسه، فإذا كانت الأمية مظهرا لتأخر الأمة عن ركب الحضارة؛ فان هذا التأخر يتم ترسيخه إذا أنتج التعليم ما تعارف علي تسميته "أنصاف متعلمين" لأنهم يشكلون:

١-إهدارا لما أنفق عليهم من مال ووقت وجهد كي يؤهلوا لأداء أدوار بعينها؛ دون تحقيق هذا التأهيل.

٢-مصدر خطورة؛ إذ ستوكل لهم مهام - لكونهم متعلمين- لن يكونوا قادرين علي إنجازها؛ لافتقارهم إلى مهارات هذا الإنجاز، إضافة إلى كونهم أكثر اندفاعية* في اتخاذ قرارات - في مجال عملهم- غير مدروسة؛ وأكثر تهورا في تنفيذها وأكثر رفضا للنصيحة،مما يحدث خسائر جمة يمكن تلافيها إذا كان الأفراد غير ذلك.

ويرجع اهتمام كاتب هذه السطور بموضوع التعليم إلى مصدرين:-

أولهما: كونه أبا لأبناء تلاميذ بمراحل التعليم العام المختلفة يعيش همومهم الدراسية بمصادرها العديدة؛ إضافة إلى ممارسته للعملية التعليمية في المستوى الجامعي، وفي كلتا الحالتين (أي كونه أبا أو أستاذا جامعيا) فإنه كغيره -كما يقول مصطفى سويف (١٩٩٤: ١٣٧-١٣٩)- مهموم بالمستقبل؛ إذ يتشكل مستقبل مجتمعنا من خلال الصورة التي يكون

* تعاني الأمة الإسلامية أمرا مماثلا في جرأة شباب ما يسمى "جماعات الإسلام السياسي" على الفتيا دون استيعاب الحديث الشريف "أجراؤكم على الفتيا أجراؤكم على النار".

عليها أبناؤنا وتلاميذنا؛ فهم رصيد المجتمع الذي يتعهده في الحاضر ليسير عجلة الحياة ويوجهها في المستقبل.

ثانيهما: دعوة كلية آداب بني سويف جامعة القاهرة كاتب هذه السطور للمشاركة في فعاليات مؤتمرها المعنون: "تحديث مصر من منظور العلوم الإنسانية" إبريل ٢٠٠٣، ولأن التعليم يغير- كما يقول نبيل علي (٢٠٠١: ٣٨٥)- المجتمع ويتغير به فعلاقتهما علاقة تأثير وتأثر متبادلين؛ ولأن التربية باتت - كما يقول حامد عمار- أخطر من أن تترك للتربويين وحدهم (المرجع نفسه: ٣٨٣)، كانت المشاركة في المؤتمر المشار إليه آنفا بالمقال التالي.

-١-

التحديث بحكمة: رؤية علم النفس*

باتت التربية أخطر من أن تترك للتربويين وحدهم

حامد عمار

مقدمة:

ترتفع دعوات تحديث مصر في المجالات المختلفة وعلى رأسها التعليم الذي بذلت محاولات لتطويره على مدى العقد الماضي منذ أن نادى رئيس الجمهورية بجعل التعليم "مشروع مصر القومي" حتى تفي بمتطلبات انخراطها في عالم القرن الحادي والعشرين من خلال تخريج جيل قادر على مواكبة العصر وفهم ما يجري حوله، لذا يعد تطوير التعليم على رأس أولويات التحديث؛ بوصفه منظومة لاكتساب المعرفة التي تعد قدرة الأفراد عليه مؤشرا -حتى في نظر مؤسسة اقتصادية دولية كالبنك الدولي- لرقي الأمم وتقدمها (نادر فرجاني،٢٠٠١)، إذ أصبحت المعرفة -كما يقول "توفلر"- جوهر القوة والثروة وبات التحكم فيها أو في تداولها وسيلة الدول المتقدمة للسيطرة على ما دونها في مستوى التقدم (عبد المنعم شحاته،٢٠٠٢).

ويكتسب التعليم هذه الأولوية لأنه:-

أ-يشكل البنية التحتية لتقدم أية أمة وارتقاء أفرادها لتأثيره الكبير فيهم؛ إذ يمكن الفرد من التعبير عن فرديته؛وأن يعيش في انسجام وتوافق مع

---

* مقدم إلى مؤتمر "تحديث مصر من منظور العلوم الإنسانية" كلية الآداب ببني سويف٢٩-٢٠٠٣/٤/٣٠.

المحيطين به؛ ويتيح له فرص ترقية وضعه الاجتماعي الاقتصادي ومستواه المعيشي (سمير غبور، ١٩٩٠)؛ ويكسبه المهارات الأساسية - لغوية وحسابية وغيرهما- التي تجعله يعيش سعيدا (Weyant,1986:102) ومنتجا.

ب-يستقطب التعليم شريحة عريضة من أفراد أي مجتمع ولمدى طويل من أعمارهم (أكثر من عقد ونصف يمضيه الفرد في مؤسسات التعليم الرسمية فقط؛إضافة إلى تلقيه خبرات-أي تعليم- من جماعات أو هيئات أخرى كدور العبادة ووسائل الإعلام وغيرهما).

ويحاول المقال الراهن عرض نموذجين لتطوير التعليم تما في الولايات المتحدة ومصر؛ لأنهما تزامنا في الحدوث -أي علي مدى العقد الأخير من القرن العشرين- ويعد أحدهما (أي ما يجري في مصر) تقليدا غير واع في نواح عدة للأخر.

أولاً :إعادة صياغة المنظومة التربوية الأمريكية

شهد الثلث الأخير من القرن العشرين محاولات أمريكية عديدة لتطوير التعليم، وقد جاءت هذه المحاولات استجابة لاستشعار المسئولين الأمريكان الخطر بشأن مستقبل بلدهم؛وقد حدث هذا الاستشعار والاستجابة له عدة مرات، نشير لاثنتين منها فقط:-

أ-عندما هبط أول إنسان على سطح القمر وكان هذا الإنسان روسيا وليس أمريكيا، مما أحدث لدى الأمريكيين صدمة؛ مصدرها إحساسهم أن هناك من هو أكثر تقدما منهم؛ لذا تم تشكيل لجنة رئاسية لمراجعة نسق التعليم الأمريكي وقدمت سنة ١٩٨٣ تقريرها المعنون "أمة في خطر" ينتقد بشدة

برامج التعليم وسياساته في المدارس العليا (الثانوية) بوصفها المسئولة عن تأخر أمريكا في مجال ارتياد الفضاء آنذاك (مجدي صبحي، ٢٠٠٠).

ب- عندما كشفت بحوث علمية جادة تأخر الأطفال الأمريكان في المهارات الأساسية للغة والحساب مقارنة إما بأبناء دول شرق أسيا وإما بنظرائهم الأمريكان قبل عقدين من الزمان؛ حيث انخفض أداء أطفال أمريكا اليوم عنهم آنذاك بمعدل ٨% (Maxwell,2002)؛فكان الإحساس بالصدمة مرة ثانية وللسبب نفسه؛ وكانت الاستجابة ذاتها؛ أي تشكيل لجنة رئاسية أخرى قدمت عام ١٩٩٤ تقريرا بعنوان "أهداف ٢٠٠٠: تتعلم أمريكا لتعمل".

وفي هذا السياق تجدر الإشارة تحديدا إلى عدة لجان شكلتها جمعية علم النفس الأمريكية تتناول وبشكل علمي الأفكار المتضمنة في تقرير "أهداف ٢٠٠٠ : تتعلم أمريكا لتعمل" حتى يسهم علم النفس في ترجمتها إلى إجراءات قابلة للتطبيق، وسنتوقف عند عدد محدود - لضيق حيز المقال - من تقارير هذه اللجان، منها :

١ - الأسس النفسية المتمركزة حول المتعلم :

وهو التقرير الذي قدمته في نوفمبر ١٩٩٧ لجنة الشئون التربوية (BEA) برئاسة Spielberger - وتضم العديد من علماء النفس المرموقين - بهدف توجيه الانتباه إلى ما يمكن أن يقدمه علم النفس لفهم المتعلم في السياق التربوي، مسلماً بأن فهم المتعلم * مدخل فعال لتحسين نوعية

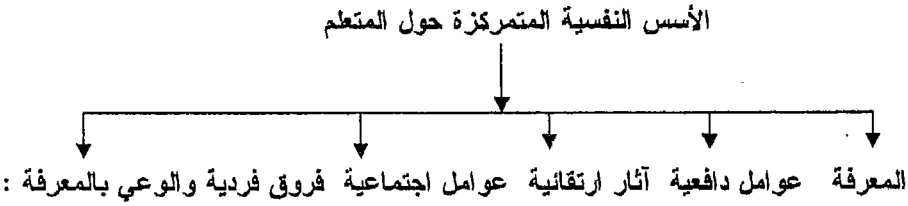
* وهو توجه يعكس النزعة الفردية individualism المهيمنة على المجتمعات الغربية بوجه عام والمجتمع الأمريكي على وجه الخصوص، لذا لا ينفصل هذا التوجه عما يجري في مجال قريب هو العلاج النفسي ، فكل من التعلم والعلاج النفسي يهتمان بتعديل السلوك ، وقد شهد العلاج النفسي تركيزاً على المريض كمدخل لبناء العملية العلاجية فيما يسمي " علم النفس الإيجابي Positivism والبرجماتي؛ جسد هذا التركيز ما قدمه Haword من تصور لعملية علاجية محورها المريض ، يعد هذا التصور تطوراً لما قدمه " روجرز Rogeres - قبل ستة عقود - من علاج متمركز حول العميل Client .

التدريس والتعلم في المدارس الأمريكية، فمن خلال هذا الفهم يمكن إعادة تصميم المقرر (المنهج الدراسي) والوسائل التعليمية وطرق التقويم وبرامج إعداد المعلمين وبناء الأنساق التربوية وكل العناصر التي تسهم في الاستراتيجيات الفعالة لتحديد مشكلات ذوي التحصيل الدراسي المنخفض الذي يهتم به التربويون ٠

ويلخص التقرير تاريخ اهتمام علم النفس – والذي تجاوز القرن من الزمان – بتصميم العملية المدرسية اعتماداً على معلومات استخلصها من البحث والتنظير في التعلم والتذكر والعمليات المعرفية والدافعية والارتقاء، وأسهمت هذه المعلومات بشكل مباشر في تحسين التدريس، وقد أدى التكامل بين البحث والممارسة إلى صياغة نماذج تهتم بالفروق بين الطلاب وتوظيفها لتنشيط التعليم وإحداث نتائج مرغوبة ٠

وانتهى التقرير إلى عدد من الأسس النفسية العامة تعد قاسماً مشتركا بين المتعلمين في سياقات تعلم مختلفة، وتمثل العوامل الداخلية التي بإمكان المتعلم السيطرة عليها ، وتتفاعل مع العوامل البيئية الخارجية ٠

ويوضح الشكل التالي هذه الأسس وهي :



١ – طبيعة عملية التعلم
٢ – أهدافها ٠
٣ – بناء المعرفة
٤ – سياق التعلم
٥ – استراتيجيات تفكير ٠

أ – عوامل المعرفة والوعي بالمعرفة:-

فمن المهم أن نعلم المدرسة طلابها ليس المعارف أو المعلومات فحسب؛ و لا كيف يحصلون عليها أو أن يفكرون فيها فقط؛ بل تعلمهم أيضا أن يحسنوا مهاراتهم في التفكير من خلال فحص تعلمهم والتحكم في عمليات التفكير ومراقبته وتنظيمه وتقييمه بشكل ذاتي، أي أن نعلم الفرد كيف ينظم أنشطته المعرفية بتدريبه على التحكم فيما يفكر وكيف بفكر حتى يكون أكثر ضبطا لما يقوله أو يفعله؛ ويسمى هذا "الوعي بالمعرفة" (Parker,2001) ويشمل:

١) طبيعة عملية التعلم : يكون التعلم فعالاً إذا كان عملية مقصودة – أي يعيها المتعلم – لاستخلاص الخبرة التي يتعرض لها الفرد، فتعلم عادة حركية على سبيل المثال يقتضي أن تتوفر لدى المتعلم مهارات معرفية بعينها، وأن يطور استراتيجيات يتبعها أثناء التعلم، ولتحقيق ذلك تتعمد المدارس توظيف عمليات تشعر الطلاب (تجعل الطلاب يشعرون) بمسئولياتهم الشخصية عن إسهامهم فيما يتعلموه حتى يكونوا ناشطين وموجهين ذاتياً للتعلم، فيحددون هدفهم منه ويدركون معنى المعلومات والخبرات التي يتعرضون لها من خلال ربطها بأفكارهم الخاصة ومعتقداتهم .

٢) أهداف عملية التعلم: المتعلم الناجح هو الذي يجد التوجيه نحو هدفه من التعلم عبر الزمن من خلال تمثل المعرفة واكتساب استراتيجيات التفكير الضرورية لمواصلة عملية التعلم مدى الحياة، وكلما كانت هذه الأهداف نابعة من داخل الفرد كلما كان التعلم ناجحاً لذا يجب أن يساعد التربويون – من خلال محتوى المقررات ومواقف تقديمها وأساليبه...إلخ–

الطلاب كي يطوروا أهدافاً تناسب طموحاتهم الشخصية واهتماماتهم وأن يكون الطلاب قادرين علي جعل بعض هذه الأهداف قصير الأمد (مثل تعميق فهم الفرد لموضوع ما) وبعضها الآخر طويل الأمد (مثل أن يحاول الفرد حل تناقضات يلحظها في أمور الحياة) .

٣) بناء المعرفة : إن المدرسة الناجحة هي التي تعلم الطالب كيف يربط المعلومة الجديدة بمعرفة سابقة ذات معنى لديه، هنا يحقق مبدأ تراكمية المعرفة ويكتسب القدرة الاستدلالية ويتعلم كيفية تكوين علاقات بين المعلومات أو الخبرات، ويأخذ هذا التكوين صورا متعددة كالإضافة والتعديل وإعادة تنظيم المعارف، ويجب أن يساعد التربويون طلابهم عند تطوير هذه الروابط وتنويعها عبر المواقف المختلفة بما يحقق تكامل المعرفة .

٤) سياق التعلم: يجب أن نضع في الحسبان أن التعلم لا يحدث في فراغ وإنما في سياق له عناصره المتعددة مثل الثقافة والتقنية والممارسات الذرائعية المتعارف عليها .. الخ ،وكل هذا يؤثر في التعلم .

٥) استراتيجيات تفكير واستدلال وحل المشكلات وتكوين المفاهيم .

ب – عوامل دافعية وانفعالية :

تحدد الدافعية ما يتعلمه الفرد وكيف يتعلمه، وهي بدورها تتأثر بالحالة الانفعالية للمتعلم التي تعكس معتقداته واهتماماته وأهدافه وعاداته في التفكير وتوقعات النجاح لديه أو الفشل . ويجب أن تستثير المدرسة دافعية الفرد وميله لحب الاستطلاع حتى يفكر بشكل منظم ويتعامل مع البيئة المحيطة به بطريقة مبدعة، ويكون ذلك من خلال تضمين المقرر الدراسي

مهاما تناسب اهتمامات المتعلم وتمده باختيارات شخصية وتقدم له ما يمثل تحديا يدفعه إلى مضاعفة المجهود الذهني الذي يبذله أثناء تعلم تلك المهام.

ج – آثار ارتقائية :

يكون التعلم فعالاً إذا وضعت في الحسبان التغيرات النمائية داخل جوانب الفرد المختلفة (جسمية وعقلية وانفعالية واجتماعية) ليس هذا فحسب؛ بل وعبر هذه الجوانب أيضا، فالفرد يتعلم أفضل إذا كانت المادة المتعلمة:

١) تناسب مستواه الارتقائي.

٢) ويكون تقديمها بكيفية ممتعة ومثيرة للاهتمام.

ولأن مستوى الفرد الارتقائي يتباين من مرحلة لأخرى، ومن جانب – في المرحلة الواحدة – لآخر، فإن التحصيل يختلف كذلك وفقاً لنمط الاستعداد الذي يحدده هذا التباين. فالوعي بالفروق الارتقائية بين الأطفال وفهم هذه الفروق ييسر إيجاد السياق الأفضل للتعلم والمحتوى الأكثر فعالية.

د – عوامل اجتماعية :

يتأثر التعلم بكل من :

١) صور التفاعل الاجتماعي.

٢) والعلاقات المتبادلة بين الأشخاص.

٣) والتخاطب مع الآخرين.

ويمكن أن تشجع المهام الدراسية المتعلم للتفاعل مع الآخرين؛ ويصبح هذا التفاعل فعالاً إذا وضع التنوع الاجتماعي في الحسبان (أي يتضمن الفصل أفراداً من خلفيات ثقافية متنوعة ويتضمن المقرر معلومات

تعكس هذا التباين)، الأمر الذي يشجع التفكير المرن والتنافس الاجتماعي في سياق تعلم تعاوني، فتعلم الفرد لا يعكس مستوى ارتقائه العقلي والانفعالي والاجتماعي والأخلاقي فقط؛ وإنما يعكس أيضا مفهوم الفرد عن نفسه وشبكه علاقاته التي تمده بالاستقرار والثقة وتزيد لديه مشاعر الانتماء وتقبل الذات واحترامها وتمده بمناخ إيجابي للتعلم يساعده في ترسيخ أفكار ومشاعر وأفعال إيجابية وصحية،لأن مثل هذه السياقات تشعر المتعلم بالأمان عند إثارة أفكاره وتشجعه على أن يشارك وبشكل نشط في العملية التعليمية.

هـ - فروق فردية :

المتمثلة في كون كل فرد يمثل كيانا متفردا له خصائصه التي يختلف فيها عن غيره حتى وان تشابها، وينتج هذا الاختلاف عن واحد أو أكثر من المصادر التالية : -

١) تفاوت الأفراد فيما لدى كل منهم من:-

أ) الاستعدادaptitude أي مقدرة الفرد علي تحصيل مهارة معينة تتطلب نوعا من الأداء الحسي الإدراكي أو الحركي أو العقلي مع قدر من التدريب الرسمي أو غير الرسمي(عبد الحليم محمود السيد وآخرون، ١٩٩٠: ٣٤٠).

ب)الميل interest رغبة الفرد بالاستغراق في نشاط معين (المرجع نفسه).

ج) القدرة ability ما يتوفر لدى كل فرد من قوة تمكنه من أداء فعل بعينه؛ سواء تمثل هذا الفعل في نشاط حركي أو ذهني.

د) ا لوسع capacity أعلى مستوى من الأداء -سواء كان هذا الأداء حركيا أو انفعاليا أو ذهنيا- يمكن أن يصل إليه الشخص نتيجة تلقيه المران (عبر المواقف التعليمية) الملائم أو الممارسة (المرجع السابق: ٣٦٠).

هـ) خصال characteristics شخصية الأفراد المتسمة بالدوام أو الثبات النسبي؛ ويشترك في الاتصاف بها مختلف الأفراد بدرجات متفاوتة يمكن أن نستنتجها من سلوكهم (المرجع السابق: ٢٢) ٠

ويكون التفاوت في الجوانب الخمسة السابقة نتيجة تفاعل عوامل عضوية: وراثية-كيميائية حيوية وبيئية اجتماعية أدى؛ إلى تباين ما لدى كل فرد من خصال أو قدرات؛ يضاف إلى ذلك تنوع ما لدى الفرد الواحد؛ إذ لا تتساوى لديه جميع القدرات (تذكر-استدلال-تخيل-...الخ)مثلا ولا حتى جوانب القدرة (تكر: ألفاظ-ألوان-وجوه-...الخ) الواحدة، مما يسهم في اختلاف الفرد عن غيره.

٢) التنوع اللغوي والثقافي والاجتماعي ٠

٣) تباين معايير تقرير نتاج عمليات التعلم وتقييمها ٠

ويجب أن توضع هذه الفروق – آيا كان مصدرها – في الحسبان عند بناء المقررات وتقييم مدى تحصيلها ٠

٢ -إسهام علم النفس في برنامج المدرسة للعمل :

وهو التقرير الذي قدمته في سبتمبر ١٩٩٩ لجنة شكلتها جمعية علم النفس الأمريكية، تضم علماء من ست شعب بها لعلم النفس هي: الارتقائي – والتربوي – والأسري – والمدرسي – والمهني – والصناعي والتنظيمي ٠

ويمثل هذا التقرير محاولة لفهم كيفية انتقال طلاب المدارس العليا (الثانوية) إلى عالم العمل وإمكانات تقويم برنامج "المدرسة للعمل" وكذلك مسوغات اعتماده ٠ كوسيلة لتأهيل الطلاب من خلال تحديد الخبرات التي توجههم إلى تعلم أكثر كفاءة أي يعدهم كي يكونوا قادرين علي اختيار عمل يقومون به إذا ما قرروا عدم الالتحاق بالجامعة ٠

ويعد التقرير خلاصة مناقشات استغرقت سنتين للجوانب السابقة؛ ويتضمن عرضاً مفصلاً لكل من : -

أ - تصورات برنامج "المدرسة للعمل" وأهدافه في الماضي والحاضر والمستقبل

ب - خلاصة بحوث علم النفس فيما يتعلق بارتقاء عمليات معرفية - ومعرفية اجتماعية - واتخاذ القرار - والميول المهنية لدى المراهق .

ج - تقرير مدى ملاءمة برنامج " المدرسة للعمل " لهذه الأسس الارتقائية .

ويخلص التقرير إلى ضرورة ما يلي : -

١) مراجعة المقررات الدراسية والأنشطة اللاصفيه بما يضمنها* معلومات متنوعة عن المهن المختلفة وعالم العمل؛ تقدم بصورة قابلة للفهم وتناسب المرحلة العمرية للطلاب وتستفيد من نتائج البحوث حول النضج والرغبة المتزايدة في التعلم الذاتي لما يتعلق بالمهن وانتقال أثر التعلم وذلك لتمكين الطالب من الاختيار المهني مستقبلاً .

٢) تشجيع الوالدين والأسرة على المشاركة في مثل هذه البرامج .

٣) وضع نماذج تقويم ملاءمة لهذه البرامج واختبار كفاءتها وفعاليتها .

واستجابة لهذا التقرير طورت كلية Boston برنامجين : -

أ) يربط الأول بين المدرسة والنجاح المهني مستقبلاً اعتمادا على زيادة فهم طلاب المستوى التاسع - بمدرستي :- Roxburye و Brighton الغربية الثانويتين (العليا) -لعلاقة المدرسة بالعمل، وقد أدى هذا الفهم إلى تحسين

---

* أين هذا من شعار " المدرسة المنتجة " الذي رفعته وزاره التربية والتعليم المصرية عام ٢٠٠٢ ،وخصصت وكيلا بكل مدرسة لهذا دون إمدادها بأي عنصر (وقت -اعتماد مالي -مواد خام -...الخ) لتنفيذه

أدائهم الأكاديمي (إضافة إلى زيادة كل من:- إنجاز الواجبات المنزلية - والتركيز في الفصل) .

أما لماذا بوسطن؟؛ فلأن أغلب طلابها من أفراد الطبقة الفقيرة والعاملة الذين تقل لديهم احتمالات - لأسباب اقتصادية - الالتحاق بالجامعة، والمرجح أنهم سيبدءون رحلة البحث عن عمل قريباً.

وشمل البرنامج تعريض الطلاب لتدخلات من ثلاث مراحل :

١) في المرحلة الأولى يكون التحدث عن شخصياتهم وخلفيتهم الثقافية للتعرف على أنفسهم وتحديد طموحاتهم .

٢) وفي المرحلة الثانية يتم اكتشاف المسارات المهنية التي تحظى باهتمامهم والبحث عما يتطلبه النجاح فيها وما تقتضيه من تدريب .

٣) وتشمل المرحلة الثالثة مقابلة راشدين نجحوا في هذه المهن للتعرف على العقبات التي واجهتهم وفي ضوء ذلك يرسمون خريطة أهداف قابلة للتحقيق في ضوء ظروفهم الخاصة . (APA , 2002A)

ب) ويقدم البرنامج الثاني نموذجاً لتكامل الأنشطة اللاصفية والخدمات الصحية الاجتماعية مع المقررات الدراسية بهدف مساعدة طلاب مدرسة توماس جاردنر الابتدائية وأسرهم للتعامل مع مشاق (ضغوط) المجتمع المحلي ، حيث وظفت مقررات اللغة الأجنبية الثانية والحاسب الآلي إضافة إلى ورش عمل والعيادات الصحية لتقديم هذا البرنامج، وقد كشفت النتائج عن نجاحه الأمر الذي أدى إلى تعميمه على عشر مدارس إضافية (APA , 2002b)

٣- فيما يتعلق باستخدام وسائل التقنية الحديثة في التدريس والتعلم نشير إلى تقريرين :

أ) الأول حول "التعلم عن بعد" : حيث يشهد المجتمع الأمريكي زيادة اعتماد العملية التربوية على وسائل التقنية في التعليم عبر كل المستويات، إذ يستخدم ما يزيد عن نصف عدد الكليات الأمريكية برامج لتعلم عن بعد لتقديم مقرراتها، والعدد مرشح للتزايد، لذا شكلت جمعية علم النفس الأمريكية عام ٢٠٠١ مجموعة عمل تضم خبراء في برمجيات الصحة والتدريب عن بعد، وأوضح تقريرها المبادئ العامة للممارسة عن بعد (اعتماداً على تطور هذه الممارسة خلال العقد الماضي) ومنها : المحاور والاهتمامات – ومجتمع التعلم – ودعم كل من الطالب والكلية – والمقرر الدراسي والأدوات – والتقديم والتقدير – والسياق المؤسسي – والكتب ومصادر المعرفة – والالتزامات – والتسهيلات والتمويل ، كما عرض التقرير لمتطلبات التعلم عن بعد المتمثلة في:- منهج قابل للتقديم بهذه الوسائط التقنية – وسياق يشجع ذلك – وأخلاقيات ضابطة للأداء حاكمة للتنافس في هذا المجال، كما ناقش التقرير المشكلات التي تنبثق إذا ما اتبع هذا الأسلوب في الدارسات العليا (www.apa.org / Psychonet) .

ب) التقرير الذي قدمته في إبريل ٢٠٠٢ لجنة الشئون التربوية بجمعية علم النفس الأمريكية – ويرأسها J . Halonen وتضم ١١ عالماً بارزاً – بهدف" تقدير assessment التوجيه عن بعد لأهداف التعلم ونتاجه" لمساعدة أقسام علم النفس عند وضع خطط تقويم مناسبة وفعالة، ويغطي التقرير جوانب مهمة لعملية التقويم على رأسها : -

أ-المبادئ التي تجعل ممارسة التقويم ناجحة مثل:-

١) التشجيع عليه من خلال جودة التصميم وحسن التخطيط.

٢) التركيز على جماعية أدائه.

٣) أن تكون أهدافه واضحة ومصاغة بعبارات تعكس ترسيخ أن يحقق الطالب الخطة التربوية لتعليمه.

٤) أن يكون هذا التعليم محدداً وواضحاً وقابلاً للقياس ويبرز ما يطرأ عليه من نمو وارتقاء.

٥) أن يكون تقويم الطالب مستمرا ومتعدد الوسائل والمصادر.

٦) أن يكون التقويم نفسه قابلاً للتقييم وتقدير مدي كفاءته حتى يساعد الطلاب على النجاح فيه، وتستخدم نتائجه بكيفية مناسبة قابلة للتفسير.

لذلك يجب أن يغطي التقويم الأنشطة الدراسية التي يعتقد القائمون بالتعليم أن الطلاب يحصلونها - كالمعارف وحل المشكلات وعادات التفكير وطرقه، وما شابه - وكيفية تكامل هذه الأنشطة مع إبراز أدلة أن الطالب قد تعلمها، من خلال تلقي مقرر دراسي ما بطريقة معينة وما مدى تنوع الطلاب في أنماط تحصيل هذا المقرر بما يعكس خبراتهم السابقة وما هي العمليات التربوية المسئولة عن ارتقاء تعلمهم .

ب-ثم يعرض التقرير تصورا عامة لاستراتيجيات التقويم واصفاً أكثر من ثلاثين طريقة له كالأسئلة المقالية أو محددة الإجابة بخيارات، وعرض درس ما شفاهة أو عبر إنتاج إما وسيلة إيضاح وإما ملصق، وكتابة تقرير معملي ...وغير ذلك من وسائل التقويم -التقليدية أو المستحدثة- معدداً مزايا كل واحدة منها وعيوبها وكيفية استخدامها .

ج-ويتطرق التقرير إلى المشكلات الشائعة عند تخطيط استراتيجية تقويم أو اختيار إحدى طرقها المناسبة بما في ذلك الاكتفاء بطريقة واحدة أم الاعتماد على عدد من الطرق،منبهاً إلى الدور المحدد للثقافة السائدة في القسم العلمي عند تفضيل أعضائه استراتيجية ما أو طريقة معينة ٠

د-ويقدم التقرير نموذجاً تطبيقيا لاستراتيجيات تقويم الطلاب في مقرر "علم النفس"، وتقييم ناقد لها يحدد أوجه القصور فيها وكيفية الوصول إلى أقصى درجة من الكفاءة فيها ٠مختتماً بقائمة لأهم المصادر في مجال التقويم ٠

هذه عينة من التقارير -الشاملة والنوعية - التي قدمتها لجان جمعية علم النفس الأمريكية استجابة لتقرير اللجنة الرئاسية الصادر ١٩٩٤ "أهداف ٢٠٠٠: تتعلم أمريكا لتعمل" ، ومع ذلك فما زالت الصيحات المطالبة بتحسين النسق التربوي للأمة الأمريكية تتعالى وتنادي بضرورة توفر أمرين هما:-

يتمثل **الأمر الأول** في إحداث تكامل بين علم النفس - بفروعه الأكاديمية - والتربية بواسطة هذا التكامل يمكن وضع :

أ - محتوى دراسي يسمح بتعلم نشط يتجاوز خبرات الفصل المدرسي إلى مواقف الحياة اليومية كاشفاً قدرة الطلاب سواء على تفسير جوانب من بيئتهم أو على اتخاذ القرار، الأمر الذي يقتضي إبراز التكامل بين المقررات المختلفة، لذلك يجب ألا يقتصر التقويم على المعلومات والمهارات الأدائية وإنما يتضمن قدرة الطلاب على توظيف مهاراتهم المعرفية والانفعالية والاجتماعية ٠

ب - برامج إعداد معلمين تتيح لهم كلاً من:-

١) الدليل العلمي (أي المعلومة) التي يقدمها المعلم لتلاميذه.

٢) كيفية ترجمة هذه المعلومة إلى ممارسة فعلية يومية.

لذلك شكلت جمعية علم النفس الأمريكية لجنة تقارن محتوي كتب علم النفس التربوي بما يراه الممارسون التربويون لوضع معايير الأداء المدرسي

ج – محددات السياق المدرسي الفعال ومقاييس جودته (Murray , 2002)

أما **الأمر الثاني** فهو تشخيص العوامل التي تعوق إسهام علم النفس في التربية وعلى رأسها:

أ – ضآلة اهتمام الأكاديميين – بتقاليدهم البحثية وثقافتهم العلمية التي توجههم إلى التركيز على العملية التعليمية * مما يجعل فروض البحث وطرقه مختلفة – بمجالي علم النفس التربوي والمدرسي ٠

ب – تضاؤل استفادة القائمين بوضع السياسات التربوية وتنفيذها من نتائج بحوث علم النفس الأكاديمية ، فعلى سبيل المثال توصل علم النفس المعرفي – خلال الثلث الأخير من القرن العشرين – إلى عدة نتائج قابلة للتطبيق بشكل مباشر في مجال إعداد المقررات الدراسية (مثل : انتقال أثر التدريب) ومع ذلك لم يلتفت إليها التربويون حتى الآن** ٠

ج – الاهتمام بالبحوث قصيرة الأمد سهلة التناول مع تناقص قيمة بحوث الميدان مقارنة بالبحوث المعملية مما يدعم لدى صانعي القرار فكرة أن علم النفس لا يقدم حلولاً للمشكلات التربوية ٠

د – شيوع تصور خاطئ للاهتمام المتزايد بالقياس Upscaling فعلي علماء النفس أن يرسخوا فكرة أن النتائج التي يتوصلون إليها قابلة للاستعادة

---

*بينما يركز التربويون على النتاج outcomes اعتماداً على ممارسة ذرائعية ٠

**مثال آخر يتمثل فيما توصل إليه علم النفس عبر الحضاري Cross – Cultural ويبرز أن أي سلوك (أو نشاط) يتضمن معاني ثقافية ، أي تحكمه قواعد تدرج تفضيلي تبرز وجهته (نحو أو ضد) وتحدد هادياته وكيفية أدائه وتوقيته (Rapoport , 1980:31) مما يعني تمايز الأنشطة التعليمية بتباين الخلفية الثقافية للمتعلمين أو على أدنى تقدير فإن فعالية المعززات المستخدمة في الموقف التعليمي مرهونة بنسق القيم الذي تحدده تلك الخلفية ، ومع هذا لا تعكس العملية التربوية ذلك ٠

عبر مدارس متنوعة تخدم جماهير متباينة في العمر والمستوي المهاري والنسق القيمي والسلالة ... الخ ، لذا يجب أن يتنوع المقرر الدراسي وطريقة تدريسه من مدرسة لأخرى مما يعني إمكانية وجود ضبط محلي للتربية(Sternberg & Lyon , 2002).

ثانيا: محاولات تطوير التعليم في مصر

كما سبقت الإشارة فان رئيس الدولة ومنذ عقد مضى نادى: "أن يصبح التعليم مشروع مصر القومي" ومع أن ما طرأ من تغير علي فلسفة التعليم وإستراتيجياته – وفقا لمجدي صبحي (٢٠٠٠) – لم يحقق ذلك، إلا أنه لا ينبغي إغفال المحاولات العديدة التي تمت لتطوير التعليم؛ سواء التي تناولت أهدافه أو إدارته أو برامج إعداد المدرسين أو المقررات الدراسية بما في ذلك إدخال الحاسب الآلي في جميع مراحل التعليم إما كمقرر دراسي وإما للاستفادة من برمجياته في إعادة تنظيم البني المعرفية(جابر عبد الحميد جابر،١٩٩٥: ١٦)، لما لها من خصائص فائقة في تخزين المعلومات وتصنيفها واسترجاعها...الخ.

وتوجد مؤشرات عدة لفشل محاولات التطوير هذه في تحقيق أهدافها؛ من هذه المؤشرات:-

١) زيادة معدل التعطل عن العمل بين المتعلمين كمؤشر لفشل برامج تأهيلهم للمنافسة في سوق العمل، ولعل اهتمام الدولة ببرامج التدريب التحويلي خير دليل على كون المنظومة التربوية في مصر مصدر لإهدار ثرواتها؛ فالإنفاق عليها لا يحقق عائده،إذ يعد الإنفاق على التعليم استثمار عائده تنمية مهارات الأفراد الأمر الذي يؤدي -على المدى البعيد- إلى ارتفاع الإنتاجية..

٢) انخفاض الإنتاجية* ، إذ تقل إنتاجية الفرد بمجمل الدول العربية عن نصف مستوى نظيره بكوريا أو الأرجنتين، وعن خمس مستواه بالصين على سبيل المثال (نادر فرجاني ٢٠٠١)، أضف إلى ذلك ضآلة – وربما غياب الإسهام الفكري واختفاء الإبداع، إذ تحتل الدول العربية -جميعها ومنها مصر–مراتب يُائسة في ترتيب دول العالم وفقاً لمعيار التنمية البشرية الذي اعتمده برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (حافظ القبيسي، ١٩٩٥).

٣) الاتجاهات السلبية لدى الجمهور بمختلف فئاته نحو محاولات تحديث التعليم المصري؛ خاصة ما يتعلق منها بتطوير المقررات، ففي استطلاع لأراء مجموعة من الطلاب وأولياء الأمور والمدرسين والخبراء التربويين حول المناهج * بعد محاولات تطويرها (محمد بدر ومحمد ناجي ، ٢٠٠٠؛ أماني صالح ، ٢٠٠٠؛ هالة حجازي ، ٢٠٠٠) حيث اتفقوا على أن :

أ – إنصب التطوير على مقررات بعينها (اللغة الإنجليزية والعلوم) دون غيرها،وكان عبارة عن تغيير ظاهر،يتمثل في حذف موضوعات أو إضافة أخرى،أو إخراج الكتاب المدرسي ،

---

* تشير مقدمة تقرير "الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية ٢٠٠٢"– لمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام،فبراير ٢٠٠٣–إلى المزيد من تراجع مؤشرات المكانة الاقتصادية المصرية في العالم إضافة إلى العجز عن تحقيق اختراق علمي وتقاني والفشل في كسر التبعية العلمية.

* عقدت في مصر عدة مؤتمرات لتطويرها منها "المؤتمر القومي لتطوير مناهج التعليم الابتدائي" سنة ١٩٩٣ فالإعدادي سنة ١٩٩٤ فالمؤتمر القومي للمعلم سنة ١٩٩٦ ، كما يوجد بمصر مجلس قومي التعليم تعد قراراته استشارية لرئيس الجمهورية ، ومركز قومي للبحوث التربوية ومركز آخر لتطوير المناهج والكتب المدرسية ومركز ثالث للتقويم التربوي والامتحانات، وتجدر الإشارة إلى أن المؤتمر السنوي للحزب الوطني سبتمبر ٢٠٠٢) بلور رؤية شاملة لتطوير التعليم العام والجامعي؛ تجسد كغيرها التقليد والاقتباس مما يجري في أمريكا.

ب – حجم المقررات وترتيبها لا يتماشى مع العمر ، فعلي سبيل المثال يفاجأ تلميذ الصف الرابع الابتدائي بثلاثة مقررات جديدة دفعة واحدة تتسم بالصعوبة والتركيب والتنوع، كذلك تعد مقررات الصف الأول الإعدادي أكثر سهولة من نظيرتها بالصف الخامس الابتدائي، ومثال ثالث أن طالب الصف الأول الثانوي يدرس أربعة عشر مقرراً بينما يدرس خمسة مقررات فقط في الصف الثاني، ومثلها في الصف الثالث، ففي كل مراحل التعليم بمصر لا يوجد تدرج في الصعوبة يناسب العمر

ج – صعوبة فهم بعض الموضوعات بسبب : –

– لم يقدم الكتاب المدرسي شرحاً كافياً؛ لضآلة عدد الأمثلة التوضيحية؛ الأمر الذي يفتح الباب أمام إلى: إما ما يسمى "الكتب الخارجية" الشارحة للكتاب المدرسي مما يجعل تكلفته لا طائل منها – وإما للدروس الخصوصية بما تحدثه من آثار شديدة السلبية بالعملية التعليمية، إذ تفسد التلميذ والمدرس والقيم التعليمية وتضعف عقل التلميذ –وإما لهما معاً .

– الحشو والإطالة وكثرة التشعيب والتداخل وكذلك استخدام عبارات غامضة أو غير ملائمة وجافة لكونها تعبر إما عن معلومات مشوهة وناقصة وإما عن موضوعات تنفصل عن واقع الطلاب أو لورود أخطاء مطبعية .

– غياب الموضوعات التي تواكب العصر ، ففروع الرياضيات التي نهتم بتدريسها على سبيل المثال لا علاقة لها بتلك التي يدرسها طلاب الدول المتقدمة، أي هم يدرسون الفروع ذات الصلة بتطبيقات الحاسب الآلي والأقمار الصناعية والاتصالات ، بينما نحن ندرس ما هو تقليدي ولا

يتصل مباشرة بالواقع ولا يتسق مع أنساق القيم في المجتمع المصري كما لا يلبي قضاياه ٠

- سوء إخراج الرسوم التوضيحية والخرائط على ندرتها ٠
- كون المدرسون لم يتلقوا تدريباً على أي تطوير يلحق بالمقرر أو طريقة تقديمه قبل تكليفهم بتدريسه بوقت كاف* ٠
- غياب التنسيق بين المقررات الدراسية في الصف الدراسي الواحد، أو بين محتوى مقرر دراسي بعينه عبر الصفوف** ناهيك عن مدرسي المقرر الواحد ٠

إذا وضعنا هذه الآراء جنباً إلى جنب المؤشرات الموضوعية التي تؤكد ضعف مردود المنظومة التربوية في مصر، يتضح إلى أي حد فشلت في تحقيق أهدافها ٠

ويرجع هذا الفشل إلى عدد من العوامل علي رأسها:-

١-افتقاد محاولات تحديث التعليم -والمجالات الأخرى- في مصر للأسس العلمية التي تنطلق منها كتوجه وممارسة؛ فتطوير التعليم يقتضي تناولاً متعدد المراحل مؤسسا على المنهج العلمي بخصائصه وخطواته،

---

*فعلي سبيل المثال جاء امتحان الفصل الدراسي الأول للصف الثالث الإعدادي هذا العام ٢٠٠٢ / ٢٠٠٣ وفق أسلوب لم يعلم به المدرسون إلا منتصف الفصل الدراسي -ولم يتسلم الطلاب الكتاب الذي يرشدهم له إلا أوائل الفصل الثاني-وبالتالي لم يتح لهم الوقت لتدريب تلاميذهم على هذا الأسلوب مما سبب مشاكل عديدة ٠

- **في حين يمتد التنسيق بين الدول الغربية ليشملها جميعا مثال ذلك مؤتمر وزراء تعليم الدول الصناعية الثماني في إبريل ٢٠٠٠ بطوكيو وبمشاركة ممثلي الهيئات العلمية والثقافية لتنسيق السياسات التعليمية (محمد بدر ومحمد ناجي، ٢٠٠٠) ، ومع كون الدول العربية أعضاء في منظمات مهمتها تنسيق الاستراتيجيات التربوية كالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم -ومكتب التربية العربي لدول الخليج...وغيرهما إلا أنها تعاني من ضعف الاهتمام بالسياسات (محمد أحمد الرشيد، ١٩٨٨)٠

يتعامل وبشكل متوازن مع عناصر النسق التربوي جمعيها مسلماً بأنها تتبادل التأثير فيما بينها ، فالتعليم عملية متعددة العناصر تشمل : -

١) طالب بخصاله ووسعه للتعلم ودافعيته للأداء الدراسي وإمكاناته وقدراته العقلية والوجدانية ومهاراته الحركية التي تمكنه من ذلك وتلعب دوراً في تحديد فعالية العملية التعليمية، لذا يجب وضع كل هذه الجوانب في الحسبان عند صياغة المقررات أو استراتيجية تقديمها أو تقويمها .

٢) يتلقى محتوى دراسي؛ موزع على عدة مقررات؛ يشكل كل منها نوعية من الخبرات تؤثر في شخصية الطالب؛ ويشكل المحتوي الدراسي الرسالة التي من خلالها تؤثر المدرسة والمدرسون في التلميذ ليحقق أهدافا بعينها، هي أهداف العملية التعليمية التي تعكس حاجات المجتمع وقيمه ،من هنا ضرورة بناء المقررات بطريقة تجذب انتباه المتعلم وتستثير خبراته السابقة وتشحذ طموحاته وتخلق لديه رغبة في التحدي.

٣) يقدم هذا المحتوى للتلاميذ مدرس يعد وسيطاً بين المقرر والتلميذ ويتجاوز دوره هذا التقديم وحتى تقدير استيعاب التلميذ لما قدمه، إذ تلعب خصال المدرس المزاجية واهتماماته وخبراته السابقة دورها المحدد لأدائه في الفصل، مثال ذلك ما يكونه المدرسون من توقعات - لأسباب عديدة - عن أداء تلاميذهم، مسترشدين في ذلك بمستوى ذكاء التلميذ أو حتى ملبسه، ولهذه التوقعات تأثيرها في أداء التلميذ، فـ ٣٨% من البحوث (٣١١ بحثاً) تؤكد أنه إذا توقع الآخرون أن يصدر فرد ما سلوكاً فإنه يصدره، وحتى تحدث توقعات المدرس تأثيرها في أداء تلاميذه الأكاديمي والاجتماعي عليه أن يخطط لنقل توقعاته إليهم إما من خلال التفاعل بدفء معهم وإما بواسطة تعريضهم لمواد تستثير لديهم التحدي وإما بتخطيط رجع استجابته لسلوكهم ، والأفضل أن ينقل توقعاته من خلال كل ذلك

(Weyant , 1986 : 103 - 104) ، مما يعني ضرورة أن يكون المدرس واعيا بتفاعله مع تلاميذه .

٤) والطالب هذا ليس بمفرده ، إذ يشاركه في تلقي المقررات ذاتها عبر المدرسين أنفسهم ، زملاء فصل يشكلون جماعة تقوم – نتيجة عمليات نفسية اجتماعية إما داخل الجماعة Intragroup كالاتباعية والاستقطاب والتفكير الجمعي ، وإما فيما بين هذه الجماعة وغيرها من الجماعات intergroup وعلاقاتهم المتبادلة (عرض هذه العمليات : عبد المنعم شحاته، ٢٠٠١: ٨٥-١٠٢) – بالدور الأكبر في تعليم الطالب وحتى في تنشئته وفقاً لنظرية التنشئة الجماعية group socialization ، إذ تعد عوامل الجماعة التي يتواجد وسطها الأفراد مسئولة عن أكثر من نصف التباين في شخصياتهم ، حتى لو كان هؤلاء الأفراد توائم متطابقة (Harris , 1995)، وعلى أدنى تقدير، فإن البحوث تؤكد أن لزملاء الفصل دورهم المحدد لإدراك الفرد لذاته ، والذي بدوره يحدد مستوي أدائه الأكاديمي (Altekmatt; et al , 2002) .

٥) يضاف إلى كل هؤلاء إدارة مدرسية تنظم عملية تقديم المدرسين للمقررات إلى التلاميذ ، ويتوقف نمط الأداء التعليمي وكفايته على الإدارة فبإمكانها تنشيط هذا الأداء أو تثبيطه فإذا كانت العلاقات الإدارية رأسية كان فشل العملية التربوية لأن هذا النمط من العلاقات يسبب الإحباط للممارسين ويقلل ثقتهم بأنفسهم ويحفزهم لمقاومة الإصلاح (أحمد المهدي عبد الحليم ، ١٩٨٨)، ولعل النمط الرأسي في العلاقات داخل النسق التربوي بدولنا العربية هو السائد مما أدى إلى عجز في مواكبه التطور والبعد عن الاستجابة للمستجدات (محمد أحمد الرشيد ، ١٩٨٨) .

٦) ويوجه كل ما سبق أهداف سواء كانت : –

أ – غايات عامة كتنمية القوي البشرية بتوجيه الأفـراد للتكيـف مـع المجتمع والاتسام بالفعالية في بناء الوطن وتقدمـه وذلـك بتحريـر العقول وتهذيب العواطف والأخلاق وتحقيق الكفاءات العملية في الحياة (المرجع نفسه) ، وتشارك هيئات اجتماعية أخرى المدرسة في تحقيق هذه الغايات كالأسرة والمسجد ووسائل الإعلام .. وما شابه، ويجب أن تتسق هذه الغايات مع الأنساق القيمية السائدة في المجتمـع، بـل تستمد هذه الغايات من تلك الأنساق .

ب – أو كانت أهداف خاصة بارتقاء قدرات التلاميذ المعرفيـة كـالفهم والتذكر والتحليل والتركيب والإبداع والتقييم واتخاذ القرار، بما يتطلبه تحقيقها من أنشطة تربوية كالتدريب على الملاحظة والتجريب ووصف المشاهدات وإجراء المقارنات والدخول في مناقشات . الـخ وأدوات ممارسة هذه الأنشطة .

ج – أو كانت أهداف نوعية تتعلق بأداء شيء بعينه كبناء جمله صحيحة نحوياً أو إجراء عملية حسابية بذاتها أو إتيان استجابة حركية بكيفية ما .. إلخ، ويجب أن تتسم مثل هذه الأهـداف بالتحديـد والوضـوح والقابلية للتحقق بتضمنها قائمة المواقف التي تحققها وقائمة مظـاهر السلوك التي تعبر عنها .

وتتكامل هذه المستويات جميعها لبناء مواطن صالح يتمتع باللياقة النفسـية فيكون متوافقاً ومنتجاً .

٧) استراتيجيات تقدير مدى تعلم التلاميذ المحتوي الدراسي الذي قدم لهم ، ومدى تحقق الأهداف التربوية .

٨) وكل ما سبق يكون في إطار سياق ثقافي بمستوييه : –

أ – الضيق المتمثل في المدرسة ، فهي ليست مكاناً للتحصيل الاكاديمى فحسب، بل تعد مناخاً نفسياً اجتماعياً يتأثر فيه التلميذ بالمقرر والمدرس وزملاء الفصل والإدارة (Weyant , 1986 : 120) حيث ينمون معاً معتقدات واتجاهات وقيم وعادات وطقوس وتعبيرات رمزية عنها بما يجعل المدرسة تشكل نسقاً ثقافياً(أحمد المهدي عبد الحليم ، ١٩٨٨) يشكل مقرراً ضمنياً يحدد – مثله مثل المقررات الدراسية الصريحة – نتاج العملية التربوية وكفاءتها إذ تؤكد بحوث عديدة سيادة السياق الثقافي النوعي هذا في التعلم (Harris , 1995; Wren, 1999) ، ولا يقتصر تأثير سياق المدرسة على الآداء الأكاديمي لطلابها بل يمتد إلى مدى تمتعهم بالصحة النفسية، ففي دراسة قومية طولية لصحة المراهقين تبين أن لدرجة إحساس التلميذ بانتمائه للمدرسة تأثيرها في حالته النفسية، إذ أدى انخفاض هذا الانتماء إلى زيادة احتمالات الإصابة بالاكتئاب والرفض الاجتماعي والتورط في مشاكل دراسية (Anderman, 2002) ،

ب – الواسع أو المتسع المتمثل في الأنساق القيمية السائدة في مجتمع ما والضابطة لنشاط الأفراد وتحدد أهداف التعليم وحاجاته (اليوسف ، ٢٠٠، سمير غبور، ١٩٩٠).

وهذه العناصر تتفاعل فيما بينها وتتبادل التأثير – كما يوضح الشكل التالي – ويعتمد كل منها على الآخر، حتى أن التركيز على أحدها وإغفال الباقي يؤدي إلى فشل العملية التربوية.

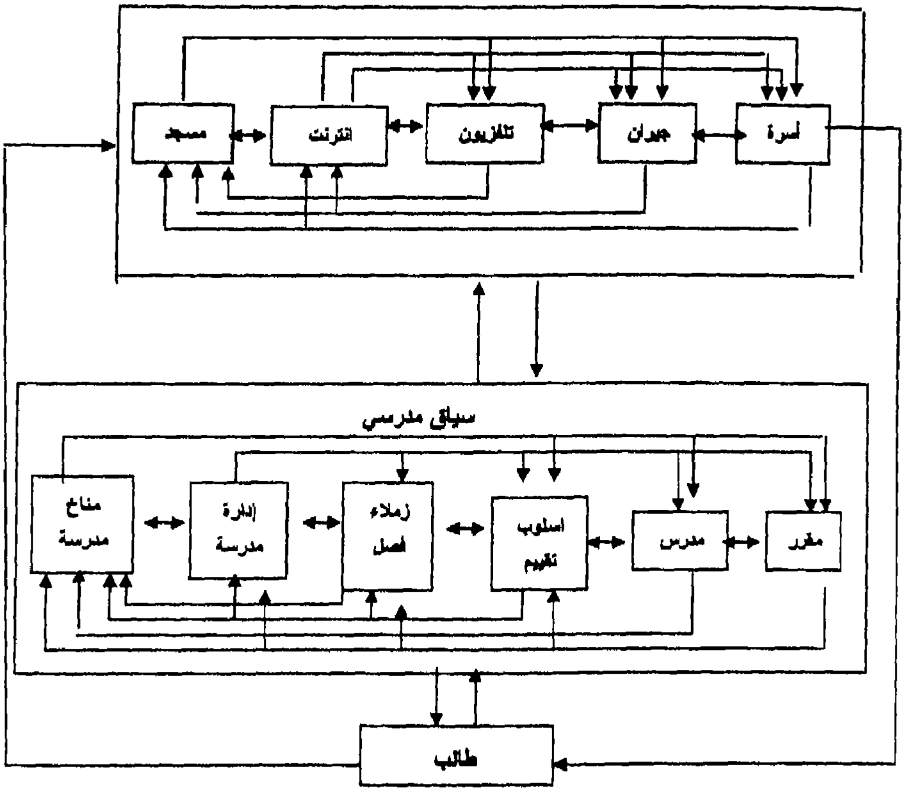
وهكذا يجب أن تبدأ مراجعة العملية التربوية العربية بالوعي بكونها نسق متعدد العناصر يشكل كل عنصر منها سلسلة من الاستجابات المعرفية

المعقدة والمركبة والتي تعد تنبيها للعناصر الأخرى* مما يقتضـي ضـرورة الاستعانة بفروع علم النفس الأكاديمية كالمعرفي والارتقـائي والاجتمـاعي ... الخ لفهم طبيعة العملية التربوية .

٢-كون محاولات تطوير العملية التعليمية في مصر بمثابـة تقليـد جزئـي ومبتسر لدعوات تحديث المنظومة التربوية الأمريكية دون التوجه العـام لهذه الدعوات، أي سعى مؤسسات علمية مصرية لمراجعـة المنظومـة التربوية في مجتمعنا بموضوعية وشمولية وتكامل، أما نحن فإننا نستعير بعض التفاصيل مما لا ينبغي استعارته، فكما يقـول "سـترنبرج وليـون" (٢٠٠٢) أن ما يحدث في مكان ما قد لا يظهر في مكان آخر، وبالتـالي فإن برنامج التدخل – لعلاج مشكلة سلوكية أو تربوية، وما شابه – الذي يفيد هنا ليس ذا جدوى هناك ذلك لأنه يوجد اتساق في نتائج البحوث التي تقارن بين أفراد من ثقافات مختلفة يبرز أي مدى يتبـاين نشـاط الفـرد بتنوع الثقافة التي نشأ فيها، حيث لأي نشاط إنساني وجهه النفسي ، وهو وجه شديد الحساسية لفعل المؤثرات الحضارية (سويف ، ٢٠٠١) ، فعلى سبيل المثال:

---

* فتحصيل الطالب سلسلة من الاستجابات المعرفية لتنبيهات معرفية مصدرها كل من المقـرر والمـدرس والامتحان والزملاء والبنية المدرسية ونشير في هذا السياق إلى جدل يدور بين التربويين يتعلق بكـون أداء الطالب يقاس بمعيار مرجعي المحك (تقارنه بزملائه) أم محكي المرجع (فيمـا يسـمي نمـوذج " آنجوش ") ، وفي ظل حماسهم للمعيار محكي المرجع؛ ينظر علم النفس الاجتماعي إلى الأمر على أنـه جدل ، فكلا المعيارين مستمد من جماعة مرجعية (الزملاء في معيار مرجعي المحك أو جماعة الخبراء للمعيار محكي المرجع) وتاريخ قياس الاتجاهات يبرز أن اللجوء للطريقة الأخيرة (محكي المرجع) أقل دقة حيث مقارنة أداء التلميذ بمجموعة تختلف عنه في العمر والتعليم والخبرة والقـدرة والتفضـيلات ... الخ ، ولعوامل الجماعة وعملياتها تأثير كبير يجب وضعه في الحسبان .



شكل يوضح التفاعل بين عناصر الموقف التعليمي

أ - تشير دراسات عديدة إلى أن مفهوم الذكاء كما قدمه علماء نفس غربيون لا يناسب أبناء أفريقيا أو أسيا أو أمريكا اللاتينية، لذا تعددت محاولات تصميم مقاييس ذكاء أكثر حساسية لقيم الثقافة التي يستخدم فيها، إذ توجد فروق حضارية في الذكاء تلعب دورها في بناء المقاييس،

حيث يذكر " نيسبت Nisbett أن كلاً من أبناء شرق أسيا والدول الغربية يطورون أساليب معرفية مختلفة في طرقها الأساسية بما في ذلك دلالة "الذكاء" لدى كلا منهم، فالذكاء لدى أهل شرق أسيا وسيلة لأداء الدور الاجتماعي بنجاح كي تستمر عضويتهم في الجماعة التي ينتمون إليها، بينما ينظر الغربيون إلى الذكاء بوصفه وسيلة الفرد لإيجاد فئات يمكن استخدامها عند الدخول في مناقشة ما، وترتبط هذه الفروق في دلالة الذكاء باختلافات في عمليات معرفية أساسية لأفراد من ثقافة شرقية أو غربية وفي أساليبهم المعرفية ، فالثقافة ليست مجرد سلالة أو جنسية ... الخ وإنما الثقافة هي الخبرة (Benson , 2003) .

ب- أشار مصطفى سويف (٢٠٠١) إلى أن عناصر "السواء" Normality مستوحاة من إطار فلسفة حياة له طابع معين هو طابع الفلسفة الفردية* الذي يستوعب منظومة القيم الحاكمة في المجتمعات الغربية التي تكرس محورية " الأنا "و "تحقيق الذات " كمكون أساسي للصحة النفسية الإيجابية positive mental health حيث التأكيد على الفردية وإلغاء الجماعية، وبالتالي فإن هذا المفهوم لا يناسب الأطر الحضارية المشبعة بفلسفة حياة تختلف عن الفلسفة الفردية، هنا اقترح سويف (المرجع نفسه) مفهوم "اللياقة النفسية" ليناسب الأطر الأقل تكريساً للفردية والأكثر احتضاناً للجماعية (كالسائدة في مجتمعاتنا العربية)، حيث تقوم الصحة النفسية أساساً على تحقيق المستوى الأمثل من التناسق بين مقتضيات كل من: الفردية individualism والجماعيةCollectivism ، وهذا

* مع كون هذه العناصر مستخلصات تستند إلى دراسات تجريبية وميدانية منضبطة ، حيث للإطار الاجتماعي / الحضاري دوره في تشكيل الفكر العلمي بوجه عام والفكر العلمي السيكولوجي بوجه خاص ولم ينتبه غالباً العلماء الأفراد إلى هذا الدور إلا مؤخراً جداً (سويف،٢٠٠١) .

ما سوف يختلف من إطار حضاري إلى إطار آخر بناء على خصائص كل إطار وتحديد أدوار الأفراد بداخله، أي أنه بينما ينصرف مفهوم السواء إلى معنى الوسط الحسابي على سمة أو مجموعات سمات بعينها ويتمحور حول "إرضاء الذات" ، يؤكد مفهوم اللياقة النفسية التناسق داخل مجموعة من العمليات النفسية الاجتماعية وتفاعلها مع السياق الاجتماعي الحضاري، مما يعني أن المفهوم يستمد مضمونه من جذري "الذاتية " والاجتماعية " في الحياة اللذان يحددان معنى كل بعد من أبعاد الصحة النفسية الإيجابية الخمسة وهي : التخطيط في مقابل الاندفاعية – والاستقلالية في مقابل الاعتمادية – والاتساق في مقابل التنافر – والاندماج في مقابل التفرد – وسلامة التعامل مع الواقع بشقيه الخارجي الاجتماعي والداخلي النفسي .

ج – مثال ثالث يتعلق بدافع " تشجيع الذات " الذي يسود اعتقاد أنه شائع في الثقافة الغربية الأكثر تكريساً للنزعة الفردية، بينما هو غائب في الثقافات الشرقية الأكثر توجهاً نحو الجماعية، إذ تكشف الدراسات أنه دافع أنساني عام موجود في كل الثقافات إلا أن مظاهره وآليات تحقيقه تختلف من ثقافة لأخرى، فاليابانيون مثلا يشجعون أنفسهم باستخدام مضامين جماعية بينما يستعين الأمريكان في المقابل بإعزاءات فردية . (Sedikides , et al , 2003)

د – الأمر كذلك فيما يتعلق بإدراك السببية واستراتيجيات القيام بعزو سلوك إلى أسبابه، إذ تكشف دراسة "شي" Chei وآخرون (٢٠٠٣) أن الكوريين يقومون بإرجاع السلوك إلى أسباب خارجية اجتماعية بينما يعزوه الأمريكان إلى أسباب داخلية نفسية (وذلك بغض النظر عن نوعية السلوك : منحرف أو بناء prosocial الذي تم عزوه) لاعتماد الكوريين

على معلومات أكثر، مما يعني أن نظريات السببية لدى أهل شرق أسيا أكثر عمومية holistic وتعقيداً منها لدى الأمريكان .

هـ - ولا يتوقف تأثير السياق الحضاري عند تحديد دلالة مفاهيم نفسية مركزية كالذكاء أو السواء، ولا عند آليات ترجمة هذه المفاهيم إلى استجابات ظاهرة كإستراتيجيات تشجيع الذات والعزو السببي، إنما يمتد تأثير السياق الحضاري إلى إدراك الهوية القومية لفئات داخل المجتمع الواحد -ناهيك عن المجتمعات المختلفة - فعلى سبيل المثال توجد فروق بين الأمريكان من أصل أوربي ونظرائهم من أصل أسيوي في إدراك معنى كون الفرد أمريكيا، وهذه الفروق تعكس الخلفية الثقافية للمجموعتين من الأمريكان (Tsai , et al , 2002) .

هذه الأمثلة، وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره *- تستخلص من نتائجها أنه ليس مناسباً استعارة نظرية علمية أو مفهوم أو حتى استراتيجية تدخل معينة لأنها قد نجحت في مجتمع ما ، فمن المرجح فشل هذه الاستراتيجية في تحقيق النتائج نفسها للمجتمع الذي استعارها ، ذلك لأن مضمون العلوم الاجتماعية يختلف من مجتمع لأخر لاختلاف التوجهات والقيم والمعايير الخاصة بكل مجتمع الحاكمة للظواهر الاجتماعية وحتى لآليات تكوين هذه الظواهر أو تغييرها، وبالتالي فإن تشابهت الظواهر في مجتمعين، فمن المحتمل أن تختلف طريقة تعامل كل منهما معها، في هذا الحال إذا نجحت استراتيجية أحدهما للتعامل مع الظاهرة، فإن استعارة المجتمع الآخر لهذه الاستراتيجية لن تحقق النجاح نفسه عند التعامل مع الظاهرة ذاتها وذلك : -

* هذه الأمثلة ليست مستمدة من مقارنات بين أهل الحضارة الغربية مقابل أهل الحضارات الشرقية فحسب بل فيما بين أهل الحضارة الواحدة ، فالبحوث التي تقارن بين شقي الثقافة الغربية اللاتينية - أوربا وأمريكا- بقوا سمها المشتركة العديدة تثبت صعوبة تعميم نتائج بحوث أجريت في السياق الثقافي الأمريكي ، أي أن هذه النتائج لا تصلح لتفسير ظواهر سلوكية في المجتمع الأوربي (أنظر على سبيل المثال دوريات الأخصائي " النفس الأوربي - والمجلة الأوربية في علم النفس الاجتماعي - والمراجعة الأوربية في علم النفس الاجتماعي ... الخ) .

أ) إما لاختلاف تقدير كل من المجتمعين لأهمية الظاهرة بسبب تباين الأولويات.

ب) وإما لاختلاف أسباب ظهورها في كلا المجتمعين ،

ج) وإما لاختلاف ترتيب هذه الأسباب أن تشابهت في الحالتين خاصة وأن أية ظاهرة لا يسببها عامل واحد بل عدة أسباب بعضها ضارب بجذوره في أعماق ثقافة بعينها، وبدون وضع ذلك في الحسبان تفشل معالجتنا للظاهرة (عبد المنعم شحا ته، ١٩٩٢) ،

وهكذا تكشف التنظيمات الثقافية عن نفسها في سلوك الفرد، إذ تتراكم أثارها على الكيفية التي يفكر ويشعر ويسلك بها الفرد (Taylor, 1998) ومن هنا تزايد الوعي بالخاصية الثقافية والأيديولوجية للعلم عموماً والعلوم الاجتماعية على وجه الخصوص بما في ذلك فروع علم النفس والتربية ،

وهكذا فشلت المنظومة التربوية المصرية - والعربية بوجه عام- لأنها اختارت اقتباس بعض جوانب نمط التعليم الغربي في كل المراحل التعليمية من رياض الأطفال وحتى التعليم العالي بما في ذلك برامج أعداد المعلمين إذا تقوم أدواتها ومعاييرها على فلسفات ونظريات غربية بعيدة عن واقعنا العربي والمسلم (أحمد اليوسف، ٢٠٠٠؛ سمير غبور،١٩٩٠؛ أحمد على مدكور، ١٩٩٢؛ أحمد المهدي عبد الحليم ، ١٩٨٨؛ عبد العزيز الجلال،١٩٨٥ : ٥٧) ،

٣-التوسع في استخدام الحاسب الآلي دون التنبه لأضرار ذلك والتي تقتضي ترشيد هذا الاستخدام*؛ فمع الإشادة بجهود تطوير العملية التعليمية من خلال التوسع في استخدام الحاسب،إلا أنه وتعظيما لفائدته،يجب لفت الانتباه إلى عدد من سلبيات هذا التوسع؛والبحث عن سبل تجنبها،أي "ترشيد التطوير أو التحديث" وهو ما يسعى إليه المقال الراهن.فللتوسع في استخدام الحاسب الآلي انعكاساته السلبية علي المجتمع -أي مجتمع- وأفراده،وقد رصد العلماء أن المجتمعات التي سبقتنا في هذا المضمار تواجه عددا من هذه السلبيات سنتطرق إلى بعض منها بعد الإشارة إلى جانب يخصنا كعرب أو كمسلمين أو كسكان عالم ثالث (نامي) يعد مستهلكا لهذه التقنية وليس منتجا؛ويجب الانتباه إلى هذا الجانب عند تحديث نظم حياتنا؛والمتمثل في أن -كما يشير الخبراء- الاعتماد المتزايد علي تقنية المعلومات يحدث انفصالا بين المواطنين وثقافتهم،لهذا الانفصال مقدماته منها:-

١) إن تقنية المعلومات خلاصة أيديولوجية بعينها؛وتعد ترويجا لسياساتها وممارساتها (محمد ربيع،٢٠٠٠)؛سعيا إلى دمج الأنساق الثقافية الأخرى في هذه الأيديولوجية (Blanton,et al.,1998) حتى أن اليونسكو عقدت في

* طور علماء النفس في الخارج تخصصا مستحدثا يسمى "علم نفس التحكم عن بعد في النظم" Cyberspace psychology وصدرت دوريات لنشر بحوث تناولت موضوعات تندرج ضمن هذا الفرع الوليد مثل:- "علم نفس التحكم عن بعد في النظم والسلوك" CyberPsychology & Behavior - و"طرق وأدوات بحث السلوك والكمبيوتر" Behavior Research Methods, Instrument & Computers - و"الحسابات الآلية في السلوك الإنساني" Computers in Human Behavior - و"السلوك وتقنية المعلومات" Behavior & Information Technology - و"مجتمع المعلومات" The Information Society، ليس هذا فحسب؛ بل أنشئ معهد تخصص في دراسات التفاعل بين الإنسان والحاسب الآلي (يسمى اختصارا HCII) .

مارس ١٩٩٨ مؤتمرا عنوانه "الثقافة والتنمية" خلص إلى ضرورة النظر إلى تقنية المعلومات من منظور ثقافي تنموي وضرورة تكاتف الشعوب من أجل التصدي لظاهرة التجنيس الثقافي (هيمنة الثقافة الأمريكية*) الجاري حاليا (نبيل علي،٢٠٠١: ١٢٥).

٢) يترتب على الأخذ بتقنية المعلومات إهمال تراثنا الثقافي؛ما لم تتم معالجته وفقا لنظم هذه التقنية،والجزء الذي يصبح بمنأى عن هذه المعالجة يعنى أنه غير قابل للاستفادة منه الأمر الذي يؤدى إلى اندثاره (المرجع نفسه: ٧٩).وإذا كان أحد فروع علم النفس الأساسية وهو علم النفس الاجتماعي يعرف بأنه دراسة السلوك كما تحدده وتشكله الثقافة (van de Vijer & Lung,1997) وإذا كان ما يتعرض له الأفراد الآن –عبر الإنترنت– من رموز ثقافية تحدد سلوكهم (الأمر ليس قاصرا علي الإنترنت؛فقبل ذلك كانت –ومازالت– وسائل الإعلام الجماهيرية؛كما يكشف "شيللر"،١٩٨٦) يتعارض مع رموز ثقافية نشئوا عليها وتشكل مرجعيتهم فلنا أن نتصور حالة هؤلاء الأفراد النفسية في ظل محددات متناقضة لسلوكهم؛ وهي نقطة جديرة باهتمام باحثي العلوم الاجتماعية والإنسانية.أضف إلى ذلك ظواهر كانت محورا للاهتمام من قبل وناتجة عن التعرض لثقافة أخرى مثل الصدمة الحضارية وكيفية الاستجابة لها؛وبالتأكيد سوف تختلف ملامحها في ظل إمكانية اندماج الفرد في ثقافة أخري خلال التفاعل مع أشخاص لا يعرفهم ولا يراهم.

عود إلى الموضوع الرئيس وهو سلبيات التوسع في استخدام تقنية المعلومات لتطوير التعليم؛ فنشير إلى ما يلي علي سبيل المثال:–

---

* انظر قائمة المواقع مرتبة حسب نسبة المترددين عليها والتي يعدها شهريا فريق "www. Cyberatlas.internet.com".

أ- تغير نمط التفاعل الاجتماعي المتبادل بين الأفراد:- إذ تشير الدراسات أن مكوث الصغار أمام شاشة الحاسب يزيد من عزلتهم* عن العالم الخارجي ويؤدي إلى انحصار التخاطب اللفظي بين أفراد الأسرة؛ وأن المخاطبة عبر الحاسب الآلي أقل أساليب الاتصال فعالية؛ حتى أن المشاركة في مؤتمر عبر الحاسب لم تؤد إلى زيادة درجات الطلاب المشاركين فيه؛ مما يشكك في فعالية هذه التقنية (Wallace,1999; Cifuentes & Hughey,1998). كذلك تشير عدة دراسات -أجريت قبل ثلاثة أعوام - بأسلوب المسح على عينات كبيرة (تتراوح بين ألف وتسعة آلاف فرد) من مستخدمي "الإنترنت" أن ما بين ٨و١٣% منهم تظهر عليهم أعراض إدمان الكمبيوتر أو الاعتماد كما يصنفه الدليل التشخيصي الرابع للاضطرابات النفسية، ونسبة الذكور بينهم تتراوح بين ٧٢و٩٣%، ومتوسط مدة مكوثهم أمام الحاسب ٢٢٩دقيقة (حوالي أربع ساعات) يوميا؛ وقد أثر هذا سلبيا علي تحصيلهم الدراسي ونومهم ومهاراتهم للقاء أفراد جدد (Anderson,1999)، وفي دراسة أجريت بمشاركة ٢٥٩ مبحوث (١٣٠ ذكر متوسط أعمارهم ٣١سنة،١٢٩أنثى متوسط أعمارهن ٣٣سنة) من مستويات تعليمية ومهنية مختلفة؛ تبين أن الذين صنفوا "مدمنو كومبيوتر" يفضلون مزاولة الأنشطة التي تؤدى بشكل منفرد ويميلون لعلاقات اجتماعية محدودة وضيقة (Young & Rodgers,1998)، كما تكشف دراسة تم فيها تتبع ١٦٩ فردا لمدة عامين؛

* ناهيك عن الأضرار الصحية حتى أن "جافين كليري" وزملاءه أطباء مستشفى "جريت أدرموند ستريت" للأطفال بلندن أرسلوا خطابا إلى المجلة الطبية البريطانية ينادون فيه بضرورة وضع تحذيرات صحية لمستخدمي الكمبيوتر تنبه إلى الأضرار الصحية الناتجة عن المكوث أمامه لفترات طويلة (1/2/2002www.masrawy.com/health/7158/news.htm).

أن التردد بانتظام وبشكل دوري (أي إدمان) علي شبكة الإنترنت أدى إلى انحصار التواصل بالكلام بين أعضاء الأسرة وزيادة مشاعر الاكتئاب والإحساس بالوحدة؛ وأثر سلبيا علي الاستقرار الأسري؛ حتى أن أهل الاختصاص في الصحة النفسية أشاروا إلى علاقة مطردة بين التردد على الإنترنت واختلال الصحة النفسية (Kraut, et al., 1998; Young, et al., 1999). يؤكد ذلك أيضا دراسة أجريت أخيرا قدم فيها "لاد" و "بتري" Ladd & Petry (٢٠٠٢) استخبارا عن سلوك المقامرة؛ إلى ٣٨٩ من طالبي العلاج المجاني أو المخفض من المترددين علي عيادات الجامعة (التي أجرى فيها البحث) وتكشف النتائج أن ٧٠% ذكر أنه قامر خلال الشهرين السابقين علي جمع البيانات؛ وأكثر من ٨% يقامرون عبر الإنترنت، وبالمقارنة بينهم وممارسي صور القمار التقليدية تبين أن مقامري الإنترنت أصغر عمرا وأقل تعليما وأدني دخلا ونسبة العزب بينهم أعلي مقارنة بممارسي المقامرة التقليدية كما أن من يقامرون منهم بشكل مرضي أعلي أيضا (٧٤% مقابل ٢٢%)، ويحذر الباحثان من أن النمو المتزايد لاستخدام الإنترنت سيؤدي إلى مزيد من المقامرة وما ينجم عنها من صعوبات صحية وانفعالية لذا يدعو المهتمين إلى مزيد من إجراء البحوث في هذا المجال.

وقد لاحظ التربويون تخلف أطفال أمريكا عن أقرانهم الأسيويين (اليابان- والصين – وسنغافورة – وكوريا الجنوبية) في اللغة والحساب ومهاراتهما الأساسية – في ظل تفوق نسبة الأطفال الأمريكان إلى مجموع مستخدمي الإنترنت في العالم عددا ومدة تردد ونوعية – مما اعتبره الأمريكان مسألة أمن قومي مماثل لما حدث عقب نجاح السوفيت في إطلاق أول صاروخ فضاء (عام ١٩٥٧)، نتج عن الأمرين اهتمام عالي المستوى

بمسألة التعليم؛ فكان تقرير "أمة في خطر"في ثمانينيات القرن العشرين، وكان مؤتمر وزراء تعليم الدول الثماني الصناعية الكبرى بطوكيو ٢٠٠٠ للتنسيق* بينها في السياسة التعليمية (نبيل علي،٢٠٠١: ٢٩).

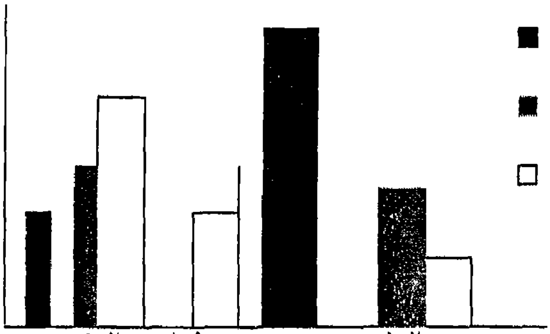
وهكذا يؤدي اعتماد الأطفال علي وسيلة اتصال أقل فعالية إلى اضطراب حالتهم المزاجية وتدهور مهاراتهم الاتصالية وتغير بالتالي نمط علاقاتهم الاجتماعية التي تعد أساس البناء الاجتماعي (Perrolle,1987: 47)، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد إنما تحدث التقنية تغييرا في نمط العلاقات المتبادلة بين الأفراد كمجتمع والبيئة؛ فالمعلومات وسيلة الأفراد لفهم العالم المحيط بهم؛ والأدوات وسيلتهم للتعامل معه؛ وهكذا تؤدي المعلومات إلى إدراك العالم ويمتزج هذا الإدراك بخبرات التعامل لينتجا معا تصورات ثقافية تسهم في تشكيل فهمنا للعالم ومن خلالها يتعلم الفرد ما يتوقعه من البيئة (المرجع نفسه: ٣٥).

ب- التشبع overloading المعرفي: ويعد أحد أنماط إدمان الكومبيوتر(إضافة إلى- كما يرى "يونج" وآخرون ،١٩٩٩- التردد القهري على مواقع الجنس؛ واستغراق مرتفع في علاقات عبر الشبكة؛ ومقامرة أو تسوق عبر الشبكة؛ ومشاركة نشطة وسواسية في اللعب عبر الشبكة) ويتمثل في التعرض للمعلومات بشكل مكثف ومتكرر مما يؤدي إلى تداخلها؛ ويؤثر سلبيا ليس فحسب علي الأداء الأكاديمي وإنما على كل النشاط العقلي، ففي إحدى التجارب التي يتم فيها تدريب الأفراد على التحكم في التفكير كإجراء لتغيير المعتقدات؛ تبين منها أن التشبع المعرفي معوق أساسي لتغيير الأفكار التي يعتقد الفرد في صحتها؛ وفي

---

* لاحظ غياب التنسيق علي أي مستوى: إقليمي (عربي أو إسلامي أو إفريقي) أو قومي؛ وانظر لمحتوى مقرر ما (الرياضيات مثلا) عبر سنتين أو مرحلتين دراستين.

المقابل كان عامل ميسر لتبني الأفكار التي لا يعتقد الفرد في صحتها (Wagner,1994) كما يوضح الشكل التالي:



ج- شيوع الانحراف وضروب سلوك إجرامية كالتشهير* والعنف والشذوذ الجنسي...وغير ذلك، وأحد التفسيرات المطروحة هو أن شبكة الإنترنت تخلق سياقا مفترضا (خائلي) آمنا يسمح للأفراد بممارسة أفعال مثيرة للخجل مما يجعلها - نتيجة التكرار- ليست كذلك بل مقبولة ومعتادة؛ دليل ذلك نتائج دراسة "كوبر" Cooper وزملائه(٢٠٠١) والتي قدموا فيها استخبارا (من ٥٩ سؤال) لثلاثة عشرة ألفا وخمسمائة متردد على شبكة الإنترنت خلال عام ١٩٩٨ لمعرفة تفضيلاتهم الجنسية؛ وتكشف النتائج أن ١٥% ممن دخلوا مواقع "الويب" قد ترددوا على أكثر عشرة مواقع شهرة للجنس عن بعد cybersex(التي تشكل نشاطا اقتصاديا ل:٩،٦مليون فرد سنة ١٩٩٨) بمتوسط إحدى عشرة ساعة أسبوعيا؛ وأن ٨٧% منهم لم يشعروا بالذنب أو الخجل. ويماثل هذا ما أثير حول

* نشير إلى واقعة نشرتها أهرام ٢٠٠٢/٣/١٢ حيث نشر شخص صورة فتاة – بوصفها عاهرة – ورقم هاتفها والبريد الإلكتروني للشركة التي تعمل بها انتقاما لرفض أسرتها خطبته لها.

تورط أطفال ومراهقين في جرائم عنف في الأعـوام الأخيـرة – لعـل أشهرها إطلاق طالب ثانوي النار علي زملائه بمدرسة "كلـورادو" فـي أبريل ١٩٩٩ ومحاولة زميلة له ذلك مرة أخرى بالمدرسة نفسـها فـي ديسمبر ١٩٩٩ وربطت التقارير بين سلوكهما وتمضية وقت طويل مـع شبكة الإنترنت*- والتي يمكن عزوها إلى كثافة التعـرض لممارسـات منحرفة عبر الشبكة تيسر الإقدام علي مثلها في الواقع؛ وهو ما سبق أن أثير قبل عقدين – أو أكثر- حول علاقة الإعلام بشيوع الجريمة(انظـر حول هذا: عبد المنعم شحاته،١٩٩٦).

وهكذا بدأت تعاني مدارسنا من تزايد معدلات العنف بين التلاميـذ؛ وبعض منه موجه ضد المدرسين وإدارة المدرسة وممتلكاتها، ناهيـك عـن الغش في الامتحان وتعاطي المخدرات وأنماط أخرى من الاضطراب؛ وهـذه المعدلات مرشحة للارتفاع في ضوء ما ذكر آنفا، ويدعو إلى التوقف لتأمـل تجربة غيرنا لترشيد تنفيذها؛ بمعرفة سلبياتها وتجنبها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخري فان ما سبق يدعو إلى وقفة لإعادة النظر فـي محتـوى علـم النفس التربوي وعلم النفس الاجتماعي وغيرهما في ضوء ظواهر استجدت أو ملامح لظاهرة تغيرت نتيجة ثورة المعلومات.

٤-كل ما سبق جعل محاولات تحديث التعليم في مصر غريبة عن منفـذيها (المدرسون منهم بوجه خاص) فلم يقتنعوا بها أو يتحمسوا لها الأمـر الذي أفقدها الاستمرارية وأصبحت لا تعدو كونها حبرا على ورق ممـا يمثل إهدارا لثروة قومية.

---

* أثير كلام مماثل عقب أحداث ٢٠٠١/٩/١١ كانت نتيجته أن شركة "ماكروسفت" حذفت لعبة الطيران

ولوضع خطة مثمرة وفعالة لتحديث التعليم في مصر؛ يجب القيام بمجموعة من الخطوات على رأسها : -

١ - مراجعة النسق التربوي المصري في ضوء نتائج دراسات تقويمية لأدائه واختبار كفاءته وفعاليته لمعرفة إيجابياته، والتعرف على نقاط الضعف وتحليل الأخطاء التي أدت إليها، وهذا يحقق فائدة مزدوجة :

أ - تحاشي البدء - كما يقول نبيل على (٢٠٠١ - ٤٧) - من الصفر، بمعرفة نقاط القوة وتعزيزها والبناء عليها ٠

ب - تحديد الهدف من إصلاح العملية التربوية وترتيب العناصر المستهدفة بهذا الإصلاح بمعني ترتيب أولوياته ٠

٢ - في ضوء ذلك تنظم هيئات علمية قومية سلسلة ندوات متوازية (يخصص كل منها لمرحلة دراسية معينة تتعامل مع عناصر النسق التربوي جمعيها في هذه المرحلة) يشارك فيها علماء نفس أكاديميون وتربويون مع واضعي السياسات التربوية ومنفذيها إضافة إلى علماء دين واجتماع بهدف تحديد - كما يقول سعيد إسماعيل على (٢٠٠٠) - عدد من المهارات الأساسية الضرورية لحياة ناجحة فعالة ومنتجة وجعل هذه المهارات ركناً رئيسياً في العملية التعليمية حتى نعين المتعلم على مواجهة أي موقف يتعرض له مستقبلاً بثقة واقتدار ٠

٣ - يتبع ما سبق، عقد مؤتمر موسع يناقش ما انتهت إليه الندوات السابقة في ضوء كل من المبادئ الأساسية لارتقاء الإنسان ومتطلبات الحياة الناجحة في مجتمع ذي خصائص ثقافية بعينها، وتهدف هذه المناقشة إلى الاتفاق على :

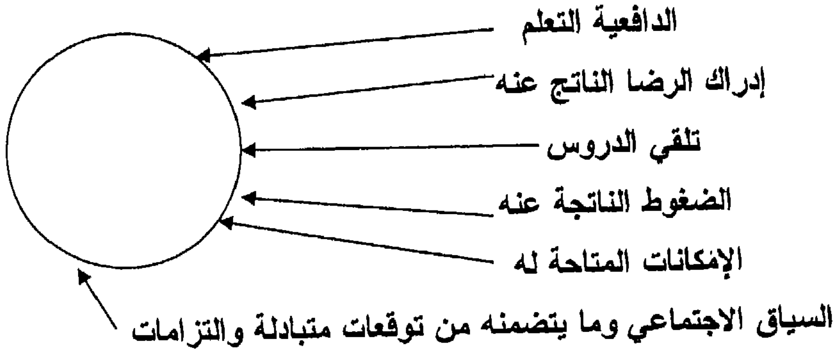
أ - كيفية ترجمة هذه المهارات الأساسية إلى برامج دراسية متكاملة ومتسقة مع بعضها، ويتطلب هذا توظيف عدد من الأسس النفسية عند

وضع المقررات على رأسها: تحليل السلوك – وانتقائية الانتباه والإدراك – وتكامل الحواس – وانتقال أثر التدريب – وكيفية تكوين المفاهيم –والقدرة على التعميم – والتعزيز – وتكرار العرض وترتيبه – الدافعية – والتفضيلات – وخصائص النشاط العصبي٠٠ وغيرها ٠

ب – كيفية انتظام هذه البرامج (المقررات، أو تدرجها من حيث كم المعلومات المتضمنة فيها ومستوى صعوبتها) وتتابعها (أي مستوى من هذه البرامج يأتي قبل الآخر وفقاً لمعلوماتنا عن نضج التلميذ) بما يلائم عمر المتعلم ووسعه المعرفي ٠

ولا يتأتى هذا دون أن نضع في الحسبان :

١) أن العملية التعليمية نشاط نفسي لأطرافها؛ ولعلماء النفس – بتخصصاتهم الأكاديمية – إسهامهم في فهم هذا النشاط وتفسيره، والذي يعد دالة شروط بعينها كالدافعية لإصداره والتوترات المستثارة أثناء ذلك، والسياق الاجتماعي المعزز – أو المثبط – له والامكانات المتاحة لممارسته وإدراك الرضا الناتج عنه، فمثل هذه الشروط تحدد كيفية قيام المعلم بالتدريس أو الطالب بالتلقي على سبيل المثال ويوضح الشكل التالي هذا :



ويجب توظيف هذا الإسهام عند إعادة صياغة العملية التعليمية ككل أو أحـد عناصرها مثل بناء المقررات ،

٢) وأفضل صيغة لهذا التوظيف أن نترجم أهداف العملية التعليمية التي تعبر عنها المقررات إلى مهارات يكتسبها المتعلم، وأن يتم ربط هذه الأهداف والمهارات التي تترجمها بمواقف يتعـرض لهـا المـتعلم، بعضها يواجهه الآن، وبعضها الآخر سيتعرض لها مستقبلاً وذلـك يحقق التعليم هدفه العام وهو بناء مواطن صالح منتج قـادر علـى التوافق مع المجتمع الذي يعيش فيه بإيجاد صيغة للتـوازن بـين حريته في تحقيق رغباته الخاصة والتزامه بما تعارف عليه المجتمع من صالح عام (حرية مسئولة)، بذلك يمكنه الاستفادة مستقبلاً ممـا تعلمه، بهذه الكيفية تركز المقررات ليس على المعلومـات القابلـة للتطبيق في مواقف الحياة الآن فحسب، وإنما تكسب التلميذ مهارات التنمية الذاتية لأساليب التعامل مع المستجدات ،

٤- إيجاد آلية لمراجعة دورية – كل سنتين أو ثلاث – لمقررات مرحلـة دراسية ما بغرض تحديثها في ضوء كل من: المستجدات التي نؤهل التلميذ للتعامل معها – مؤشرات تقويمية للأداء الأكاديمي في المقرر بهذه الكيفية نجعل من بناء المقررات (المناهج الدراسية) جسراً بين ما توصل إليه الباحثون (علماء النفس) من أسس أو مبـادئ ومـا يعايشه الممارسون (واضعي السياسات التعليمية ومنفذوها) مـن خبرات ومشكلات ،

الخلاصة

تعد المعرفة (المعلومات والبيانات والنواتج الذهنية) كما يقول "توفلر" مصدر السلطة اليوم ووسيلة مضاعفة القوة والثروة (المصادر السابقة للسلطة) من خلال إما زيادة الإنتاج وإما تقليل القدر المطلوب من عنصري القوة والثروة لإنجاز هدف ما، أي أن المعرفة هي عملية محورية للقوة والثروة معا (عبد المنعم شحاته، ٢٠٠٢) من هنا أصبح التعليم عملية محورية للتنمية التي تتطلب إعادة بناء الشخصية المصرية حتى تصبح أكثر قدرة على الإنتاج والمشاركة في أنشطة التنمية، لذا يقتضي الأمر إعادة مراجعة المنظومة التربوية في ضوء ثلاثة محددات :

١-تجارب إعادة صياغة هذه المنظومة في الدول المتقدمة (وقد عرضنا لبعض إسهامات علم النفس في هذه العملية كما تمت في الولايات المتحدة خلال العقد الأخير)، للتعرف علي التوجهات الأساسية لمحاولات التطوير وكيفيته دون استعارة محتواها.

٢-خصائص السياق الثقافي للمجتمع المصري (وقد عرضنا لبعض المؤشرات التي تستوجب وضع هذه الخصائص في الحسبان عند تطوير العملية التعليمية، لإيجاد محتوى ملائم.

٣- وسائل التقنية الحديثة بما تتيحه من برمجيات تعليمية ومدى الاستعانة بها في تطوير العملية التعليمية؛ وترشيد هذه الاستعانة استنادا إلى النقطتين السابقتين .

ولأن معطيات مثل هذه المراجعة لا تملكها دولة عربية منفردة ، مما يعني ضرورة التنسيق الفعلي بين الدول العربية وأن يكون تنسيقاً على مستوى الممارسات لا السياسات (عبد العزيز الجلال ، ١٩٨٥: ١٧٧) فقد اقترح نبيل علي (٢٠٠١ : ٢١ – ٦٢) ضرورة أن تتولى الجامعة العربية إدارة حوار بين محورين يشكلان منظومتي الثقافة والتقنية ، نستخلص منه توجهاً معرفياً يشكل بوصلة المعرفة – للمجتمعات العربية– للفترة القادمة وأن توجه هذه البوصلة طبيعة بناء المناهج التي تشكل مضمون العملية التعليمية .

المصـــادر

١ – أحمد اليوسف (٢٠٠٠) علاقة التربية بالمجتمع وتحديد ملامحها النوعية . عالم الفكر ، ٢٩ (١) : ٧ – ٤٧ .

٢ – أحمد المهدي عبد الحليم (١٩٨٨) نحو اتجاهات حديثة في سياسة التعليم العام وبرامجه ومناهجه . عالم الفكر ، ١٩ : ٣٠٥ – ٣٣٦

٣ – أماني صالح (٢٠٠٠) التعليم والإنسان : خبرة ذاتية . أحوال مصرية ٩ : ١٠٢ – ١١٠ .

٤ – المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي والتكنولوجيا (١٩٩٢) تقرير عن دورته الـ١٩ العام ١٩٩١ – ١٩٩٢ .القاهرة.

٥ – -جابر عبد الحميد (١٩٩٥) قراءات في تنمية الابتكار. القاهرة: دار النهضة العربية.

٦-حافظ قبيسي (١٩٩٥) التعليم العالي العربي. عالم الفكر، ٢٤ (١ / ٢): ٦٩– ٩٤ .

٧ – سعيد إسماعيل على (٢٠٠٢) أحوال التعليم الجامعي في مصر . أحوال مصرية، ١٧ : ٤٩ – ٥٦ .

٨ – سمير غبور (١٩٩٠) التعريف ، القضايا ، وجهات نظر . صـ٤٩– ١١٥ في "حاجات الإنسان الأساسية في الوطن العربي (ترجمة : عن السلام رضوان). الكويت: عالم المعرفة (١٥٠) .

٩ – عبد العزيز الجلال (١٩٨٥) تربية اليسر وتخلف التنمية . الكويت : عالم المعرفة (٩١) .

١٠ – عبد المنعم شحاته (٢٠٠٢) علم النفس والقرن الحادي والعشرون . بحث ألقي في مؤتمر " العلوم الإنسانية في ظل تقنيات المعلومات . كلية الآداب – جامعة المنوفية ، ١٥ – ١٦ / ٤ / ٢٠٠٢ .

١١ – ----------- (٢٠٠١) آنا والأخر: سيكولوجية العلاقات المتبادلة.القاهرة: ايتراك.

١٢-----------(١٩٩٦)موجة العنف: مسؤولية الفرد أم المجتمع. دراسات إعلامية،٨٥: ١١٥-١٣١.

١٣ – عبد المنعم شحاته (١٩٩٢) الأعداد العلمي للإخصائى النفس المسلم . مؤتمر " التوجيه الإسلامي للعلوم " ، رابطة جامعات العالم الإسلامي وجامعة الأزهر ، القاهرة ٢٤ – ٢٩ / ١٠ /١٩٩٢ ، (كتاب المؤتمر صـ ٦٦٩ – صـ ٦٨٦).
١٤ – علي أحمد مدكور (١٩٩٢) تقويم مناهج تربية المعلمين في ضوء معايير التصور الإسلامي. مؤتمر "التوجيه الإسلامي للعلوم"، رابطة جامعات العالم الإسلامي وجامعة الأزهر، القاهرة ٢٤-٢٩/١٠/١٩٩٢ (كتاب المؤتمر ص٥٨٩ – ص ٦٥٢).
١٥- مجدي صبحي (٢٠٠٠) هل التعليم مشروع قومي متعثر؟.أحوال مصرية،٩: ٩٠-٩١.
١٦ – محمد أحمد الرشيد (١٩٨٨) التربية ومستقبل الأمة العربية. عالم الفكر،: ٢٣٩ – ٣٠٤ .
١٧ – محمد بدوي بدر ، محمد عباس ناجي (٢٠٠٠) المناهج التعليمية بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون. أحوال مصرية ، ٩ : ١٧٩ – ١٨٧ .
١٨-محمد محمود ربيع (٢٠٠٠) إعادة بناء دور الأسرة المصرية في عصر العولمة. أحوال مصرية،٩: ٢١٨-٢٣٨.
١٩-مصطفي سويف (٢٠٠١) اللياقة النفسية . مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، ٦١ (٢) : ٩ – ٢٧ .
٢٠ ----------(١٩٩٤) نحن والمستقبل. القاهرة: كتاب الهلال(٥٢٣).
٢١- نادر فرجاني (٢٠٠١) التنمية الإنسانية في الوطن العربي. ص١٠١ – ص١٢٠ في : أساسين عساف وآخرون (محور) قضايا عربية معاصرة . عمان : مؤسسة عبد الحميد شومان .
٢٢ – نبيل علي (٢٠٠١) الثقافة العربية وعصر المعلومات. الكويت : عالم المعرفة (٢٧٦) .
٢٣- هـ.شيللر (١٩٨٦) المتلاعبون بالعقول.الكويت: عالم المعرفة(١٠٦).
٢٤ – هالة حجازي (٢٠٠٠) العملية التعليمية بين التجريب والتذبذب. أحوال مصرية، ٩ : ١٧٢ – ١٧٨ .

25 - E . ALTEVMATT . E . POMERANTZ, D. RUBLE: K. FREY & F . GREULICH (2002) SELF- PERCEPTIONS OF ACADEMIC: A NATURALISTIC EXAMINATION OF EVELUATIVE DISCOURSE AMONG CLASSMATES, DEVELOPMENTAL PSYCHOLOGY, 38: 903 - 917.

26-E.ANDERMAN (2003) SCHOOL EFFECTS ON PSYCHOLOGICAL OUTCOMES DURING ADOLESCENCE. J.EDUC. PSYCHOL., 94:795-809.

27-ANDERSON, K. (1999) INTERNET USE AMONG COLLEGE STUDENTS: AN EXPLORATORY STUDY. CYBERPSYCHOLOGY & BEHAVIOR,2: 711-723.

28-APA (1997) LEARNER– CENTERED PSYCHOLOGICAL PRINCIPLES: A FRAMEWORK FOR SCHOOL REDSIGN AND REFORM REPORT PREPARED BY BORD OF EDUCATIONAL AFFAIRS (BEA).

29-APA (2002 A) TOOLS FOR TOMORROW. MONITOR ON PSYCHOLOGY, 33 (8) : 59 .

30-APA (2002B)GARDNER EXTENDED SEVVIES SCHOOL. MONITOR ON PSYCHOLOGY, 33 (8) : 57 .

31-BLANTON,W.; MOORMA, G. & TRETHEN,W. (1998) TELECO - MMINCATIONS AND TEACHER EDUCATION. REVIEW OF RESEAECH IN EDUCATION,23: 235-275.

32-E.BENSON(2003)INTELLIGENCE ACROSS CULTURES MINROR ON PSYCHOLOGY, 34 (2) : 56 .

33-CHOI, R. DALAL; C. KIM-PRIETO & H. PARK (2003) CULTRURE & JUDGMENT OF CASUAL. J. PERS. SOC. PSYCHOL., 84: 46 - 59.

34-CIFUENTES, L. &HUGHEY J. (1998)COMPUTER CONFERENCING AND MULTIPLE INTELIGENCES. PAPER PRESENTED AT NATIONAL CONVENTION OF THE ASSOCIATION FOR EDUCATIONAL COMMINCATIONS AND TECHNOLOGY. US: ST LOUIS,18-22/2/1998.

35-COOPER, A.; SCHERER, C. & MATHY, R.(2001) OVERCOMING METHODOLOGICAL CONCERNS IN THE INVESTIGATION OF ONLINE SEXUAL ACTIVITIES. CYBERPSYCHOLOGY & BEHAVIOR,4: 437-447.

36-J. HARRIS (1995) WHERE IS THE CHID'S ENVIRONMENT? AGROUP SOCIALIZATION THEORY OF DEVELEPMENT. PSYCHOL. REV.,102: 458 -489.

37-KRAUT, R.; LUNDMARK, V.; PATTERSON, M.; KIESLER, S.; MUKOPADYAY, T& SCHERLIS, W. (1998) INTERNET PARADOX: A SOCIAL TECHNOLOGY THAT REDUCES SOCIAL INVOLVEMENT AND PSYCHOLOGICAL WELL-BEING. AMER.PSYCH.,53: 1017-1031.

38-LADD,G. & PETRY,N. (2002) DISORDERED GAMBLING AMOUNG UNIVERSITY-BASED MEDICAL AND DENTAL PATIENTS: A FOCUS ON INTERNET GAMBLING. PSYCHOLOGY OF ADDICTIVE BEHAVIOR, 16: 76-79.

39-D. MAXWELL (2002) MEETING NATIONAL NEEDS: THE CHALLENGE TO LANGUAGE LEARNING IN HIGHER EDUCATION. CHANGE, (MAY) (WWW. FINDARTICLES. COM /15 / 2/ 2003) .

40- B. MURRAY (2002) WANTED : POLITTICS - FREE, SCIENCE BASED EDUCATION . MONIROR ON PSYCHOLOGY , 33 (8) : 52

41-PARKER,J.(2002)THE ROLE OF METACOGNITION IN CLASSROOM. WWW.EPAPERS.COM/ 19-3-2003.

42-PERROLLE, J.(1987) COMPUTERS AND SOCIAL CHANGE. CALIFORNIA: WADSWARTH PUB..

43- A. RAPOPORT (1980) CROSS - CULTURAL ASPECTS OF ENIVORNMENTAL DESIGN (4: 7- 46) IN: I. ALTMAN, ETAL. (EDS .) HUMAN BEHAVIOR AND ENVIRONMENT . NEWYORK : PLENUM PRESS .

44- C. SEDIKIDES: GAERTINRER & Y. TOGUCHI (2003) PANCULTURAL SELF - ENHANCEMENT . J . PERS . SOC . PSYCHOL., 84: 60 - 79 .

45-R. STERNBERG & G . LYON (2002) MAKING A DIJJERENCE TO EDUCATION: WILL PSYCHOLOGY PASS UP THE CHANGE . MONITOR ON PSYCHOLOGY, 33 (6) : 76 .

46-S. TAYLOR (1998) THE SOCIAL BEING IN SOCIAL PSYCHOLOGY (1: 58 -85) IN : O. GILBERT; S. FISKE & G.LINDZEY (EDS.) THE HANDBOOK OF SOCIAL PSYCHOLOGY, BOSSTON: THE MCCRAW - HILL.

47-J. TSAI, H. MORTENSEN, Y. WONG 8 D. HESS (2002) 'WHAT DOES BEING AMERICAN MEANS': COMPARISON OF ASIAN AMERICAN & EUROPEAN AMERICAN YOUNG ADULTS. CULTURAL DIVERSITY & ETHNIC MINORITY PSYCHOLOGY, 8 : 257 -273.

48-VAN DE VIJER,F. &LUNG, K. (1997) METHOD AND DATA ANALYSIS FOR CROSS-CULTURAL RESEARCH. CA: SAGE.

49-WEGNER, D. (1994) IRONIC PROCESSES OF MENTAL CONTROL. PSYCHOL. REV.,01: 34-52.

50-WALLACE, P.(1999)THE PSYCHOLOGY OF INTERNET. CAMBRDGE: UP (من خلال: محمد ربيع، ٢٠٠٠؛مرجع سبق ذكره).

51-J. WEYANT (1986) APPLIED SOCIAL PSHCHOLOGY. NEW YORK : OXFORD UNI. PRESS.

52-D. WREN (1999) SCHOOL CULTURE: EXPLORING THE HIDDEN CURRICULUM. ADOLESCENCC, FALL: 1.

53- WWW.CYBERATALS.COM/

54-WWW.MASRAWY.COM/HEALTH/7518/ 1-2-2002.

55-WWW.APA .ORG/ PSYCHONET / 1-2-2003.

56-YOUNG, K.; PISTNER, M.; O'MARA, J. &BUCHANAN, J.(1999)CYBER-DISORDERS: THE MENTAL HEALTH CONCERN THE NEW MILLENNIUM. PAPER PRESENTED AT APA 107TH CONVENTION, 20/8.

57-YOUNG, K. & RODGERS, R. (1998) INTERNET ADDICTION: PERSONALITY TRAITS ASSOCIATED WITH ITS DEVELOPMENT. PAPER PRESENTED AT 69TH ANNUAL MEETING OF THE EASTERN PSYCHOLOGICAL ASSOCIATION, APRIL, 1998.

ثانيا: في مجال الصحة

مدخل

أدى الاهتمام بتطبيقات علم النفس الاجتماعي في مجال الصحة العامة للأفراد والمجتمعات إلي ظهور نسق علمي مميز سمي "علم نفس الصحة" health psychology أو "علم النفس الطبي" medical psychology أو "طب السلوك" behavior medicine ويسعى إلى دراسة نمطين من السلوك؛ واكتشاف المحددات النفسية الاجتماعية لهما؛ وهما:-

١- ضروب كل من السلوك الصحي والسلوك الخطر؛ أي الأفعال التي تقي من المرض أو تسببه:- مثل تناول وجبة متوازنة- والبحث عن الرعاية الطبية - وتعاطي مواد مؤثرة في الحالة النفسية كالسجائر -...الخ.

٢- كيفية التعايش مع المرض؛ مثل الاستجابة الانفعالية المترتبة علي التشخيص أو اختيار العلاج الطبي المناسب أو تعلم وممارسة العادات الصحية التي تحد من تفاقم المرض.. وغيرها(Leventhal,1986).

وفي إطار هذه الدراسة يكون السعي لتخطيط كل من:-

أ- حملات الوقاية الأولية من الأمراض البدنية خاصة المتوطنة منها.

ب-برامج تدريب المحيطين بالمرضى لإصدار ضروب سلوك مساندة لمرضاهم.

ج-برامج تدريب المصابين بأمراض مزمنة أو مستعصية حتى يعايشوا أمراضهم.

لذا يهتم هذا التخصص المستحدث بدراسة الموضوعات التالية:-

١-الأنماط السلوكية - العوامل النفسية الاجتماعية- التي تسبق أو تصاحب الإصابة بالآلام إما المزمنة كالصداع والتهاب المفاصل؛ وآما المستعصية كالسرطان والالتهاب الكبدي الوبائي...وما شابه.

٢-سلوك النمط "أ" والأرق والتوتر المرتفع واضطرابات المناعة العصبية النفسية psychoneuroimmunology .

٣-عادات السلوك غير الصحية كالتدخين وتناول وجبات غير متوازنة (مما يؤدي إلى السمنة التي تصنف الآن كمصدر إعاقة) (Blanchard, 1994)؛ ومع أن البحوث الحديثة - التي تجريها فرق علمية يشارك فيها علماء نفس وأعصاب وكيمياء - تؤكد أن تغييرات في معدل تركيز "دوبامين" dopamine بالمخ تسبق وتصاحب إصدار الفرد عادة سلوكية ضارة بالصحة كتعاطي مخدر أو تناول طعام بشراهة...الخ؛ وأن هذه التغييرات بمثابة إشارة يرسلها المخ كي يقدم الفرد على مثل هذا السلوك (www.psycport.com)؛ إلا أن لعوامل السياق النفسي الاجتماعي إسهامها ليس المهيئ فحسب لإصدار هذه العادات؛ إنما المشجع أيضا.

٤- الاستفادة من مبادئ التفاعل والاتصال لزيادة كفاءة المقابلة الطبية من خلال:-

أ)إكساب الطبيب كل من:-

- مهارات التخاطب اللفظي إما كمستقبل؛ حيث يستفيد من كلام المريض في اتخاذ قرارات تشخيصية وجعل المريض (والمحيطين به) يتقبل هذه القرارات ويفهمها، وإما كمرسل يعرف متى يتحدث ومتى يصمت؛ ماذا يقول صراحة وما الذي يلمح به؛ وكيف يطلب إجراء فحوص إضافية أو يحيل إلى جهات أخرى.
- مهارات التخاطب غير اللفظي بواسطة نظرات العين واللمس ودورهما التشخيصي والعلاجي.

ب- مهارات إدارة انطباعات المرضى والمحيطين بهم عن الطبيب وجعلهم يشعرون بالرضا عن زيارتهم له.

وقد بلورت دراسة هذه الموضوعات ضرورة التعامل مع المرض من خلال سلسلة من عمليات التشخيص تشمل:-

١)التشخيص الاجتماعي أو تقدير إدراكات الأفراد لحاجاتهم أي نوعية الحياة.

٢)التشخيص الاستشرائي الوبائي epidemiological بهدف تحديد كل من:

- الترتيب الموضوعي للمشكلات الصحية التي يعاني منها المجتمع.
- ترتيب العوامل البيئية والسلوكية وفقا لمدى إسهام كل منها في إحداث هذه المشكلات.

٣)التشخيص السلوكي لتحليل محددات الصحة في ضوء السلوك أو أسلوب الحياة.

٤)التشخيص التربوي والتنظيمي لتحديد العوامل التي يمكن تعديلها لإحداث تغيير بيئي يؤدي إلى مزيد من السلوك الصحي؛ وتشمل هذه العوامل:-

- مقدمات سلوكية تعد أساسا منطقيا لفعل ما (استعدادات).
- عوامل تقوية enabling تدفع الفرد لفعل ما.
- عوامل دعم أو نتائج السلوك الصحي.

٥)التشخيص علي مستوى السياسة العامة بسن لوائح تيسر أو تعوق ارتقاء برامج الوقاية الأولية وانتشارها (Kok; et al, 1996).

وحدثت في السنوات الأخيرة مزاوجة بين علم نفس الصحة - أو طب السلوك -وعلوم طبية أخري في إطار نسق علمي يطلق عليه " health promotion" لرفع درجة تمتع الأفراد والجماعات بالصحة؛ لذا يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية:-

١- مساعدة الأفراد علي إحداث تغييرات في أسلوب معيشتهم كي يحسنوا نوعية الحياة.

٢- إنقاص كلفة الرعاية الطبية وزيادة كفاءة الأداء لأعضاء الفريق الطبي وللجمهور ككل بما يزيد الإنتاجية عموما.

٢- تدريب الأشخاص على إدارة الضغوط وتحمل المشاق Holloway, 2003) .

ونقدم في هذا السياق ثلاثة مقالات:-

الأولى: وتصف ملامح الشخص المشكل المعرض أكثر من غيره للانحراف؛ وكيفية التعرف على هذه الملامح كخطوة أولى للوقاية من الانحراف.

الثانية: وتعرض الكيفية التي يقلل بها فرد ما أحزانه؛ كإجراء وقائي لقائمة طويلة من الاضطرابات النفسية على رأسها الاكتئاب والأمراض النفسجسمية.

الثالثة: وتمثل نموذجا للاستفادة من علم النفس الاجتماعي في مجال الوقاية الأولية لقائمة طويلة من أمراض السرطان والدورة الدموية ...وغيرهما من خلال مكافحة التدخين.

-E. Blanchard (1994) Behavior medicine & health psychology. (701-733) In: A. Bergin & E.Garfield (eds.) Handbook of psychotherapy and behavior change. NewYork: Wiley & Sons.
-J. Holloway (2003) Promotion integrated health care. Monitor on Psychology, 34,4: 36.
-H. Leventhal (1986) Health psychology. (PP: 448-476) In: L. Berkowitz. A survey of social psychology.
G. Kok; H. Schalma; H. Parcel & T. Paulusseen (1996) Social psychology and health education. Eur.Rev.Soc.Psychol.,7: 241-282 www.psycport.com/28-4-2003

-٢

الاكتشاف المبكر للحالات المعرضة للانحراف*

منع وقوع الخطر أفضل كثيرا

من مواجهته إذا وقع.

مقدمة :

تشير الإحصاءات إلى تزايد معدلات الانحـــراف بـــين المـــراهقين والشباب، ففي مصر – على سبيل المثال – تشير دراسة مسحية منضـــبطة منهجياً أجراها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية علـــى عينـــات ممثلة لقطاع الطلاب بلغت ١٤٦٥٦ من طلاب الثانوية بنين، ١٢٧٩٧ مـــن طلاب الجامعة ذكورا ، ٧٢٥٥ من الطالبات ، وقد اعتـــرف ٤٢%، ٢٦%، ٢١% منهم على التوالي بأنهم غشوا فـــي الامتحـــان، ٣٠%، ١٦%، ٨% على التوالي اعترفوا بأنهم أساءوا التصرف في قاعات الدرس، كذلك أقـــر ١٣%، ١٥% ٩% أنهم قد سبق لهم التطاول على أساتذتهم بأشكال متفاوتة وصلت أحياناً إلى حد التشاجر، واعترف ٣٠% من طلاب الثانوي أنهم قـــد سبق لهم الزوغان من المدرسة (هذه الظاهرة لا محل لها فـــي الجامعـــة إلا بأشكال أخرى) (سويف ، ١٩٩٤ : ١٤١-١٤٣)، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد ، إذ تشير بيانات الأمن العام خلال العقد الأخير إلى تزايد نسبة الجرائم التي يرتكبها صغار وذلك نتيجة تعرضهم لصور مختلفة من الانحراف علـــى رأسها : مخالطة مشبوهين – والتسول – والتشرد (أو المبيت في الطرقات)

* نشر في: "مجلة بحوث كلية الآداب جامعة المنوفية"،يناير ٤٨،٢٠٠٢: ٢٢٩-٢٤١.

– والهروب من المدرسة – والمقامرة – والاعتماد على وسائل غير مشروعة للعيش (كالدعارة) (حمزة ، ٢٠٠٠) .

وتشهد الولايات المتحدة – كمثال آخر – تزايداً خطيراً في معدل انحراف المراهقين ، فعدد المقبوض عليهم في جرائم قتل تضاعف أربع مرات، كما زاد معدل الانتحار بينهم ثلاث مرات، وتضاعفت أعداد المتهمين في جرائم اغتصاب وزاد معدل المواليد لأمهات مراهقات (فتتراوح أعمارهن من ١٠ إلى ١٤ سنة مما اصطلح على تسميتهن " أطفال يلدن أطفالاً") ، أضف إلى ذلك أن معدل تعاطي الهيروين والكوكايين تضاعف ثلاث مرات لدى الأمريكيين البيض وثلاث عشرة مرة لدى الأمريكيين السود (جولمان، ٢٠٠٠ : ٣٢٠ – ٣٢١)، وأن اثنين من كل ثلاثة طلاب جامعيين يحتسون الخمر كي يسكروا، وأن ٩٠% من حالات الاغتصاب في الحرم الجامعي (بأمريكا) كان المغتصب أو الضحية أو كلاهما في حالة سكر (المرجع نفسه : ٣٤٨)، وتشير دراسات عديدة في مناطق أخرى من العالم أن معدلات العنف والتعاطي (الإدمان) لدى المراهقين إما في المستوى نفسه الذي تم الكشف عنه في الولايات المتحدة، كما ظهر في هولندا وألمانيا والصين، وإما أسوأ منه كما ظهر في فرنسا واستراليا وتايلاند (المرجع نفسه) .

وهناك من يتوقع زيادة هذه المعدلات في ضوء ما تسفر عنه نتائج البحوث والتي تؤكد أن العلاقة بين مظاهر الانحراف لدى المراهقين وكل من التفكك الأسري والتعرض لما يسمى "ثقافة العنف والمخدرات" علاقة مضطردة بمعنى أنه كلما زاد التفكك الأسري (من طلاق أو خلاف مستمر بين الوالدين) زادت احتمالات انحراف الأبناء، كذلك كلما زاد مدى التعرض (سواء المباشر من خلال رؤية نماذج إجرامية، وغير المباشر كما تعرض

وسائل الإعلام) لثقافة العنف والمخدرات زاد معدل الانحراف (سويف، ١٩٩٦ : ٧٧ ، ٨٦ – ٨٩، ١٩٩؛ شحاته ، ١٩٩٦ ، ١٩٩٨ :٦٠) .

وهكذا تتوافر مؤشرات تبرهن على تزايد مخيف لانحراف المراهقين من هذه المؤشرات:

١- التزايد الملحوظ لمعدلات الطلاق خلال الأعوام الأخيرة، حتى أن الإحصاءات الأمريكية على سبيل المثال خلال العقدين الأخيرين تشير إلى أن سبعاً من كل عشر حالات زواج تنتهي بالطلاق (جولمان، ٢٠٠٠: ١٨٨)، ويعد الانهيار الأسري الناتج عن الطلاق أو الهجر أو الخلاف المزمن بين الوالدين أحد أهم العوامل المحددة لإدمان الابن (سويف، ١٩٩٦: ٢٠٠) وكذلك لتورطه في جرائم عنف (شحاته، ١٩٩٦) .

٢- تؤكد التجارب أن مشاهدة الأطفال لأفلام العنف عبر التلفزيون – والتي تعرض بشكل متكرر لا يبعث الملل ولمدة سنوات من عمر كل طفل – تيسر اكتسابهم لسيناريو السلوك العدواني وترسخه من خلال ترديد الأطفال له إما أثناء المحاورة مع الأقران، أو في خيالات أحلام اليقظة مما يجعل هذا السيناريو سهل الاستعادة عند تعرض الطفل لموقف محبط، وهكذا توجد علاقة قوية بين كثافة مشاهدة الطفل أفلام عنف وسلوكه العدواني ، كما توجد علاقة قوية جداً بين عدوانية الفرد وهو طفل بتورطه في جرائم عنف وهو مراهق أو راشد (المرجع نفسه)، لذا قال " باترسون" إن الأفعال التي يرتكبها ابن الخامسة من عمره ضد المجتمع تنذر بأنه سيكون جانحاً في شبابه (جولمان، ٢٠٠٠ : ٣٢٨)، وفي ظل تزايد معدلات التعرض ونوعيته ومشاركة المتلقي في الحدث المعروض بواسطة تقنيات الحاسب وشبكة المعلومات الدولية، فإن

المرجح شيوع الانحراف وضروب سلوك مضطربة وإجرامية كالتشهير والعنف والشذوذ الجنسي وأحد التفسيرات المطروحة هو أن شبكة " الإنترنت" أوجدت ما يسمى الواقع المفترض (الخائلي Virtual) الذي خلق سياقا آمناً يسمح للأطفال بممارسة أفعال مثيرة للخجل ، مما يجعلها – نتيجة التكرار – ليست كذلك ، بل مقبولة ومعتادة (Cooper, el,al,2001) الأمر الذي يكرس الجنوح ويجعله شائعاً .

٣- ضعف الوازع الديني أو القيمي بوجه عام وما ينتج عنه من تدني الالتزام الخلقي بين المراهقين والشباب كأحد صور تفشي مظاهر الفساد الاجتماعي، وهناك علاقة قوية بين الالتزام الديني المرتفع والمسئولية الاجتماعية (رعاية الزوج والأبناء والحرص على إصدار السلوك القويم) فأحدهما يؤدي إلى الآخر (هريدي وفرج ،٢٠٠٢) ، وفقاً للحديث الشريف « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته» ، وبالتالي، فإن ضعف الوازع الديني يعني غياب المسئولية الاجتماعية الأمر الذي يترتب عليه تخلي عن رعاية النشء واختلال قواعد ضبط السلوك . [فعلى سبيل المثال تكشف البحوث عن علاقة بين غياب الوعي الديني وتزايد احتمال التورط في تعاطي المخدرات (شحاته، ١٩٩٨: ١٤٣)].

٤- تضاؤل فرص العيش الكريم في ظل ارتفاع معدلات البطالة إما لخصائص المجتمع الديموجرافية (السكانية) حيث تتجه الأعمار في مجتمعاتنا نحو الشرائح العمرية الأصغر، وإما بسبب سياسات إعادة الهيكلة الاقتصادية (ما اصطلح على تسميته: خصخصة) في ظل العولمة الاقتصادية والهيمنة السياسية (حيث مقتضيات الربح تفرض إحالة أعداد متزايدة من العاملين إلى التقاعد خفضاً لتكاليف الإنتاج،

إضافة إلى تزايد الاعتماد على تقنيات الإنتاج الحديثة بما يعنيه الاستغناء عن آلاف العمال)، وهناك مؤشرات تؤكد الارتباط بين تفاقم البطالة والانحراف .

ما سبق يؤكد تضاعف المسئولية الاجتماعية لمؤسسات المجتمع المختلفة، سواء التربوية منها على تعدد هيئاتها أو مؤسسات المجتمع المدني على تنوعها، فمن واجب هذه المؤسسات التدخل – بكافة صوره – لتحقيق ما يلي :

أ- إنقاص معدل الانحراف، بتقليل – قدر الإمكان – عدد الحالات الجديدة التي يمكن أن تنحرف، وهذا ما يسمى بالوقاية الأولية .

ب- تقليل أمد الانحراف بمواجهته قبل أن يستفحل، ويسمى التدخل في هذه الحال بالوقاية الثانوية .

جـ- تقليل خسائر الانحراف، فحينما تفشل محاولات إنقاذ فرد ما (لكونه بلا مأوى بسبب كارثة ألمت به) من الانحراف، أو حينما تفشل محاولات التدخل – المشار إليها سلفاً – الأولية، ووقع المحظور أي انزلق الفرد في براثن الانحراف، يصبح هدف التدخل حصر المخاطر التي يسببها انحرافه، وتجنيب الآخرين (من مخالطيه) التعرض لها*، وهذا ما يسمى"الوقاية من المستوى الثالث" .

وعناصر الوقاية الفعالة هي التي تسعى إلى تعديل عنصر أو أكثر من عناصر الانحراف المتفاعلة معاً والمعتمدة بعضها على بعض وهي :

* فانحراف فرد ما يسبب خللا في علاقاته المتبادلة مع المحيطين به يعد أساسا لمشكلات يعانون منها مثل: القلق والاكتئاب واضطرابات الأكل وانتهاك القانون...الخ، وتكشف بحوث علمية أجريت في الولايات الأمريكية تضاعف عدد الباحثين عن مساعدات الإرشاد النفسي؛ كما توجد زيادة درامتيكية في معدل الشكوى من تسع عشرة مشكلة نفسية ونفس اجتماعية (Benton; et al.,2003)

أ) عامل مخاطرة risk أو ما يسمى في مجال الصحة العامة "عامل مرضى" pathological agent ٠

ب) شخص مهيء (بمعتقداته ومشاعره واستعداداته ٠٠الخ) يبتلي بهذا العامل

ج) بنية (فيزيقية واجتماعية) يعيش فيها الفرد وتزيد فرص تعرضه لهذا العامل مصدر الخطر (شحاته ١٩٩٨: ١٠٨) ٠

وتشكل هذه العناصر نقاط ارتكاز برامج التدخل بمستوياتها الثلاثة المشار إليها سلفاً ،وبوجه خاص منها المستوى الأول أي الوقاية الأولية ، والتي يقتضي إجراؤها الاكتشاف المبكر للحالات المعرضة للانحراف ٠

أهمية الوقاية من الانحراف :

تنطلق أهمية الوقاية من الانحراف من القول الشائع "إن منع وقوع الخطر أفضل كثيراً وأسهل تناولاً ونتائجه مضمونة أكثر مقارنة بمواجهة الخطر إذا وقع" تماماً كما أن الوقاية من المرض أفضل من علاجه ٠ ومن هذا المنطلق، يكون الاكتشاف المبكر للحالات المعرضة للانحراف مهماً، حتى نستطيع الحيلولة بينه وبين هذه الحالات من خلال جهود التدخل المختلفة والذي يجعل هذا الأمر ممكناً كون ضروب السلوك المشكل (المنحرف) لدى المراهقين تتبادل الارتباط فيما بينها ، حتى أنها تكون زملة Syndrome سلوكية متتابعة ، فمعظم مظاهر الانحراف – إن لم يكن كلها – تتزامل معاً كما تكشف نتائج بحوث أجريت في مجتمعات متنوعة ، سواء في بلدان متقدمة أم دول نامية، تتفق جميعها على أن الشخص المنحرف قد يتعاطى المخدرات وفي الوقت نفسه يخالف العرف السائد في مجتمعه، وينتهك القانون مما يعرضه لطائلة العقاب، فالبحوث تكشف عن نمط من الشخصية

يمكن تسميته، الشخص المشكل "أي المهيأ أكثر من غيره للتورط في المشاكل، وصورة هذا الشخص كما ترسم نتائج البحوث ملامحه هي :

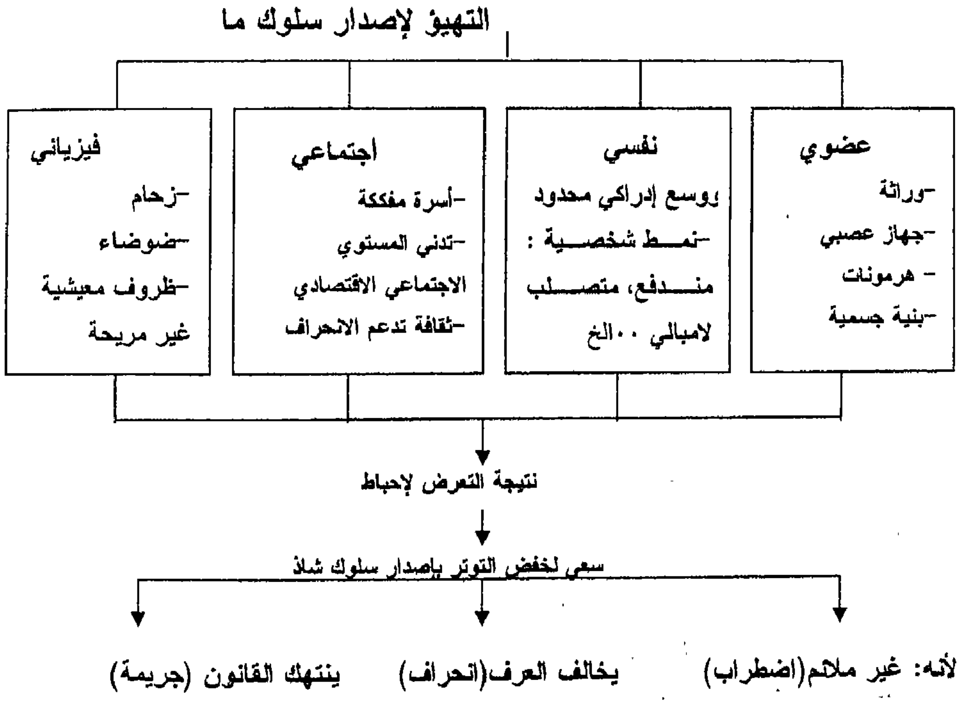
١- الملمح الأول، هو أن لدى هذا الشخص إحساس منخفض بأفضلية الحياة Well-being وقسمات هذا الملمح هي: تزايد شعور الفرد بعدد مما يلي: النفور من الحياة - والاغتراب - والاكتئاب - وبخس الذات قدرها - والتقلب الانفعالي - والأرق - ومظاهر أخرى لاختلال الأداء النفسي أو الاضطراب كتعاطي المخدرات .

٢- الملمح الثاني هو أن شخصية هذا الفرد جامدة التفكير تفتقد المرونة تتسم بالميل للاندفاع والتسرع في الاستنتاج والحكم على الأمور ، والقفز على المقدمات وسوء الفهم وإساءة عزو الأشياء إلى أسبابها وكذلك الاستعداد للجنوح والمغامرة والعدوان نتيجة ضعف القدرة على إرجاء إشباع الحاجات وتضاءل القدرة على تحمل الوحدة مع - في الوقت نفسه - نفور منها، أضف إلى ذلك الميل للتمرد وحب السيطرة وانخفاض مستوى الطموح وانخفاض الدافعية للإنجاز واللامبالاة وضعف الالتزام القيمي .

٣- الملمح الثالث أن هذا الشخص يعيش في بيئة لا تشعره بالارتياح سواء كانت هذه البيئة فيزيائية بما تفرضه خصائصها من ظلف العيش وقسوة الظروف مما يزيد التنافس على الإشاعات الأساسية ، الأمر الذي يخلق سياقاً للصراع والاختلاف، ومن ثم يبرز دور المقدرة على تحمل الخلاف والقدرة على إرجاء الإشباع ، وإما البيئة الاجتماعية كالتفكك الأسري وغياب التزام النماذج الاجتماعية (آباء ، مدرسين، نجوم السينما والرياضة .. الخ) بمسئولياتهم الاجتماعية مما يضعف رقابة هذه النماذج (الأباء منها خاصة) على سلوك النشء، وتدني أيضا - الالتزام الديني في المجتمع مما يجعل الضبط الاجتماعي (ممثلاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ما يعد واجب كل

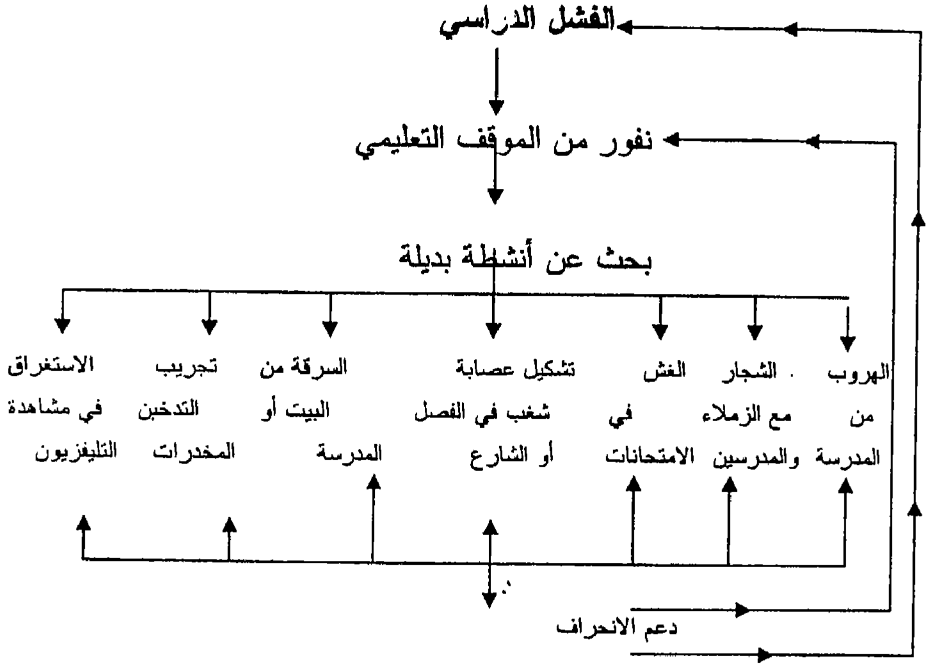
مسلم تجاه إخوانه في المجتمع) غالباً والرقابة الذاتية للسلوك معدومة، فتقل بالتالي قدرة الفرد على التحكم في سلوكه (Cohen & Erwin, 1994; Newcomb& Felix-Dritz, 1992; شحاته ، ١٩٩٦، ١٩٩٨: ٩ ;Guppy & Marsden, 1998)٠

وهذه الملامح تتشابك مع بعضها لإيجاد ما يسمى الاستعداد الكامن Potential للانحراف، فمع كون مصادر الخطر عامة وشائعة في العالم كله، إلا أن درجة التأثر بها تختلف من فرد لآخر، ويرجع هذا التفاوت إلى تنوع السياق الثقافي الذي يعيش فيه الفرد، من هنا ضرورة اختلاف مضمون برامج الوقاية من الانحراف بتباين النسق الحضاري للأفراد الذين يتلقون هذه البرامج(Catalani, ,et al, 1993; Farrell & Danis, 1993) ويمكن تلخيص الآليات التي تورط شخصا ما في سلوك منحرف في الشكل الآتي :



شكل يوضح آليات السلوك الشاذ

ويمكن فهم الكيفية التي تعمل بها الآليات السابقة كما يلي : فلو افترضنا أن تلميذا مستوى ذكاؤه دون المتوسط وبنيته الجسمية جيدة ، وربما قوية ، ومهاراته الادراكية محدودة ، فالأرجح أن هذا التلميذ سيواجه فشلاً دراسياً يدفعه إلى النفور من الموقف التعليمي ، الأمر الذي يجعله يبحث عن أنشطة بديلة للإنجاز الدراسي كترك الدراسة أو إثارة المشاكل والمتاعب في الفصل المدرسي ، يترتب على ذلك المزيد من الفشل الدراسي الذي بدوره يدفع الفرد إلى الاستغراق أكثر في الأنشطة البديلة التي تناسب تكوينه النفسي (الموضح في الشكل السابق) مما يدعم استعداده للتصرف بشكل شاذ (ومن مظاهر الانحراف) كما يوضح الشكل التالي :



نموذج يوضح علاقة الفشل الدراسي بالانحراف

في ضوء ما سبق، فإن تجمعات كطلاب المدارس تعد سياقاً مناسباً لاكتشاف مبكر للحالات المعرضة للانحراف، وعلى المدرسين والأخصائيين النفسيين والاجتماعيين الالتفات إلى مقدمات الانحراف وعلى رأسها الفشل الدراسي وضروب السلوك المخالفة لنظام اليوم الدراسي كالزوغان من حصص دراسية وإهمال الواجبات ونسيان الأدوات وعصيان المدرس والشجار مع الزملاء وإهمال المظهر العام وشبكة الصداقات والعزوف عن المشاركة في أنشطة لا صفية ٠ والتلاميذ الذين يبدون عدة مظاهر مما سبق يمكن التعامل معهم بشكل أعمق؛ وهم معرضون أكثر من غيرهم للانحراف، ويمكن التحقق من ذلك باستقصاء أعمق لشخصياتهم والسياق الاجتماعي الذي نشأوا فيه، فإذا تأكد استعدادهم للانحراف يمكن التدخل معهم من خلال برامج وقائية تتضمن التركيز على العناصر التالية :

١- رفع مستوى طموح هؤلاء التلاميذ؛ أي تنشيط دافعيتهم للإنجاز وذلك لتحاشي الفشل الدراسي مع رعاية مكثفة لتحصيلهم الدراسي(لدى علماء النفس برامج متخصصة في هذا الجانب) ٠

٢- تنمية الالتزام الديني لديهم خاصة الجوانب التي تشجع الرقابة الذاتية على السلوك بما يزيد من قدرتهم على ضبط سلوكهم ، ويعد هذا الجانب مركزي ، إذ يهيئ الالتزام الديني الفرد لضبط علاقاته الاجتماعية من حيث زيادة ميله للاستغراق في علاقات أسرية تحميه من احتمالات التعرض للانحراف، وفي المقابل يدفعه إلى إنقاص علاقاته مع أصدقاء السوء(ويجب التنويه هنا إلى دور الأسرة والمدرسة والمسجد وتكامل أدائهم جميعاً لهذا الدور حتى يحقق الأثر المرجو منه، فتقاعس إحدى هذه المؤسسات يضعف مردود المؤسسات الأخرى) ٠

٣- زيادة تقدير التلاميذ لذواتهم بالتعرف على مكونات مفهوم الذات التي فيها ضعف وتنميتها (ولدى علماء النفس برامج تقوم بهذا).

٤- تشجيعهم على المشاركة في الأنشطة الدراسية صفية ولا صفية.

٥- تأكيد دور الأسرة في مساندة أولادهم والقيام بدورهم الرقابي (خاصة على كيفية اختيار الأصدقاء وتمضية وقت الفراغ) في ظل تفهم خصال الأبناء المزاجية وخصائص مرحلتهم العمرية. هنا يتجاوز البرنامج الوقائي التدخل على مستوى التلاميذ إلى التدخل الأسري.

المراجع

١ – جولمان ،د.(٢٠٠٠) الذكاء العاطفي (ترجمة ليلي الجبالي). الكويت : عالم المعرفة (٢٦٢) .

٢- حمزة ، جمال (٢٠٠٠) أطفال معرضون للتشرد في مصر : رؤية نفسية ، علم النفس ، ٥٣ : ١٤٨ – ١٦١ .

٣- سويف ، مصطفى (١٩٩٦) المخدرات والمجتمع : نظرة تكاملية . الكويت : عالم المعرفة (٢٠٥).

٤- سويف ، مصطفي (١٩٩٤) نحن والمستقبل ، القاهرة : كتاب الهلال (٥٢٣).

٥- شحاته ،عبد المنعم (١٩٩٦) موجة العنف مسئولية الفرد أم المجتمع ، دراسات إعلامية ، ٨٥ : ٤٦ – ٦١ .

٦- ———— (١٩٩٨) سيكولوجية التدخين ، القاهرة : دار غريب .

٧- هريدي ، عادل وفرج ، طريف (٢٠٠٢) مصادر ومستويات السعادة المدركة في ضوء العوامل الخمسة الكبرى للشخصية والتدين وبعض المتغيرات الأخرى . علم النفس،٦١: ٤٦-٧٨ .

8- Benton, S.; Robertson,J.; Tseng, W.; Newton, F. & Benton, (2003) Changes in counseling center prolems across 13 years. Professional Psychology: Research & Paractice,34 .

9- Catalano, R.,et al.(1993) Using research to guide culturally appropriate drug abuse prevention. J. Cons. Psychol., 61: 804-811.

10- Cohen, S. & Erwin, E.(1994) Characteristics of children with prental drug exposure being served in preschool special education programs in NewYork city. Topics in Early Childhood Special Education, 14 (2): 232-253.

11- Cooper, A.; Scherer, C.& Mathy, R. (2001) Overcoming methodological concerns in the investigation of online sexual activities. Cyberpsychology & Behavior, 4: 437-447.

12- Farrell, A. & Danis, ,S.(1993) Drug use and other problem behaviors. J. Con. Clin. Psychol., 61: 327-334.

13- Newcomb, M.& Felix - oritz, M.(1992) Multiple protective and risk factor drug use and abuse. J. Pers. Soc. Psychol., 63:280-296.

14- Guppy, A. &, Marsden, J. (1998) Alcohol and drug misuse and the organization (pp. 231-355) In: J. Winnubst &. C. Cooper (eds.) Handlook of work and health psychology. New York: Wiley.

-٣-

كيف تتخفف من أحزانك ؟ *

"والقلب الذي لا يحزن لا فضل له في الصبر، إنما الفضل في الحزن والغلبة عليه"

عباس محمود العقاد

مقدمة :

قدّر لكل فرد أن يواجه موت شخص حميم له (أب، أم، زوجة، ابن، صديق) في فترة ما من حياته، قد تكون مرت، وقد تكون منتظرة، وهذه المواجهة مؤلمة، وتعد أكثر مآسي الحياة وأشقها على النفس، وقد تؤدي إلى مخاطر كثيرة، كإصابة المكروب (من فقد عزيز) بأعراض مرضية (بدنية أو نفسية) مختلفة، وقد تصل خطورتها إلى وفاته أو محاولته الانتحار . هذا بالإضافة إلى اللاتوافق النفسي الاجتماعي الذي يعانيه المكروب فترة طويلة بعد وفاة من يحب، قد تصل إلى عدة سنوات فوفاة شخص عزيز حدث : -

أ - شديد الشيوع، فلا ينجو من مواجهته أحد .

ب - مفاجئ يأتي بغتة، فلا يتهيأ - انفعاليا - لاستقباله أحد .

جـ - يترتب عليه مدى واسع من الآثار الجسمية والنفسية والاجتماعية، وتمتد معاناة المكروب من هذه الآثار لشهور، وربما لسنوات [١].

---

* نشر في : مجلة "المسلم المعاصر"، ١٩٩٩، ٩٢ : ١٥١ - ١٥٩ .

لكل ما سبق فإن تناول الحزن بالدراسة أمر شديد الأهمية، فمن خلال هذه الدراسة يتم نشر ثقافة التعامل مع الحزن بين أفراد الجمهور العام، وكذلك يتم تبصيرهم بالقواعد المنظمة لعملية التخفف من الحزن بشكل يمكنهم من : -

أ - إتباع السبل الملائمة للتغلب على أحزانهم الخاصة .

ب - معرفة الأساليب الأكثر فعالية لمساعدة الآخرين في التخفف من أحزانهم .

جـ- تجنب ما ينجم عن المحاولات الذاتية التلقائية أو تلك التي يقوم بها الآخرون من آثار سلبية قد تعوق عملية التخفف .

ونظرا لأهمية هذا النوع من الدراسات، ونظرا لما تحققه من مزايا، يتزايد اهتمام علماء النفس الغربيين بها[٢] . في الوقت الذي لم يلتفت- في حدود المعلومات المتاحة لكاتب هذه السطور- علماء النفس المصريون والعرب إلى هذا الموضوع، على الرغم من تناول الفلاسفة المسلمين المتميز له، والذي لم يقتصر على مظاهره وأسبابه كما فعل ابن سينا (ت: ٤٢٨هـ)[٣]، وأثاره كحصر أبي الفرج الجوزي (ت : ٥٩٧هـ) للآثار الانفعالية المترتبة على موت محبوب[٤]، وإنما اهتموا بكيفية التغلب عليه، حيث وضح أبو يوسف الكندي (ت : ٢٥٦ هـ) طرق التغلب على الحزن الناتج عن فقد محبوب وفوت مطلوب [٥]، وأشار أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ) إلى أن تسكين الجزع - فرط الحزن وشدته - يكون بحيلتين : خارجية كوعظ الواعظين ، وداخلية تتمثل في ترويض النفس على تقبل الأمر[٦]، كما وضع ابن ناصر الدين الدمشقي (ت: ٧٧٧هـ) كتابا لهذا الغرض ضمنه مجموعة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأخبار الصحابة

والتابعين والإرشادات التي تعين على تحمل الحزن على وفاة من نحب [٧]، ومع ذلك لم يتناول المحدثون من علماء النفس العرب هذا الموضوع والتساؤلات التي تطرح على ذهن القارئ وتستحثه للبحث عن إجابة لها هي : -

١ - ما هي عواقب المبالغة في الحزن (الأسى) ؟

٢ - ما هي العوامل التي تزيد شدة الحزن ؟

٣ - متي وكيف يتم التخفف من الحزن ؟

أولا : عواقب الأسى

١ - الاكتئاب : تؤكد البحوث[٨] أن وفاة شخص عزيز تولد شعورا بالاكتئاب، إذ يعاني ثلث الأرملات من الاكتئاب الشديد لمدة تصل إلى شهرين بعد وفاة أزواجهن، وأن خمسهن يعانين منه لمدة عام، وتشير البحوث إلى أن وفاة ابن تحدث أسي أكثر شدة - وبالتالي عواقب أكثر ألماً - بالمقارنة بوفاة زوج أو أب .

٢ - ترتبط وفاة شخص عزيز بزيادة معدل الشكوى من آلام بدنية (مثل: آلام المعدة والظهر وفقد الشهية وعسر الهضم وعدم انتظام ضربات القلب والأرق) والنفسية (اختلال الإحساس بالواقع والخداع الحسي، والإحساس بالفشل واللاتوافق النفسي والاجتماعي ومحاولة الانتحار)[٩] .

وكل هذا يؤدي إلى ضعف البناء الاجتماعي ويحدث مزيدا من المشكلات التوافقية سواء على المستوى الشخصي أو الاجتماعي، ومع ذلك فإن لانفعال الأسى مزاياه إذ يمكن الفرد من إصدار سلوك لا يجرؤ عليه في الظروف العادية مثل الإفصاح عن مشاعره بشكل علني أو الغياب عن العمل

(الدراسة) أو تلقي العون من الآخرين، وأن كانت لهذا الانفعال حدوده أو قيوده، إذ يجب أن تناسب شدته الموقف، فلا تكون ضعيفة جدا أو مبالغ فيها، فعلى سبيل المثال يؤدي عدم حزن الزوجة الحزن المناسب (كما يتوقعه الآخرون) لوفاه زوجها إلى التشكيك في وفائها له، كما تؤدي مبالغتها في الحزن، أو إطالة مدته أكثر مما يلزم إلى اعتبارها "حالة هيسترية"، وبالإضافة إلى مزايا الأسى وحدوده، فإن له التزامات، تختلف من مجتمع لأخر، ومن عمر – للمكروب – لأخر، ومن فجيعة، وفاة زوج أم ابن أم جار ... إلخ لأخرى، فلكل من الحالات السابقة ضروب سلوكية معينة تعارف عليها المجتمع.

ثانيا: العوامل التي تسهم في تحديد الأسى، ارتفاعا وانخفاضا :

تعد شدة الحزن محصلة التفاعل بين فئات ثلاث من العوامل:- تتصل الفئة الأولى منها بالمكروب (الذي توفى له عزيز) وتتعلق الثانية بالسياق الاجتماعي الذي يعيش فيه، أما الفئة الثالثة فتخص ظروف الوفاة أو الفجيعة وكيفية العلم بها، وفيما يلي عرض موجز للعوامل التي تؤكد البحوث أنها الأكثر تأثيرا في تحديد حجم الأسى : –

أ – عوامل المكروب

١ – العمر :

الأكبر سنا عند الوفاة أكثر تدهورا صحيا. وهذا ليس صادقا في كل الأحوال، ففي إحدى الدراسات التي قارنت بين أرامل شباب ومن متوسطي العمر ومن كبار السن، تبين أن الأرامل الشباب أكثر تأثرا، خصوصا إذا كانت وفاة القرين مفاجئة وبدون مقدمات وتظهر دراسة أخرى أن العمر

ليس المؤثر وحده وأن هناك عوامل تحدد حجم تأثيره منها: المدة المنقضية بعد الوفاة فالأصغر سنا أكثر تأثرا على المدى القريب، بينما الأكبر سنا أكثر تأثرا على المدى البعيد، ربما لأن صغار السن يتلقون العون أكثر، أو تجدد أملهم في المستقبل، كما أن الأصغر سنا يعانون أكثر من مشكلات نفسية، بينما الأكبر سنا يعانون أكثر من مشكلات بدنية ومن المحتمل أنهم يستبدلون الأسى، كاستجابة انفعالية نفسية لا يتوقع المجتمع استمرار ظهورها من الكبار، بأعراض بدنية يمكن قبولها ٠

ويبدو أن كبار السن بحاجة للتشجيع من خلال علاقات تستوعبهم في المجتمع ويبدو أيضا أن الفروق بين كبار السن وصغاره من المكروبين ليست في شدة الأسى وحده ولكن في أنماط استجابية أخرى ٠

٢ – النوع :

قليلة هي الدراسات التي تناولت الفروق بين النوعين في تحمل الفجيعة، ويعتقد بعض الباحثين أن الأرامل النساء أكثر معاناة صحيا بالمقارنة بالذكور، بينما يعتبر آخرون الذكور الأرامل يواجهون مشكلات أكثر وأكبر، في حين يذهب فريق ثالث إلى عدم وجود فروق بينهما، وقد تمت هذه المقارنات على مقابيس لمعدلات وفيات الزوجات اللاحقة لوفاة الزوج والأعراض البدنية والاكتئاب والاضطرابات الانفعالية والجوانب الإيجابية مثل إعادة الزواج ٠

وقد تبين أن الرجال أقل معاناة من النساء، وأن كان النوعان يذكران أعراضا مختلفة، فالرجال أقل معاناة للاضطرابات الانفعالية وخصوصا الاكتئاب والأعراض العصابية وتكشف الدراسات التتبعية أنه بعد عامين إلى أربعة أعوام من الوفاة لا تظهر الأرامل النساء فروقا في درجة

الاكتئاب بالمقارنة بالمتزوجات من نفس العمر بينما أظهر الرجال الأرامل درجة أعلي من الاكتئاب بالمقارنة بالمتزوجين من نفس العمر. والرجال الأرامل أكثر معاناة لأنهم أكثر اعتمادا على زوجاتهم في العلاقات الاجتماعية، وأقل خبرة في تكوين علاقات جديدة، وأقل مهارة في مواقف التفاعل الاجتماعي، وفي المقابل، فإن الأرملات أكثر قدرة على طلب عون الآخرين مما يخفف عليهن وقع الفجيعة فتقل فترة معاناتهن منها .

وقد لوحظ – أيضا – أن الأم تظهر حزنا أشد على وفاة ابن مقارنة بالأب، وقد يرجع ذلك لارتباط الأم بالابن أكثر ربما لانشغال الأب في العمل معظم يومه، وربما لبدء علاقة الأم بطفلها مبكرا جدا، وشعورها أنها بفقده تفقد جزء من نفسها .

٣ – المكانة الاقتصادية الاجتماعية :

تؤدي وفاة الزوج إلى ضعف دخل الأسرة وانخفاض مكانتها مما يزيد من الآلام المصاحبة للوفاة، حتى أن البعض يقول أن الآثار السلبية التي نعزوها إلى الترمل ليست نتيجة الترمل بقدر ما هي نتاج حالة الأرملة الاقتصادية والتي تزيد من قلقها ومشكلاتها الصحية، إلا أن بعض الباحثين يرى أن الدخل المنخفض لا يسهم مباشرة في عواقب الأسى ، لكنه عامل مهيء لها .

٤ – سمات شخصية المكروب : –

يتحدث الباحثون عن نمط من الأشخاص أكثر تهينا للفجيعة وللأسى الناتج عنها ويتسم أفراده بأنهم خائفون، متوترون، وجسون، غير مستقرين انفعاليا .

٥- الحالة الصحية قبل الفجيعة : -

تظهر الآثار الحادة لوفاة محبوب لدى أشخاص يعانون مسبقا من أعراض مرضية، فعلى سبيل المثال تبين إحدى الدراسات أن الذين حاولوا الانتحار بعد وفاة عزيز عليهم، كانوا يعالجون قبل الوفاة من اضطرابات نفسية ٠

ب – السياق الاجتماعي

١ – الأزمات المتزامنة : -

تكشف البحوث أن تعدد الوفيات بالنسبة للمكروب الواحد يزيد شدة أساه كذلك تزامن الوفاة مع أزمة مالية أو مهنية أو اجتماعية ٠

٢ – البناء الاجتماعي : -

إذ أدى أضمحلال الأسرة الممتدة إلى زيادة شدة الأسى، حيث تتزايد فرص أن تعيش الأرملة أو الأرمل – مثلا – وحيدة، أما أن الأبناء قد تزوجوا واستقلوا سكنا ومعيشة أو لعدم الإنجاب٠ ويؤدي الشعور بالوحدة إلى ألام بدنية ونفسية مصاحبة للحزن على وفاة عزيز ٠

كما يؤدي خلل البناء الاجتماعي إلى صعوبات الاتصال بالأقارب والأصدقاء وبالتالي لا يتمكنون من مساندة المكروب المساندة الملائمة إما لتأخر توقيت تقديمها (١٠)، أو تكون دون توقع المكروب ، ويزيد تجاهل الآخرين له وعدم مساندتهم من أساه ومن خطورة عواقبه ٠

٣ – التصورات السائدة حول الموت : -

تختلف مظاهر الأسى ودلالتها من مجتمع لآخر لاختلاف الإطار الثقافي الذي يشمل معايير دينية وأعراف اجتماعية وعادات متوارثة، وجميعها تحدد الممارسات التي يقوم بها الفرد تعبيرا عن أساه لوفاه عزيز

عليه، وتسمى هذه الممارسات "الحداد" وتكشف البحوث [١١]أن المصريين يظهرون حزنا أقل بالمقارنة بالغربيين وذلك لإيمانهم بالقدر. وقد أشار الدمشقي [١٢] إلى أهمية الإيمان بالقدر والصبر وعدم المبالغة في إظهار الحزن عملا بالكتاب والسنة، إذ يوجد تفاعل بين ممارسة طقوس الحداد ومشاعر الأسى؛ بمعني أن عدم الالتزام بهذه الطقوس يقلل الشعور بالحزن.

جـ - ظروف الوفاة

١ - الموت المفاجئ:

وتؤدي الوفاة المفاجئة -مقارنة بالمتوقعة - إلى اضطراب طويل الأمد يؤثر على التوافق النفسي والاجتماعي للمكروب وتجعله أقل تطلعا للمستقبل وأقل استمتاعا بحاضرة، وبالتالي يختل دخل الأسرة نتيجة سوء التوافق اجتماعيا ومهنيا، ويصل الأمر إلى ارتفاع معدلات الطلاق في حالات فقد الأبناء. وقد أمكن تمييز زملة أعراض يطلق عليها "زملة الفقد غير المتوقع" ويشمل: الانسحاب الاجتماعي وعدم الاعتراف بحدوث الوفاة والارتباك النفسي والمعيشي. فالمكروبون بوفاة أحد أحبائهم فجأة أكثر معاناة للأمراض الجسمية والنفسية بالمقارنة بمن فجعوا بوفاة متوقعة، وأن كانت هناك أدلة على أن هذه الآثار تكون في الأمد القريب فقط.

٢ - كيفية العلم بالوفاة:

إن نقل نبأ الوفاة إلى المكروب بشكل مباشر يزيد أساه بالمقارنة بنقل الخبر مجزء، ربما لأن نقل الخبر على مراحل يساعد المكروب على التهيؤ للموقف.

عرضنا لبعض العوامل التي تسهم في زيادة شدة الأسى وخطورة عواقبه، ونحاول الآن معرفة الأساليب التي تعين على التخفف منه.

ثالثا : متى وكيف يتم التخفف من الأسى ؟

أ - تستغرق عملية التخفف ما بين عام إلى عامين، وهذا التخفف يتم تلقائيا، ومن الممكن تقليل هذا الوقت والإسراع بإيقاع التخفف من خلال الكشف عن كل من: العناصر الفعالة التي تيسره فيتم الحفاظ عليها- وتلك التي تعوقه والعمل على استبعادها ٠

ب - تكشف البحوث [١٣]عن عدد من الأساليب المفترض فعاليتها في التخفف من الأسى، ومنها : -

١ - الإفصاح عن المشاعر أي أن يعبر المكروب عن انفعالاته - الإيجابية منها والسلبية - نحو الفقيد حتى لا يصبح الأسى مزمنا، ويصطدم هذا الأجراء مع القيود الاجتماعية في بعض المجتمعات التي لا تحبذ إظهار المشاعر نحو المتوفى ٠

٢ - المساندة الاجتماعية، ويقصد بها أي عون أو مساعدة يقدمها الآخرون للمكروب وتشعره بالراحة، سواء كانت لفظية كالتعليقات على شكوى المكروبين،أو غير لفظية كنبرة هذه التعليقات وتعبيرات الوجه والإيماءات وما تعكسه من تجاوب انفعالي وتعاطف مع المكروب، أو كانت المساعدة أدائية كزيارته (مدة الزيارة ومعدلها) والمساهمة في حل المشكلات الناتجة عن الفجيعة وتؤثر فعالية المساندة على طبيعتها ومقدارها وتوقيت تقديمها وهوية مقدمها وكذلك على إدراك المكروب لها ومدى تناسبها مع توقعاته وملاءمتها لمرحلة الأسى التي يجتازها، ففي المرحلة الأولى حيث الأسى شديد تكون المساندة الوجدانية وخصوصا من أفراد الأسرة

(الزوج .أو الوالدين) مهمة جدا، وفي المرحلة اللاحقة حيث تنخفض شدة الأسى ويتهيأ المكروب للقيام بمسئولياته الاجتماعية والمهنية فإن مساندة الأصدقاء والزملاء تصبح أكثر أهمية · ومع أن غياب المساندة أو كونها دون توقع المكروب يزيد من شدة الأسى ومن خطورة عواقبه إلا أنه قد يثير الحافز للاعتماد على الذات أيضا ·

٣ – التخلي عن المظاهر الحدادية، ويعد أكثر أساليب التخفف فعالية، فالالتزام بهذه المظاهر يزيد الحزن والتخلي عنها يقلله، حيث توجد علاقة بين طقوس الحداد ومشاعر الحزن كما سبقت الإشارة، وتلعب الضغوط الاجتماعية – من الأهل – دورا بارزا في مساعدة المكروب على التخلي عن الطقوس الحدادية ·

٤ – الاقتداء من خلال مقارنة المكروب أحزانه بأحزان الآخرين والاستفادة بخبراتهم في التخفف وقد أشار الكندي إلى أهمية هذا الأسلوب ·

٥ – إدراك الجوانب الإيجابية في الموقف، وكما أشار القرآن الكريم "وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم" (البقرة: ٢١٦) ويسهم الآخرون – بنصائحهم – في إعادة إدراك المكروب للموقف، وأن الخسارة مهما كانت ضخمة فإنها تنطوي على مكسب ما، وأن إدراك ذلك ييسر عملية التخفف ويعجل بها، ولعل أكبر المكاسب هو زيادة القدرة على تحمل المصائب اللاحق، إذ تعد أهون من وفاه عزيز

وكما قال الشاعر :

لقد جر نفعا فقدنا لك أننا   أمنا على كل الرزايا من الجزع

٦ – الممارسات الدينية، فقد تبين أن لقراءة القرآن الكريم دور كبير في تقليل الحزن الناتج عن وفاة عزيز، ومرجع ذلك تضمن القرآن آيات تحث على الإيمان بالقدر والرضا بالقضاء والصبر عند المصاب والوعد بالإثابة (الجنة) لمن صبر والوعيد بالعقاب (النار) لمن لا يرضي بقضاء الله، لهذا الإيمان دوره الكبير ليس في هذه الحالة فقط – الحزن – وإنما يعد وسيلة للاحتفاظ بالصحة النفسية وتحمل المشاق، وأحد مكاسب إدراك الجانب الإيجابي لوفاة عزيز– الأسلوب السابق – أن تشعرنا بالقرب من الله٠

٧ – الاستبدال كأن تستبدل الأرملة على سبيل المثال دورها كامرأه عاملة بدورها كأرملة، ودورها كأم بدورها كزوجه، أي تعوض فقدها لمحور نشاطها (الزوج) بتكثيف أنشطتها في محاور بديلة كالعمل والاهتمام بالأولاد والتقرب إلى الله والزواج اللاحق٠ كالكسيح الذي يعتمد على يديه بديلا لرجليه أو كمن يعتمد على رجليه بديلا ليديه ٠٠ وهكذا ٠

٨ – تقليص الروابط الوجدانية مع الفقيد تدريجيا ، ويتم ذلك بواسطة تجنب التحدث عنه مع الآخرين وتجنب وضع ما يذكر المكروب به في متناول اليد كمتعلقاته الشخصية أو صورة، إذ تعد هذه المتعلقات مهيجات للأسى٠

عرضنا لأساليب التخفف من الحزن، وتعتمد غالبا على مبادرة شخصية من المكروب ، فالتسليم بالواقع – الفقد – ومواجهة مقتضياته وإدراك الجوانب الإيجابية فيه والنفور من الطقوس الحدادية والتخلي عنها وتكريس الجهد في أنشطة بديلة (العمل – الاهتمام بالأولاد – التدين ٠٠إلخ)

وتقليص الروابط الوجدانية بالفقيد، كل هذا يعتمد على مبادرة المكروب ورغبته في التعجيل بعملية التخفف من الحزن ويكاد يقتصر دور الآخرين على تشجيع المكروب إذا بادر باتخاذ خطوه ما، خلاصة القول أن التخفف من الخزن عملية ذاتية في المقام الأول .

" الهوامش "

[1] أنظر مقال : J . Pennbaker وآخرين (١٩٩٠) " تعجيل عمليات التغلب على الأسى" ·المنشور "بمجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي" (تصدرها: جمعية علم النفس الأمريكية) مجلد، ٩٨: ٥٢٨ – ٥٣١ ·

[2] حتى أن المجلات العلمية المتخصصة (مثل: Social Issues) تخصص أعدادا كاملة لمثل هذه الدراسات، وقد أصبح لها الآن دورياتها الخاصة مثل "دراسات الموت" Death Studies·

[3] يذكر ابن أبي أصيبعه (ت : ٦٦٨هـ) في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" بيروت: دار مكتبة الحياة (د · ت) – أن لابن سيناء رسالة عنوانها " ما الحزن وما أسبابه " ·

[4] أنظر : أبا الفرج الجوزى (١٩٨١) " روح الأرواح " القاهرة : المطبعة العلمية (الفصل السادس)·

[5] تتفق بعض هذه الطرق – التي وضعها الكندي – مع مبادئ العلاج العقلاني rational ويتفق بعضها الآخر مع أسلوب "التسكين المنظم "Systematic desensitization والقارئ لها يلاحظ أن الكندي كمعالج نفسي قد تفوق على المعالجين المعاصرين في نواحي عدة (أنظر: رسالة الكندي "الحيلة لدفع الأحزان منشورة ضمن" رسائل فلسفية " تحقيق : د/ عبد الرحمن بدوي ·بيروت: دار الأندلس)·

[6] أنظر: أبا زيد البلخي (١٩٨٤) "مصالح الأبدان والأنفس"· معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ص ٣١٤ – ٣٢٣ ·

[7] أنظر: كتاب ابن ناصر الدين الدمشقي (ب·د) " برد الأكباد عند فقد الأولاد " القاهرة مطبعة المدني ·

[8] أنظر مقال S.Zisook & S . Shuchter (١٩٩١) "الاكتئاب خلال العام الأول بعد وفاة الزوج" المجلة الأمريكية للطب النفسي، مجلد ١٤٨ : ١٣٤٦ – ١٣٥٢ ·

[9] أنظر مقال M. Stroebe وآخرين (١٩٩٢) " قلوب محطمة أو روابط قطعت "مجلة الأخصائي النفسي الأمريكي" : مجلد ٤٧ : ١٢٠٥ – ١٢١٢ ·

[10] أنظر : عبد المنعم شحاته وطريف شوقي (١٩٩٣) " التغلب على الأسى الناتج عن وفاة ابن " مجلة (علم النفس) ٢٨ – ١٠٠ – ١١٠ ·

[11] وكما يقول المثل المصري " يا معزي بعد سنة يا مجدد الأحزان " ·

[12] الدمشقي ، ص ١٤ ، ص ٣١ (أنظر : ٧)

[13] أنظر طريف شوقي وعبد المنعم شحاته (١٩٩٤) التخفف من الأسى الناتج عن وفاة الأزواج : مجلة علم النفس " ، ٣١ : ١٢٨ – ١٥٠

الوقاية من بدء التدخين

"تؤدي هذه العادة إلى الإدمان، حتى يصبح كل أمل المدخن هو أن يتمكن من الامتناع عن التدخين بعد أن شعر بآثاره السيئة" جيمس الأول سنة ١٦٠٤"

مقدمة :

يحتل التدخين رأس مصادر الخطورة على الصحة العامة، إذ يعد المسئول عن قائمة طويلة من الأمراض التي تؤدي إلى الوفاة، فإحصاءات مركز السيطرة على الأمراض CDC الأمريكي يشير إلى وفاة ما يقرب من نصف مليون شخص (٥٩,٧% منهم ذكور) خلال الأعوام الخمسة (١٩٩٥ – ١٩٩٩) نتيجة إصابتهم بأمراض تترتب على التدخين، تصدر قائمة هذه الأمراض سرطان الرئة؛ المسئول وحده عن ٢٨,٢% من هذه الوفيات (www.cdc.gov)، والذي يشكل العامل الأول لوفاة النساء الأمريكيات في النصف الثاني من القرن العشرين، متجاوزاً سرطان الثدي، فبينما كان سرطان الرئة وراء ٣% من وفياتهن سنة ١٩٥٠، إذ به مسئول عن ٢٥% من هذه الوفيات سنة ٢٠٠٠، وتقدر هذه الزيادة بمعدل ٦٠٠% ويؤدي سرطان الرئة إلى وفاة ثلاثة أضعاف العدد الذي يسببه سرطان الثدي بين الإناث *(SGR, 2001) .

---

* في دراسة مسحية لمركز دراسات إدمان المواد والمخدرات بجامعة كولومبيا، شارك فيها ١٢٢٠ فتاة تتراوح أعمارهن بين ٨ و ٢٢ سنة ، وتظهر الدراسة أن الإناث أكثر عرضة للانزلاق في التدخين أو تعاطي المخدرات لأنهن مقارنة بالأولاد :–

أ– يخبرن البلوغ مبكراً .

ب– أكثر عرضة للإصابة بالاكتئاب واضطرابات الأكل.

ج– أكثر عرضة لسوء المعاملة البدنية والجنسية.

وهذا يزيد احتمالات اقدامهن على التدخين أو التعاطي مقارنة بالأولاد ، أضف إلى ذلك كون برامج الوقاية من بدء التدخين (أو التعاطي) لا تضع نوع متلقيها في الحسبان ، بل تهمل غالباً حاجات الإناث اللاتي يدفعن ثمنا غالباً لهذا الإهمال (www.casacolumbia.org)

ولا يقتصر ضرر التدخين على آثاره الصحية الخطيرة،إنما يسبب خسائر اقتصادية كبيرة سواء كانت ناتجة عن الرعاية الطبية للأمراض المترتبة على التدخين، وكانت بسبب نقص إنتاجية المدخنين، وتقدَّر سبعة مليارات من الدولارات (www.cdc.gov) ٠

وتشير هذه المؤشرات إلى تزايد هذه المخاطر حيث معدل التدخين مازال مرتفعاً وفقاً لتحليل قام به مركز السيطرة على الأمراض لبيانات سلوك المخاطرة لدى الشباب (YRBS) الذي يجرى بالولايات المتحدة خلال العقد الماضي كل عامين، ويكشف أن معدلات التدخين في تزايد ملحوظ، فنسبته بين الشباب سنة ١٩٩٤ كانت ٢٧,٥%، وفي سنة ١٩٩٣ ٣٠,٥%، وفي سنة ١٩٩٥ ٣٤,٨% وفي سنة ١٩٩٧ ٣٦,٤% وفي سنة ١٩٩٩ كانت ٣٤,٨% وفي سنة ٢٠٠١ كانت نسبة المدخنين بين الشباب ٢٨,٥% (٢٧,٧% بين الإناث و٢٩,٢% بين الذكور) (CDC,2003) ٠

ويعد ما سبق أساساً منطقياً قوياً لدفع جهود مكافحة التدخين والتحكم فيه، هذه الجهود التي بدئت في الولايات المتحدة – وباقي أنحاء العالم تباعاً – قبل أكثر من ثلاثة عقود، وكانت بدايتها تتركز في إعداد علماء النفس – وغيرهم – وتطوير أساليب أو برامج تساعد المدخنين على الامتناع عن التدخين، وتظهر المراجعات لهذه البرامج أنه :

١- يرغب أغلب المدخنين في الامتناع عن التدخين (تقدَّر إحدى المراجعات – Sabol, et al,1999 –بـ ٨٠%)، ومعظمهم حاول ذلك بنفسه أو بمساعدة من هذه البرامج ٠

٢- تحدث هذه البرامج التغيير في سلوك التدخين على مراحل تشمل: ترجمة الرغبة في الامتناع أي توقف فعلي عن التدخين – ترسيخ

هذا التوقف (الامتناع لمدة شهر)- المحافظة على استمرار الامتناع (Blanchard, 1994) ٠

٣-فعالية هذه البرامج منخفضة، إذ معدل معاودة التدخين بعد امتناع ناتج عن تلقيها يصل إلى ٨٠% حتى في ظل استخدام برامج جيدة التخطيط أو حتى في حال مزاوجتها مع أما بدائل بيوكيميائية للنيكوتين وإما النيكوتين الممضوع gum وإما تقنية إعطاء النيوكتين عن طريق الجلد Shfman, 1993 Transdermal)، مما يمثل فشلاً لهذه البرامج ٠

ويرى الباحثون أن أحد أسباب هذا الفشل هو التأكيد المتزايد لدور الوراثة في سلوك التدخين- وما يماثله من ضروب الاعتماد المختلفة الضارة بالصحة – فالبحوث تبرز مؤشرين لهذا الدور :

أ- يمثل أولهما أدلة تثبت أن العامل الوراثي مسئول عن تفسير ما بين ٥٠% و٧٩% من تباين سلوك التدخين، وقد استمدت هذه التقديرات من دراسات أجريت بمشاركة توائم متماثلة؛ أجرى لبعضها – وتشمل ألف زوج من هذه التوائم – تحليل التحليلات (Heath & Hadden, 1995; lerman et al, 1999) metaanalysis

ب- ويشكل المؤشر الثاني ما كشفت عنه بحوث أجريت مؤخراً عن علاقة بين تغييرات في تركيز الدوباميين dopamine (بسبب صبغية ناقلة تسمى SLC6A3-9) ونقص الرغبة في التدخين، وتشير البحوث إلى مصدرين لهذه العلاقة:

١) تفاعل هذه الصبغية مع صبغية DRD2-A2 إذ يؤكد تحليل الانحدار لبيانات من مدخنين (عددهم ٢٨٩ فرداً) وغير مدخنين (٢٣٣) وجود هذا التفاعل وأنه يزيد احتمال كون الفرد غير مدخن، وإذا حاول التدخين فإن محاولته تكون بعد سن ١٦ سنة (Lerman,et al, 1999) ٠

٢) أن التغييرات في الدوبامين (بسبب صبغية SLC6A3-9)يرتبط بانخفاض الميل إلى البحث عن الجديد، هذا الميل الذي يرتبط ارتفاعه ارتباطاً شديداً بالرغبة في التدخين نتيجة إدراك أن السجائر تقدم هذا الجديد (Sabol, et al,1999)، لذا ينظر المدخنون إلى النيكوتين كوسيلة للتحكم في حالتهم المزاجية والاحتفاظ بشعور عادي، إنه وسيلتهم للتخلص من الشعور السيئ الذي ينتابهم بين تدخين سيجارة وأخرى (Parrott, 1999) ٠

ويرى باحثون آخرون أن معاودة التدخين بعد امتناع عنه ترجع في المقام الأول إلى عوامل السياق النفسي الاجتماعي المحيط بالمدخن، فنادراً ما يعاود الممتنع التدخين أثناء العمل أو وهو بمفرده وإنما في ظل وجود آخرين الذين يقدمون السيجارة غالباً ويمارسون ضغوطاً لتدخينها (عبد المنعم شحاته، ١٩٩٨: ٨٨)٠

وآيا كان سبب الانتكاسة أو معاودة التدخين بعد امتناع عنه لفترة، فإنه مظهر لفشل برامج مساعدة المدخنين هذه، وأدى هذا الفشل إلى الاهتمام بالوقاية من بدء التدخين، لأن منع وقوع الخطر أفضل كثيراً من محاولة إنقاصه إذا وقع، لذا فإن وقاية الصغار من بدء التدخين أكثر فعالية من مساعدة الكبار على الامتناع عنه إذا دخنوا، ويتم الاهتمام بالوقاية في إطار علم نفس الصحة، حيث تعد أهم مجالاته، وتمت استعارة المفهوم من ميدان الصحة العامة في سبعينيات القرن العشرين، فقبل ذلك أهمل علم النفس هذا المجال على أساس أن العلاج النفسي الفردي هو الطريقة الوحيدة لمساعدة الأشخاص للتغلب على مشكلاتهم المختلفة، إلا أن نظريات الصحة العامة المعاصرة ترى عكس ذلك٠ فإذا كان العلاج النفسي الفردي يستهدف مساعدة مريض بمفرده، فإن برامج الوقاية تستهدف مجموعة من الأفراد،

كما أن العلاج النفسي الفردي يتعامل مع العامل المرضى Pathological Agent فقط، بينما ترى برامج الوقاية أن المرض لا يرجع إلى هذا العامل وحده، وإنما يرجع للتفاعل بينه وبين كل من الشخص (بمعتقداته ومشاعره...إلخ) المبتلى به، والبيئة (الفيزيقية والاجتماعية) التي يعيش فيها هذا الشخص، وتتم الوقاية الفعالة من خلال تعديل كل واحد من هذه العناصر الثلاثة(Leventhal, et al., 1985).

وتشير الوقاية إلى توظيف المعرفة العلمية- سواء كانت نظرية أو عملية – في تخطيط وتنفيذ البرامج التي تهدف إلى كل من:

١- إنقاص معدل حدوث المرض، بإنقاص عدد الحالات الجديدة التي يمكن أن تصاب به، وتعد برامج الوقاية التي تسعى لمنع الفرد من بدء التدخين بالحيلولة بينه وبين تدخين أية سيجارة من هذا النوع الذي يسمى "الوقاية الأولية".

٢- تقليل أمد المرض بمواجهته في مراحله الأولى، قبل أن ينتشر ويحدث أضرارا بالغة، وتسمى البرامج التي تسعى لتحقيق ذلك "برامج الوقاية الثانوية"، وعلى هذا الأساس فإن البرامج التي هدفها مساعدة الذين جربوا تدخين السجائر على ألا يكرروا محاولتهم، تندرج تحت هذا النوع من الوقاية.

٣- تقليل الأضرار التي يحدثها المرض عندما لا تنجح برامج الوقاية في مواجهته أثناء مراحله المبكرة، فتعمل على تقليل أضراره إلى أدنى درجة ممكنة وتسمى البرامج التي تسعى لذلك ببرامج الوقاية من المستوى الثالث وتعد برامج التدخل لتعديل سلوك التدخين لدى المدخنين من هذا النوع من الوقاية * .

---

* لمراجعة نماذج من برامج كل مستوى انظر: عبد المنعم شحاته، ١٩٩٨ : ٨٧ – ١٢٧ .

ولأن البحوث (عرض لها: عبد المنعم شحاته، ١٩٨٨، ١٩٨٩) تؤكد أن الاتجاه المحبذ للتدخين محدد مهم ودافع قوي لبدء تدخين السجائر واستمراره وتبريره، ولأن الاتجاه مدخل رئيس يمكن تعديل السلوك من خلال تغييره إذ يتضمن تعريف الاتجاه التسليم بأنه يحث الفرد على إصدار سلوك نحو أو ضد موضوع الاتجاه؛ فإن تغيير اتجاهات المراهقين المحبذه لتدخين السجائر، واستبدال هذه الاتجاهات بأخرى منفره تساعدهم على رفضه ومقاومة المؤثرات المشجعة له، تعد أهم الطرق الوقائية التي يمكن أن تقلل من أعداد الذين يقدمون على بدء التدخين .

وبالتالي انقاص معدل الإصابة بالعديد من الأمراض المرتبطة أو المترتبة على تدخين السجائر. ويتم ذلك من خلال أساليب التخاطب (الاتصال) المختلفة، سواء كان:

أ- تخاطبا شخصيا أو مباشراً أو بالمواجهة Face To Face حيث يمكن أن يساهم المتلقي مساهمة فعالة كما في: الخطابة – تعليمات مدير لعماله أو مدرب لفريقه.. إلخ .

ب-تخاطبا غير مباشر، حيث لا توجد فرصة لمساهمة المتلقي في تشكيل الرسالة كالتخاطب من خلال وسائل الإعلام الجماهيرية : صحافة – وإذاعة – وتليفزيون – وسينما – ومسرح.

ويعد النوع الأول تخاطباً في اتجاهين مما يتيح للمتلقي فرصة المشاركة في تشكيل الرسالة، ويمكّن المصدر من تلقي عائد عن فهم الجمهور لرسالته، وبالتالي يحدد مدى حاجاتها لزيادة التوضيح، وهو ما

يفتقده النوع الثاني الذي يعد تخاطبا في اتجاه واحد فقط.* وكلا النوعين يمكن أن يكون : -

(أ) تخاطبا لفظيا .   (ب) تخاطباً غير لفظي

ولا توجد وظائف لهذا النوع من التخاطب، وأخرى لذلك، وإنما يتفاعلان معا بحيث يتكاملان، ولاسيما إذا تناول التخاطب موضوعاً ذا بطانة وجدانية Involved، حيث تلعب الهاديات غير اللفظية دوراً بارزا في تحديد إطار الرسالة وفكرتها العامة، وتكشف عن اهتمامات واتجاهات مصدرها، وتنظيم مخاطبته للمتلقي أو مخاطبة المتلقي له (إذا كان تخاطبا بالمواجهة) وتضفي بعدا إغرائيا على هذه المخاطبة (عبد المنعم شحاته، ١٩٩٥).

ويعد الكشف عن فعالية الرسائل التي صممت بهدف إثارة خوف المتلقي أكثر مجالات البحث في ميدان التخاطب ارتباطا بإعداد برامج الوقاية من بدء التدخين، وتتكون هذه الرسائل من جزءين رئيسين :

١- معلومات تصف مدى خطورة سلوك يصدره الفرد وتشمل هذه المعلومات أسباب إصدار هذا السلوك والآثار التي يحدثها.

٢- معلومات تصف كيفية تجنب هذا السلوك الخطر، أي التوصيات التي تقدمها الرسالة.

ويتم التعبير عن المعلومات المتضمنة في الجزءين بنبرة انفعالية لا تخلو من ذكر حقائق أو أدلة واقعية عن الأضرار المترتبة على عدم تبني توصيات الرسالة (Lerenthal, 1970) .

وتكشف البحوث - التي آجراها "ليفنثال" Leventhel وزملاؤه (١٩٨٥) والتي عرضها "شيفمان" Shifman (١٩٩٣) - أن مستوى الخوف المرتفع أكثر فعالية من المستوى المنخفض، وتتمثل هذه الفعالية في كل من:

* تعد المخاطبة عبر شبكة المعلومات العالمية (إنترنت) تخاطباً عن بعد يسمح بالمشاركة.

١- سرعة تأثر المبحوثين بالتهديد المتضمن في الرسالة.

٢- اتجاه ونية سلبية نحو موضوع التهديد (تدخين السجائر).

٣- اتجاه ونية إيجابية نحو الفعل الذي يخفض مستوى الخوف (الامتناع عن التدخين).

أي أن الرسائل الأكثر تهديداً تستثير - بالمقارنة بالرسائل الأقل تهديداً - عدداً من الظروف النفسية الضرورية لإنقاص معدل إصدار السلوك الخطر، مع ذلك يظهر المبحوثون تأثيرا في معتقداتهم ونياتهم للفعل في المستقبل، ولا يبدون هذا التأثير فيما يفعلونه الآن فعلا، لذلك يوصى الباحثون بضرورة أن تركز الرسالة على الأفعال النوعية المرغوبة (عدم التدخين)، والتي يمكن بها تجنب مترتبات الخوف المستثار والتي تمكّن المتلقي من تنظيم الظروف الخارجية المشجعة على تدخين السجائر، كما يجب أن تحدد الرسالة مدى حدوث الحدث المؤلم - الذي تهدد به الرسالة- إذا لم يقبل المتلقي توصياتها.

ويذكر الباحثون أن عدداً من المتغيرات يزيد من فعالية مستوى الخوف المرتفع، منها: وضع توصيات الرسالة في نهايتها- وكون المتلقون مرتفعي الدرجة على مقياس تقدير الذات- وكون الرسالة تتناول موضوعات صحية أكثر خطورة- وكون هدف الرسالة هو تغيير اتجاه المتلقي، وليس تهيئته لمقاومة الدعاية المضادة- ومدى الوقت الفاصل بين عرض الرسالة والقياس البعدي، فكلما قصر هذا الوقت كلما زادت الفاعلية، وذلك لتلاشي آثار الخوف بمرور الوقت.

خلاصة القول: إن البحوث تكشف عن فعالية نسبية لمنع الأفراد من إصدار سلوك خطر صحيا (كالتدخين) عن طريق تغيير اتجاهاتهم المحبذة

لهذا السلوك من خلال التلويح بمترتباته المستهجنة والمؤلمة، وإن هناك عددا من المتغيرات تلعب دوراً معدلاً لهذه الفعالية، وهي فعالية يرى بعض الباحثين أنها لا ترجع إلى إثارة الخوف بقدر ما ترجع إلى عوامل أخرى (مثل: التشريط – قابلية الاتجاهات للتغير نتيجة التوقع أي تغيير عابر ٠٠٠الخ) اختلفوا في تحديدها *٠

بحوث الوقاية من بدء التدخين :

وهكذا، وظف تراث بحوث تغيير الاتجاه من خلال التخاطب، والمبادئ النظرية التي كشفت عنها، في وقاية المراهقين من بدء التدخين وكانت بداية هذا التوظيف هي جهود متفرقة وغير منظمة قام بها أوائل سبعينيات القرن العشرين بعض المهتمين بقضايا الصحة والتربية الذين سعوا إلى تبصير المراهقين بأضرار التدخين الصحية، وقلل من قيمة هذه الجهود افتقارها للتقويم العلمي (Flay,1985) وفي الربع الأخير من القرن العشرين انتظمت هذه الجهود وتنامت، وفي هذا السياق نشير إلى نموذجين هما: الأمريكي – والمصري ٠

أولاً: النموذج الأمريكي للوقاية من بدء التدخين

ويعد الأكثر نجاحاً **إذ كانت التقديرات لنسبة المدخنين من الشباب هي ٥١,٦% بين الذكور و٣٤% بين الإناث إذ بها في مسح ٢٠٠١ – المشار إليه آنفاً– ٢٩,٢% و ٢٧,٧% على التوالي ٠

---

* لمعرفة محددات فعالية الرسائل المثيرة للخوف وتفسيرها انظر : عبد المنعم شحاته ، ١٩٩٥؛ ١٩٨٨ : ٢٦ – ٣٦ ٠

** ولا يمثل نجاحه هذا مبرراً لاستعارته ، فكما سبقت الإشارة ص لا يجوز نقل استراتيجية تدخل من : مجتمع لآخر٠

ومنذ سنة ١٩٧٨ تعددت برامج الوقاية من بدء التدخين ونشطت بحوثها حتى أمكن تقسيمها إلى أجيال : -

١- يمثل الجيل الأول البحث الرائد في هذا المجال الذي حاول فيه "إيفانز" Evans وزملاؤه (١٩٧٨) توظيف نموذج التحصين Inoculation الذي طوره "ماكجوايز" من خلال المماثلة بين مقاومة التعرض لتخاطب معارض وتحصين الجسم ضد الأمراض بحقنه بفيروسات ضعيفة تحثه على تكوين مضادات حيوية تمكنه من مواجهة نفس الفيروسات - القوية طبعاً - إذا ما هاجمته مستقبلا، واستخدم "إيفانز" وزملاؤه (بجامعة هيوستون -تكساس) هذا الأسلوب كاستراتيجية لتنمية مهارات المراهقين لمواجهة الضغوط الاجتماعية والبيئية المتمثلة - في رأيهم - في وجود نماذج يقتدى بها المراهقون، (سواء كانت هذه النماذج من الآباء أو الأقران أو تقدمها وسائل الإعلام) التي تشجع المراهقين على بدء التدخين، حيث طوروا برنامجا مكونا من أربعة شرائط فيديو، مدة كل منها عشر دقائق، تتضمن معلومات عن مضار التدخين قصيرة الأمد وأثاره على الآخرين والتشجيع الناتج عن وجود مدخنين، وكيفية مواجهة هذا التشجيع، مبرزا مزايا عدم التدخين، ويقوم بالتعليق على هذا المضمون مراهقون غير مدخنين - من نفس سن المبحوثين - ويلي عرض كل فليم تعرض المبحوثين لموقف تمثيل أدوار تشبه تلك التي قدمها الفيلم، فيقوم أحد المبحوثين بدور الزميل - أو الأب المدخن الذي يقتدي به الابن - الذي يعرض سيجارة على شخص آخر يقوم بدور من يرفض تشجيعه، ويعقب هذا التمثيل مناقشة مفتوحة حول مضمون الفيلم.

وتكشف البيانات التي جمعها "إيفانز" وزملاؤه عن مستوى محدود لفعالية هذا البرنامج في منع المراهقين من بدء التدخين، فبعد عشرة أسابيع من القياس القبلي وجدوا أن ١٠% من أفراد المجموعة التجريبية (ن=٨٠) يدخنون فعلاً في مقابل ١٨% من أفراد المجموعة الضابطة (ن= ١٠٤).

٢- ويبدو أن نجاح برامج الوقاية من بدء التدخين يتطلب توظيفا لمدى أوسع من المبادئ النظرية في علم النفس، وهذا ما فعله الباحثون الذين تمثل برامجهم الجيل الثاني لبحوث الوقاية من بدء التدخين مثل: (Botvun & Eng,1982) ، فقد وظفوا مبادئ مستمدة من نظريات: التعلم الاجتماعي – والعزو Attrbution – والالتزام Commitment بإصدار سلوك ما – وأساليب التعلم السلوكي (مثل: تمثيل الأدوار Role Playing والدعم والممارسة)، وذلك بالإضافة إلى نظرية التحصين التي وظفها الجيل الأول. وحققت برامج هذا الجيل نجاحاً يفوق النجاح الذي حققه الجيل الأول إلا أنه مازال دون المطلوب وذلك لأنه لم يتدارك أوجه القصور المنهجي التي شابت بحوث الجيل الأول، والتي منها: الاعتماد على الوحدة(فصل دراسي أو مدرسة مثلا) كظرف تجريبي واحد- ووجود مشكلات تتعلق بصدق الأدوات المستخدمة لتقويم التعرض للبرنامج – ووجود معدلات تسرب Attrition مرتفعة جداً .

٣- وهو ما سعت بحوث الجيل الثالث (مثل: Murray, et al, 1984) إلى تفاديه، والتي تتفوق على مثيلاتها- في الجيلين السابقين – في درجة الارتقاء المنهجي، فالظرف التجريبي الواحد تضمن وحدتين (فصلين أو مدرستين على الأقل)، حيث المقارنة بين أكثر من مضمون – للبرنامج – ممكنة، بالإضافة إلى تحقيق قدر من

العشوائية في اختيار المبحوثين وتوزيعهم على وحدات التصميم التجريبي، مع ذلك فإن معدلات التسرب المرتفعة مازالت مشكلة رئيسية تقلل من قيمة نتائج بحوث هذا الجيل ٠

٤- ويعد الجيل الرابع من بحوث (مثل: Best, et al) الوقاية من بدء التدخين أكثرها نضجا سواء من حيث الارتقاء المنهجي أو من حيث تعدد المبادئ النظرية التي اعتمد عليها الباحثون عند إعداد برامجهم، فبالإضافة إلى المبادئ التي تم توظيفها في الأجيال الثلاثة السابقة فإن مبادئ اتخاذ القرارDecision Making وحل المشكلات Problem Solving قد وظفت في برامج هذا الجيل، كما استعان بعضها بالمدرسين والآباء – بعد تدريبهم – وبالتليفزيون في تقديم مضمونها، كما تميزت البحوث التي تقوِّمها بارتقاء منهجي، بالمقارنة ببحوث الأجيال الثلاثة السابقة، حيث طالت مدة المتابعة (أكثر من سنتين)، وارتفعت معاملات الصدق الداخلي للأدوات المستخدمة لتقويم آثار التعرض للبرنامج، وتعددت وحدات (١١ فصلا أو مدرسة) الظرف التجريبي الواحد، كما تم توزيع هذه الوحدات على أساس عشوائي، إلا أن هذه العشوائية لم تتحقق بالدرجة المرجوة، كما وجدت صعوبات في تنفيذ البرامج وفقاً للتصميم الذي وضعه الباحثون، وواجهتهم صعوبات أخرى عند التحكم في التفاعل بين تلقي البرنامج وكل من القياسين السابق واللاحق له ٠ كما أن معدلات التسرب مازالت مرتفعة ٠

٥- ويمثل الجيل الخامس لجهود الوقاية من بدء التدخين توجهاً قومياً (أمريكيا) واسعاً أمتد ليشمل معظم الولايات بمؤسساتها الحكومية والأهلية؛ إضافة إلى هيئات اتحادية، تتكامل جهودها سواء عند

تخطيط حملات الوقاية أو تنفيذها أو متابعتها، وتتسم بحوث هذا الجيل بـــ:

أ- الاعتماد على معلومات واقعية متجدده مستمدة من مسوح دورية كمسح سلوك المخاطرة بين الشباب (YRBS) ويجري كل عامين لمعرفة مدى انتشار تعاطي مادة ما – كالسجائر وغيرها- بين قطاعات الشباب،وكمسح اتجاهات الأمريكيين نحو هذه المواد ويجري كل عام (Califano, 2003) وكتقارير Surgean العامة (مثل تقرير "المرأة والتبغ SGR,2001) ..وغيرها.

ب- إيجاد سياقات جماهيرية تتسم بالاستمرارية كدعوة مركز الإدمان Casa بجامعة كولومبيا جعل الاثنين الرابع من كل سبتمبر- ابتداء من سنة ١٩٩٦- مناسبة سنوية لتناول الطعام مع الأسرة" كجهد قومي بسيط وفعال لزيادة الارتباط الأسري وتسهيل تخاطب الأب – الأبن، وذلك لأن البحوث التي أجراها المركز تظهر فروقاً جوهرية بين الذين يتناولون الطعام بانتظام مع أسرهم والذين لا يتناولون في سلوكيات التعاطي حيث يدخن من مراهقي الفئة الثانية ثلاثة أضعاف من يدخن في الفئة الأولى ويتعاطى ٧٢% من الفئة الثانية مخدرات محظورة قانوناً مقابل ٣١% من مراهقي الفئة الأولى الذين يتناولون الطعام مع أسرهم، وتكشف دراسات مؤسسات علمية أخرى أن تناول الطعام وسط الأسرة يقلل احتمالات الانحراف ويرتبط إيجابياً بتحسن الأداء الدراسي وعادات الطعام الصحية . www.casacolumbia.org

وتشترك بحوث الأجيال الخمسة في خصائص عدة أهمها:

١-تشابه مضمون المعلومات المستخدمة لتغيير الاتجاه نحو التدخين، وتتضمن:

(أ) معلومات عن مترتبات تدخين السجائر طويلة الأمد على الصحة ٠

(ب) معلومات عن الآثار الفسيولوجية المباشرة لتدخين سيجارة واحدة مجرد سيجارة ٠

(ج) تصحيح المدركات الخاطئة الشائعة عن التدخين ٠

(د) مناقشة تأثير الأسرة والأقران ووسائل الإعلام، وطرق التعامل مع هذا التأثير ٠

(هـ) زيادة تقدير المراهقين (أو الذين تعرضوا للبرنامج) لذواتهم، وإمدادهم بمهارات اجتماعية عامة تزيد من كفاءتهم عند مواجهة المواقف المشجعة على بدء التدخين ٠

(و) تعلم مهارات سلوكية محددة لمواجهة المتغيرات المشجعة على بدء التدخين ٠

٢-استخلاص التزام عام(في التجمعات : كالنوادي والمدارس) بمنع التدخين (جعل المكان خالي من النيكوتين) ٠

٣-تشتمل على قياس قبلي، وآخر (أو أكثر) بعدي يسمح بفحص التغير عبر الزمن ٠

٤-تشتمل على مجموعات ضابطة تسمح بالمقارنة بين مجموعات تلقت البرنامج، وأخرى لم تتلقه ٠

٥-تحاول التحقق من صدق التقارير الذاتية عن مدى تدخين المبحوثين بالاستعانة بمؤشرات فسيولوجية تتفاوت في تنوعها ودقتها من بحث لآخر ٠

هذا بإيجاز بعض ملامح النموذج الأمريكي للوقاية من بدء التدخين وهو نموذج ناجح استناداً إلى ما تشير به الإحصاءات من تناقص معدلات تدخين المراهقين والمراهقات عما كان متوقعاً قبل ذلك، ويرجع بخاصة إلى :

١- الاعتماد على تحليل واسع القبول لسلوك التدخين مستمد من مئات البحوث الواقعية التي وضحت كلاً من :

أ- أسباب التدخين ،

ب- المخاطر الناتجة عنه ،

ج- برامج إنقاص معدله ،

٢- تكامل جهود عدة مؤسسات حكومية وأهلية * (اتحادية وعلى مستوى كل ولاية) لإنقاص معدل التدخين، وقد أدى هذا التكامل والتنسيق إلى:

أ- المحافظة على استمرارية مخاطبة جمهور عريض ونقل تصور متكامل عن مشكلة التدخين إليه ،

ب- اتخاذ القرارات الضرورية لتطوير ممارسات مكافحة انتشار التدخين ،

ج- فتح المجال أمام مؤسسات اجتماعية للتعامل مع المشكلة ومساعدتها على امتداد عملها هذا والمحافظة على استمراريته (Biglan & Taylor, 2000) ،

---

* فإضافة إلى عشرات المراكز والمعاهد العلمية القومية (للصحة NIH والسرطان NCI والإدمان NSIDA ...وغيرها) العاملة في مجال مكافحة التدخين، توجد ١٧ جمعية أهلية ناشطة في هذا المجال كجمعية حقوق غير المدخنين والمجموعة المضادة لتلوث المدخنين وجماعة أوقفوا إدمان المراهقين... وغيرها ،

ومع ذلك، يرصد الباحثون (مثل: Banchard, 1994, Leverntal, et al, 1985) عدداً من أوجه القصور على رأسها:-

١- إهمال الفروق الفردية التي تحدد مدى استجابة الأفراد لدعوتها الإحجام عن بدء التدخين ومن أمثلة- وليس حصراً- المتغيرات التي تم إهمالها:

أ- النوع، فعلى سبيل المثال تجاهلت حملات وقاية الأمريكيين من بدء التدخين خصائص الإناث مثل كونهن يخبرن البلوغ مبكراً مقارنة بالأولاد وكونهن أكثر تعرضاً للإصابة بالاكتئاب واضطرابات الأكل وكونهن أكثر تعرضاً لسوء المعاملة البدنية والجنسية، وكل هذا يزيد مخاطر إقدامهن على التدخين والتعاطي، كما يتفاعل النوع مع كل من غياب الاستقرار السكني والانتقال من مرحلة تعليمية إلى أخرى واحتمالات التحول من التدخين على سبيل التجربة إلى التدخين المنتظم حيث الإناث أكثر تهيؤً للتعاطي في هذه الحالات مقارنة بالذكور، حتى أن أسباب التدخين ودوافعه تختلف تبعاً للنوع، ومع ذلك صممت برامج الوقاية من بدء التدخين وفي ذهن واضعيها الذكور وليس الإناث.

ب- العناصر الثقافية التي تشجع أو تكبح الرغبة في التدخين.

ج- درجة استهداف الجمهور للتدخين والتي تحدد كون الفرد سيكون مدخناً أم لا، وإذا كان مدخناً فهل سيدخن بكثافة أم لا؟

د- العمليات المعرفية التي يؤكد منظرو تغيير الاتجاه - على اختلاف توجهاتهم النظرية - أهميتها كوسائط بين التعرض لمخاطبة وتغيير الاتجاه نتيجة هذا التعرض، ومع اعتماد برامج الوقاية

من بدء التدخين على مبادئ الاستمالة بالمخاطبة إلا أنها تجاهلت العمليات المعرفية أثناء تلقي الاستمالة ،

فإن إهمال هذه المتغيرات – وغيرها – عند تصميم برامج الوقاية من بدء التدخين وتنفيذها يزيد من احتمال اختلاط تأثير هذه البرامج مع آثار تلك المتغيرات ،

٢- استخدام البحوث التي تحاول تقويم برامج الوقاية من بدء التدخين تصميمات تجريبية غير ملائمة مثل استخدام تلاميذ إحدى المدارس – ككل – مجموعة تجريبية، تتم مقارنتها بتلاميذ مدرسة أخرى، كمجموعة ضابطة مما يسمح باختلاط أثر السياق، ومعايير الجماعة المدرسية مع تأثير البرنامج موضوع التقويم، مع أن الأفضل هو المقارنة بين فصول من مدرسة واحدة ،

٣- يضاف إلى ذلك وجود معدلات تسرب مرتفعة نسبيا، تؤثر بدرجة كبيرة في نتائج المتابعة طويلة الأمد بشكل يجعل هذه المتابعة بلا معنى أحيانا، حيث يشير بعض الباحثين إلى أن معدلات تسرب المدخنين (أو المعايشين للتدخين كأبناء وأقران المدخنين ٠٠٠إلخ) أعلى من معدلات تسرب غير المدخنين (أو غير المعايشين)، ومع أن تحديد أسباب هذا التسرب يساعد كثيراً على إنقاص معدلاته، فإن الباحثين لم ينتبهوا لأهمية هذا التحديد ،

٤- ومع سعي البرامج السابقة إلى تغيير الاتجاهات المحبذة للتدخين كخطوة سابقة أو مصاحبة للامتناع عن بدء التدخين فإن بحوث تقويم هذه البرامج قد اكتفت برصد مدى التغيير في هذا الاتجاه دون توظيف التراث الضخم لنظريات تغيير الاتجاه من خلال التخاطب في تصميم وتنفيذ تلك البرامج أو في تحديد الظروف المسئولة عن

حدوث (أو عدم حدوث) هذا التغيير، مثال ذلك: أنه مع تعدد مكونات البرنامج الوقائي من بدء التدخين فإنه لم يستفد من بحوث ترتيب عرض الحجج المتضمنة في الرسالة الواحدة في اختيار المكونات الأكثر فعالية، وأدى إهمال دراسة هذا المتغير (ترتيب العرض) إلى إهمال دراسة التفاعل المحتمل بينه وبين عدد من متغيرات موقف التخاطب، حيث تشير البحوث إلى وجود تفاعل بين ترتيب عرض الحجج داخل الرسالة وبين متغيرات أخرى في موقف التخاطب (مثل: موضوع الرسالة- ودرجة تعقيدها- ومصداقية مصدرها .. إلخ) ويؤثر هذا التفاعل في فعالية التخاطب، وبالتالي فعالية برنامج الوقاية من بدء التدخين.

ثانياً: النموذج المصري في الوقاية من بدء التدخين:

ولأن تدخين السجائر ظاهرة اجتماعية، أي تحدث في سياق اجتماعي له معاييره وقيمه التي تحدد معنى التدخين ودلالته، فمن الضروري إجراء دراسات محلية لاختيار مضمون برامج الوقاية من بدئه وتوقيت عرضها والجمهور الذي تستهدفه، ومع ذلك لا يلقي هذا الأمر اهتماماً يذكر من جهات قومية مصرية علمية أو خدمية، فباستثناء الدراسات الوبائية التي يجريها البرنامج الدائم لبحوث تعاطي المخدرات بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، لا توجد إلا بحوث متناثرة يجريها بعض الباحثين في إطار حصولهم على درجات علمية، ويكاد يغيب الجهد المنظم لهيئة قومية حكومية أو أهلية في مجال الوقاية من بدء التدخين.

ونشير في هذا السياق إلى تجربة (عبد المنعم شحاته، ١٩٨٨: ١٠٦ - ١٥٩) أجريت في إطار السياق الثقافي المصري لتغيير اتجاهات

المراهقين المصريين بأخرى تقلل من احتمالات بدئهم التدخين، وقد تم اجراؤها بمشاركة ٣٧٥ طالبا بالصف الأول الثانوي العام، إذ تبين البحوث المصرية والأجنبية أن سن ١٦ سنة هي السن المحتمل أن يبدأ فيه الفرد تدخين السجائر.

وقد تعرض هؤلاء الطلاب لرسالة تدعوهم إلى عدم التدخين، وتتضمن:

١- البدء بتفنيد العلاقة المزعومة بين التدخين وخصال كالاستقلال والرجولة، على أساس أن البدء بتفنيد الحجج المعارضة لتوصيات الرسالة أكثر فعالية إذا كان لدى المتلقى ألفة ووعي بهذه الحجج، كما أن عرض هذه الحجج في سياق يرفضها يضعف من فعاليتها في المستقبل.

٢- كشف الآثار الفسيولوجية المباشرة لتدخين أقل عدد ممكن من السجائر.

٣- توضيح حكم الدين في تدخين السجائر اعتمادا على إبراز حقوق النفس والغير، وضرورة عدم إيقاع الأذى بهم.

٤- إبراز قيمة أن يصبح الفرد غير مدخن.

وقد اختيرت الحجج المدعمة لكل عنصر من العناصر السابقة على أسس موضوعية كالاستناد إلى نتائج البحوث وإلى أراء ذوي الخبرة بموضوعها، وقد قدم هذا المضمون في شكل تخاطب بالمواجهة (محاضرة) لأن هذا الأسلوب يحقق التفاعل بين المصدر والمتلقي بشكل ييسر للمتلقي تكوين صورة إيجابية عن المصدر ويزيد من الألفة به، كما أنه الأسلوب نفسه المعتاد للطلاب عند تلقي الدروس، بالإضافة إلى أنه يلائم المضمون الذي تم اختياره لعرضه عليهم.

وقد سبق التعرض لهذا المضمون، وتلاه أيضا- مباشرة أو بعد أسبوع من عرضه لتقويم آثاره – جمع بيانات عن اتجاهات الطلاب نحو التدخين وخبرتهم به ومعايشتهم له ومعايشة المدخنين وعدد منتقى من خصال الشخصية والبيانات الشخصية والاجتماعية الأخرى، وقد تم ذلك من خلال أدوات روعي تمتعها بالشروط العلمية للأداة الجيدة مما يسمح بالاعتماد عليها، كما تم تحليل البيانات – التي تقدمها هذه الأدوات – على الحاسب الآلي بواسطة أساليب إحصائية مثل تحليل التباين متعدد المتغيرات Manova وتحليل التباين Anova ثلاثي الأبعاد واختبار الفروق بين المتوسطات وأسفرت هذه التحليلات عن النتائج التالية:

١- هناك فروق مرتفعة بين الذين تعرضوا للرسالة والذين لم يتعرضوا إليها في الاستجابة للتخاطب فالذين تعرضوا أكثر فهما للرسالة وأكثر تقبلا لها ولمصدرها بالمقارنة بمن لم يتعرضوا .

٢- لخصال شخصية المتلقي دورها في تحديد درجة هذه الاستجابة وفي توقيت ظهورها، فعلى سبيل المثال، يبدي المتفتح ذهنيا استجابة للرسالة أكثر مما يبدي منغلق الذهن (المتسم بالجمود)، كما أن المتفوق دراسيا لا يظهر هذه الاستجابة بعد تعرضه للرسالة مباشرة وإنما بعده بفترة، بينما يظهر الأقل قدرة على التحصيل الدراسي هذه الاستجابة بعد عرض الرسالة مباشرة، وتختفي عنده بعد العرض بفترة وهو ما يبرهن على أهمية وضع خصال شخصية المتلقي في الحسبان عند إعداد التخاطب وعند تقويم فعاليته.

٣- لمصدر التخاطب دوره المهم في استجابة المتلقي للرسالة، إذ يعد تقبل المصدر عملية أساسية تيسر تغيير الاتجاه المحبذ لتدخين السجائر، وهو ما يشير إلى خطورة ظهور المدخن – في أفلام

السينما والتليفزيون – في صورة البطل المنقذ والقادر على مواجهة أصعب المشكلات، كما يشير إلى أهمية ظهور الشخصيات العامة والمشهورة وهم لا يدخنون .

٤- هناك زيادة – إلى حد ما – في تغيير الاتجاه المحبذ للتدخين ناتجة عن مرور الوقت بعد عرض الرسالة (أي الأثر الكامن) وتلعب خصال شخصية المتلقي دورها في تحديد حجم هذه الزيادة، بل وفي ظهورها أو اختفائها إذ تبين أن مرتفعي القدرة على التحصيل الدراسي ومتفتحي الذهن والأقل تقديراً للذات يظهرون هذه الزيادة أكثر من غيرهم .

هذا مثال لدراسة مصرية هدفها تقويم برنامج للوقاية من بدء التدخين، وقد أثارت – مثل غيرها– نقطة مهمة هي أن قدرة هذه البرامج على أحداث تغيير تتفاوت درجتها ما بين تغيير ملحوظ في الاتجاهات المحبذة للتدخين وتعديل محدود في سلوك التدخين أو نية إصداره مستقبلاً؛ وهي نقطة التفت منظرو تغيير الاتجاه إليها بالدراسة لتفسيرها واكتشاف العوامل التي تؤدي إليها .

والعامل الأهم في هذا الصدد هو أن الاتجاه المحبذ للتدخين يتكون خلال فترة زمنية طويلة جداً تبدأ مع بداية وعي الطفل بما يدور حوله، وتنتهي بمحاولته تجريب التدخين، وطوال هذه الفترة، تعمل مواقف عديدة ووسائل متنوعة على ترسيخ هذا الاتجاه ودعمه، وبالتالي يصعب – لكن لا يستحيل – تعديل اتجاه استغرق تكوينه عدة سنوات في أيام معدودات، أضف إلى ذلك أن عملية التعديل هذه أشبه بالسباحة ضد التيار، فتكوين الاتجاه المحبذ للتدخين يتم في سياق اجتماعي لا يحظر التدخين فقط، بل يشجع عليه أيضا، فوسائل الإعلام ترسم صورة إيجابية عن التدخين والمدخنين،

وتقدم بطل الأفلام والمسلسلات السينمائية والتليفزيونية غالباً، بالسيجارة في يده، يستعين بها لمواجهة المواقف الصعبة والمحرجة والتي تتطلب نضجا ومهارات خاصة، وتؤكد لنا أن التدخين أهم هذه المهارات، إذ يستعيد البطل به كفاءته وقدراته التي اهتزت نتيجة الموقف الذي يواجهه، ولا يقتصر الأمر عند هذا الحد فالصورة تدعو إلى الاقتداء بالبطل، ويزيد من هذا التأثير وجود أب أو أخ يدخن، الذي – يحكم موضعه في الأسرة –يعد نموذجا يحتذى، ويتضخم التأثير، فالاقران يحثون على تجريب التدخين، ويدفعون إليه دفعا، كل هذا في سياق يدعم بدء التدخين، ويقلل من مدى الاستجابة لتخاطب يدعو إلى عدم بدء التدخين، تلك الاستجابة التي تتطلب خلق سياق نفسي اجتماعي يستهجن التدخين ويرفضه أي تغيير الصورة التي تعرضها وسائل الإعلام، وتغيير عادات الآباء وتغيير معايير جماعة الأقران، إذ تؤثر في استجابة الفرد لبرامج الوقاية من بدء التدخين، ليس هذا فقط بل وتحدد هذه الاستجابة من حيث الوجهة والشدة.

ولخلق هذا السياق الرافض للتدخين، يجب أن يقوم المجتمع بأمرين :

١-الاهتمام بالبحث العلمي لرسم ملامح ظاهرة التدخين في مجتمعنا من حيث دوافعها ودلالتها لدى قطاعات مختلفة من الجمهور المصري لوضع أساس علمي موضوعي لحملات مكافحة التدخين، هنا تجدر الإشارة إلى أهمية إجراء دراسات تتبعية طولية Longitudinal والاستفادة من نتائجها فالفرد لا يبدأ تدخين السجائر بين عشية وضحاها، وإنما يمر بمرحلة تهيؤ طويلة، تستغرق عدة سنوات قبل أن يدخن سيجارته الأولى وتنقسم هذه المرحلة إلى مراحل فرعية لكل منها دوافعها وآلياتها، وبدون فهم هذه الدوافع وتلك الآليات، تفقد أساليب الوقاية قدرتها على التأثير، إذ

يصعب – بدون هذا الفهم – اختيار المضمون المناسب تقديمه إلى الأفراد المراد التأثير فيهم، كما يصعب انتقاء الطريقة الملائمة لتقديم هذا المضمون، فعلى سبيل المثال يصبح من المناسب في مرحلة تهيؤ الأفراد لتجريب تدخين السيجارة الأولى، أن تحدثهم عن خطر الاعتماد على "النيكوتين" وصعوبة الامتناع عن التدخين بعد البدء فيه، وأن تدخين السيجارة الأولى يعني تكرار المحاولة ثم الاستمرار في التدخين، وتوضيح كيف يتم ذلك بواسطة بيانات صادقة ومن مصادر موثوق فيها، ويعد هذا المضمون أكثر ملاءمة بالمقارنة بالحديث عن مضار التدخين المباشرة أو بعيدة المدى،لأن المراهقين – في هذه المرحلة – لا يدركون خطورة الاعتماد، معتقدين في إمكانية الامتناع عن التدخين أي وقت شاءوا (Biglan& lich;1984)، أما في مرحلة التجريب الفعلي ومحاولة تدخين السجائر كوسيلة للحصول على قبول اجتماعي وتقدير الذات فإن من المناسب الحديث عن المظاهر السيئة للتدخين، والاعزاءات السلبية التي يعزوها الآخرون إلى المدخن، والضرر الذي يلحقه التدخين بالآخرين،مما يقلل من قبولهم للمدخن، ذلك القبول الذي يمكن الحصول عليه بواسطة وسائل مأمونة وإيجابية كحسن الخلق وأناقة المظهر وغيرها، كما من المناسب تقديم معلومات عن الآثار الفسيولوجية المباشرة – وليس بعيدة المدى– المؤلمة والمترتبة على تدخين سيجارة، مجرد سيجارة واحدة، استنادا إلى نصائح طبية موثوقة .

معنى ذلك أن الدقة في اختيار المضمون الواجب تقديمه – والطريقة المناسبة له – لجمهور بعينه قد يزيد من فعالية أساليب الوقاية من بدء التدخين وكما ورد في الأثر " فلكل مقام مقام" فإن المضمون الذي يلائم المهيئين لتجريب – ولم يدخنوا بعد – لا يكون فعالاً إذا قدم لمن جربوا

التدخين بالفعل، كما أن المضمون الذي يلائم الذين دخنوا على سبيل التجربة لا يجدي تقديمه للمهيئين لتجريب التدخين، وهذا أحد الأخطاء التي وقع فيها مصمموا برامج الوقاية من بدء التدخين، أضف إليه التأخير في تقديم هذه البرامج، فمعظم البحوث التي عرضناها أجريت بمشاركة مبحوثين تجاوزا السادسة عشر عاماً من العمر، حيث بدأ منهم التدخين نسبة تجاوزت الستين في المائة من مجموع المدخنين المنتظمين في التدخين، وكان يجب التبكير في تعريض هؤلاء المراهقين لبرامج الوقاية (أي وهم في الثانية عشر عاماً من العمر أو دون ذلك حيث لم يبدأ التدخين بعد إلا ٤ – ٥% فقط)، إذ أن وقاية المهيئين لتجريب التدخين من محاولة التجريب، أفضل من وقاية الذين جربوا من الاستمرار في التدخين (Orleans; et al, 1993; Pamerleau, et al, 1999; Califano, 2003) ، لذا يجب أن تستهدف حملات الوقاية من بدء التدخين تلاميذ المدارس الابتدائية، فالمرحلة الإعدادية أو الثانوية تعد وقتا متأخراً جداً لذلك .

والخطأ الثالث الذي قلل من فعالية برامج الوقاية من بدء التدخين هو اعتمادها على أسلوب صريح في المخاطبة، فكل المضمون المعارض للتدخين المقدم عبر هذه البرامج – وكذلك وسائل الإعلام – قدم بشكل مباشر بينما تقدم الأفلام والمسلسلات السيجارة وكأنها العصا السحرية التي بها تهدأ النفوس المتوترة وتستيقظ العقول الخاملة، ليس هذا فقط بل أن كثيرا من الشخصيات العامة والنجوم ذوى التأثير الاجتماعي في الآخرين (لأنهم قدوة) يظهرون والسيجارة بين أصابعهم ، كل هذا يدعو النشئ بشكل غير مباشر إلى التدخين، وكما يقول الجرجاني "فالتعريض – أي التلميح – أوقع من التصريح" .

٢-لذلك يجب أن تقوم هيئات حكومية وأهلية بجهد متناسق ومتكامل لترسيخ اتجاهات سلبية نحو التدخين تعد محدداً لسياق رافض للتدخين يشجع الأحجام عنه، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى جهود متناثرة تقوم بها بعض الهيئات ، وتتسم هذه الجهود :

أ-بالعشوائية فليس لها خطة موضوعة مسبقاً وذات أساس علمي موضوعي؛ وإنما حماس القائمين بها وحسب .

ب-أدى هذا إلى تفرق الجهود وتناثرها وغياب التنسيق بينها .

ج-وبالتالي فإن نطاقها محدود مكاناً وزماناً حتى أنها جهود موسمية تنشط حيناً وتختفي أحياناً .

إن إيجاد سياق رافض للتدخين يعد مدخلاً وقائياً لقائمة طويلة من الأمراض، يتطلب استراتيجية عامة مخطط لها جيداً تحدد ادوار هيئات عديدة، لهذه الاستراتيجية ملامح متعددة على رأسها :

(١)رفع سعر السجائر- ومنتجات التبغ الأخرى - لجعلها صعبة المنال على الصغار قدر الإمكان .

(٢)توسيع نطاق الأماكن المحظور فيها التدخين وتغليظ عقوبة من يدخن فيها آيا كان موقعه الاجتماعي .

(٣)توظيف كل ما هو متاح - كعلبة السجائر ذاتها والأعمال الدرامية والمقررات الدراسية والأنشطة اللاصقية .. وما شابه - لتوعية الجمهور العام بمضار التدخين وبحكم الدين فيه فمعرفة هذا الحكم تكبح الرغبة في التدخين وتزيد احتمالات أحجام الفرد عنه (عبد المنعم شحاته، ١٩٩٨: ١٤٨)، وتظهر الإحصاءات الأمريكية أن المدارس الدينية أكثر استجابة لشعار "مدرسة خالية من التدخين" مقارنة بالمدارس العامة، حيث كانت النسب عام ٢٠٠٠ هي ٤٢% من المدارس العامة مقابل ٦٢% بين المدارس الدينية ، زادت ٢٠٠٢ إلى ٦٥%، ٧٩% على التوالي (Califano, 2003) .

الخلاصة :

تبين لنا أهمية الوقاية عموماً وبالأخص وقاية المراهقين من بدء التدخين، والحيلولة بينهم وبين تدخين أية سيجارة من خلال تغيير اتجاهاتهم المحبذة للتدخين والتي تدفع إليه بأخرى تستهجنه وتحث على رفضه ويتم هذا التغيير من خلال معلومات تصف خطورة التدخين ومضاره وكيفية التعامل مع الظروف التي تشجع عليه، كما تصف مزايا عدم التدخين ٠

وقد تم عرض نماذج من البحوث التي استهدفت ذلك سواء ما أجرى منها في الولايات المتحدة، أو ما أجرى منها في مصر وتكشف جميعها أن تعرض الأفراد لتخاطب يعارض التدخين قد أحدث تغييرا ملحوظاً في اتجاهاتهم المحبذة له، كما أحدثت تعديلاً أقل درجة في نية الأفراد التدخين مستقبلاً أو محاولتهم التدخين الفعلي٠

هنا يجب التأكيد على ضرورة إيجاد سياق ثقافي اجتماعي رافض للتدخين، ويعد التدين أحد عناصر هذا السياق، كما يمارس الوالدان دوراً حيوياً في تشكيل اتجاهات أبنائهما السلبية نحو التدخين والمخدرات وتدريبهم على رفضها إذا وجدوا في مواقف تدفعهم إلى تجريب التدخين أو التعاطي ٠

المراجع

١-عبد المنعم شحاته (١٩٨٨) تغيير الاتجاه نحو التدخين: رسالة دكتوراه غير منشورة-كلية الآداب؛ جامعة القاهرة.

٢---------- (١٩٨٩) "بعض محددات بدء المراهقين تدخين السجائر". "علم النفس"،١٢: ٨٣-٨٩.

٣----------(١٩٩٥)"مكونات الإعلام وآثاره من منظور علم النفس". عالم الفكر،٢٤(١/٢):٢٩١-٣١٥.

٤---------- (١٩٩٨)"سيكولوجية التدخين". القاهرة: دار غريب.

5-Best, A.; Wain-Wright, P.; Mills, D. & Kirkland, S. (1985)Biobehavioral approaches to smoking control. In: W.Linden (Ed) Biobehavioral barriers in behavioral medicine. NewYork: Karger.

6-Biglan, A. & Taylor, K.(2000)Why we been more successful in reducing tobacco use than violent crime?. American J. of Community Psychol.,28(3): 269-302.

7--------- & Lichtenstein, E. (1984)A behavior-analytic approach to smoking acquisition: Some recent findings. J.APPL.SOC.PSYCHOL.,14: 207-223.

8-Blanchard, E. (1994) Behavior medicine & health psychology. (701-733) In: A. Bergin & E. Garfield (eds.) Handbook of psychotherapy and behavior change. NewYork: Wiley & Sons.

9-Botivin, G. & Eng, A.(1982)The efficacy of a multicomponent approach to the prevention program. PREV.MED.,11: 199-211.

10-Califano,J. (2003) Release of the 2002 national survey of american attitudes in substance abuse VII. (www.casacolumbia.org/newsleter)

11------- (2003)Tobacco use among middle and high school students.MMWR,52(1): 7-9.

12-Evans,R.; et al(1978)Detering the onset of smoking in children: Knowledge of immediate physiological effects and coping with peer presure, media presure and parent modeling. J. APPL. SOC.PSYCHOL.,8: 126-135.

13-Flay,B. (1985)Psychosocial approaches to smoking prevention:A review of findings. Health Psychol.,4: 449-488.

14-Heath, A. C. & Madden, P. G. (1995). Genetic influences on smoking behavior. In J. R.1 Turner, L. R. Cardon, & J. K. Hewitt (Eds.), Behavior genetic approaches in behavioral medicine (pp. 37-48). New York: Plenum.

15-Lerman, C., Caporaso, N. E., Audrain, J., Main, D., Bowman, E. D., Lockshin, B., Boyd, N. R. & Shields, P. G. (1999). Evidence suggesting the role of specific genetic factors incigarette smoking. Health Psychology, 18, 14-20.

16-Leventhal,H.(1970)Findings and theory in the study of fear communications. ADV.EXP.SOC.PSYCHOL.,5: 119-189.

17--------------(1986)Health psychology: A social psychological prespective.(448-476)In: L.Berkowitz>A survey of social psychology.

18-------------; Porhaska,T. & Hirschman,R.(1985)Preventive health behavior across the life span.(8: 191-238)In: J. Rosen & L.Solomon(eds)Prevention in helth psychology.New Hampshire: New England uni. Press.

19-Murray,D.; Johnson,C.;Luepker,R.&Mittelmark,M. (1984)The prevention of cigarette smoking in children: A comprasion of four strategies. J.PPL. SOC. PSYCHOL., 14: 274-288.

20-Orleans,C. Kristeller,J. & Gritz,E.(1993)Helping hospitalized smokers out: New directions for treament and research. J.CONS.CLI.PSYCHOL.,61: 778-789.

21-Parrott, A. (1999)Dose cigarette smoking cause stress?.Amer. Psychol.,54: 817-820.

22- Pomerleau, O.; Collins, A.; Shifman, S.& Pomerleau, S.(1993)Why some people smoke and others do not. J.CONS.CLI.PSYCHOL.,61: 723-731.

23-Sabol, S.; Nelson, M.; Fisher, C.; Gunzerath,L.; Brody, C.; Hu,S.; Sirota, L.; Marcus, S.; Greenberg,B.; Lucas IV,F.; Benjamin, J.; Murphy, D.& Hamer, D.(1999)A Genetic Association for Cigarette Smoking Behavior. *Health Psychol., 18: 7-13.*

24-SGR(2001)Women and tobacco.(www.cdc.gov/26-3-2001)).
25-Shifman,S. (1993)Smoking cesstion treatment: Any progress.J.Cons.Clin.Psychol.,61: 718-722.
26-www.casacolumbia.org
27-www.cdc.gov/mmwr/mm520103 (13-5-2003).

ثالثا: في مجال العدالة الجنائية

مدخل

في تقديمهما لعدد خاص عن الأطفال والعنف من مجلة "علم النفس الارتقائي"- صدر في مارس ٢٠٠٣- أشار "جورجي بيتت" Petitt و"كينيث دودج" Dodge إلى الارتباط الوثيق بين عنف الأطفال والصحة، وتشير البحوث إلى دلائل عديدة لهذا الارتباط نقتبس اثنين منها:-

١-في دراسة للعلاقة بين درجة عدائية الأفراد وهم أطفال وإصابتهم بأمراض الدورة الدموية وهم مراهقون؛ تبين منها أن استمرار إصدار الفرد سلوكا عدوانيا ينبئ بإصابته مستقبلا بزملة الأيض metabolic؛ أي أن يحصل الفرد علي المئين ٧٥ فأكثر - يكون ضمن الربيع الأعلى بين أفراد مجموعته العمرية والسلالية والنوع - على مقاييس اثنين أو أكثر مما يلي: كتلة الجسم - ومقاومة الأنسولين - ونسبة عمليات البناء إلى الهدم - ونسبة هدرجة (العمليات الكيميائية التي يتم بها إحلال الهيدروجين) الدهون والزيوت - وضغط الدم، فالذين لديهم درجات مرتفعة من العدوانية يعانون أكثر من زملة الأيض؛ وتلعب عوامل النضج الجنسي - خاصة إذا بدأ قبل الثامنة من العمر - دورا وسيطيا في استجابة الفرد العدوانية وبالتالي إصابته بزملة الأيض؛ لذا فان الوقاية من العدوان تقلل احتمالات هذه الإصابة (Raikkonenn, et al,2003).

٢-تكشف البحوث التي أجريت على توائم متطابقة وجود علاقة دالة بين تكرار ترديدهم - وهم أطفال - عبارات عدائية (عدوان لفظي) وممارستهم العنف (أي العدوان البدني) مستقبلا؛ وفي ظل دلائل تؤكد الأساس الوراثي للعدوان؛ فانه من الصعب تفسير هذه العلاقة على أساس كون أحد طرفيها (السلوك اللغوي) سببا للأخر etiology ((Dianne; et al, 2003).

هذه الأدلة - وغيرها- دفعت العلماء وواضعي السياسات الاجتماعية إلى العناية بمعرفة أسباب عنف الأطفال وإلى أي مدى يمكن تعديله من خلال برامج وقائية جيدة التخطيط.

من هذا المنطلق يعد العنف نقطة الالتقاء بين مجالي: الصحة - والعدالة الجنائية؛ فهو من ناحية مشكلة صحية لكونه: إما عرضا أوليا لاضطرابات نفسية وحشوية يعاني منها الشخص العنيف، وإما يسهم عنف هذا الفرد بقدر ما في إحداث هذه الاضطرابات لدى ضحاياه، كما يعد العنف من ناحية أخرى مشكلة جنائية حيث يشكل إضرارا بالآخرين وممتلكاتهم يقتضي تدخل هيئات العدالة؛ حرصا على استقرار المجتمع واستمرار تماسكه.

لذا يتناول هذا الجزء مقالين:-

١- يعرض أولهما العوامل المرتبطة بالعنف وتفسيره، ومع أن موضوع العنف يحظى باهتمام متزايد منذ أمد طويل؛ إلا أنه تكثف بشكل شديد مؤخرا؛منذ أطلق طالبا إحدى مدارس "كلورادو" الثانوية النار - يوم ٢٠/٤/١٩٩٩- فقتلا ١٣ وجرحا ٢٣ من زملائهما ومدرسيهما ثم انتحرا*، ويرجح الباحثون أن مداومتهما التردد على مواقع اللعب بشبكة المعلومات العالمية "انترنت" - لمدة عام قبل الحادث كما يكشف أرشيف المواقع المفضلة لهما- على رأس العوامل التي أسهمت في إقدامهما على هذا العمل الشنيع؛ حيث ٨٠% من هذه الألعاب تعلم العنف وتشجع ممارسته (Anderson, 2000)؛ وفي هذا الصدد نشير إلى أهمية إعادة النظر في محتوى الأعمال الدرامية والألعاب التي تقدمها وسائل الإعلام

*وفي يوم ١٧/١٢/١٩٩٩ هددت إحدى الطالبات بتكرار الفعل نفسه.

- خاصة التلفزيون- ومواقع شبكة المعلومات العالمية؛ فالبحوث العلمية (التي تم فيها تتبع عينات من الأطفال لمدد زمنية طويلة؛ جمع منهم وعنهم بيانات بشكل متتابع) تؤكد العلاقة الطردية القوية بين تعرض الأطفال لمشاهد العنف وسلوكهم العدواني وهم مراهقون (أي كلما زاد تعرضهم زادت درجة العدوانية التي يتسم بها سلوكهم) وأن هذه العلاقة قائمة بغض النظر عن نوع الطفل (ذكرا أم أنثى) وقدرته العقلية العامة ومكانته الاقتصادية الاجتماعية، فمشاهدة الطفل برامج إعلامية - أو مشاركته في ألعاب - عنيفة تنبئ بكونه عدوانيا وهو مراهق؛ إذ ينظر إلى شخصياتها العنيفة بوصفها واقعية ويتعامل معها على هذا الأساس؛ وتزيد هذه المشاهدة أو المشاركة - من توحده معها .(Huesmnn; et al, 2003)

٢- ويقدم المقال الثاني نموذجا لتطبيقات علم النفس في مجال العدالة الجنائية؛ فممثلو طرفي (الجاني والضحية) جرائم القتل - وتمثل أقصى درجة من السلوك العنيف - يستندون إلى شهود لإثبات البراءة أو الإدانة سواء كانوا شهود عيان أي رأوا وقائع الجريمة أم كان الشهود خبراء مثل استعانة دفاع متهم بجريمة قتل - سببها سقوط صندوق كان يحمله المتهم ونظرتها محكمة "نيويورك" ١٩٩٨ - بعالم نفس معرفي - كشاهد - أهتم برصد درجة وعي الأفراد بسقوط الأشياء رأسيا وتقديرهم لمدى انحراف هذا السقوط؛ وتبين له أن هذه التقديرات منخفضة غالبا (www.psyclaw.org).

G. Pettit & K. Dodge (2003) Violent Children: Bridging Development, Intervention, and Public Policy. Developmental Psychology, 39: 187-188.

L. Huesmann, J. Moise-Titus, C. Podolski, & L. Eron (2003) Longitudinal Relations Between Children's Exposure to TV Violence and Their Aggressive and Violent Behavior in Young Adulthood: 1977-1992. Developmental Psychology, 39: 201-221.

G. Dionne, R. Tremblay, M. Boivin, D. Laplante & D. Pérusse (2003)Physical Aggression and Expressive Vocabulary in 19-Month-Old Twins . Developmental Psychology, 39: 262-273.

موجة العنف : مسئولية الفرد أم المجتمع ؟ *

﴿ من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً﴾

قرآن كريم

مقدمة :

تزايدت أعمال العنف في الفترة الأخيرة تزايدا ملحوظا، فأخبار القتل تتصدر الأنباء في أي مكان على سطح الكرة الأرضية ، ويكفي أن نشير إلى أنه في سنة ١٩٩٢ وحدها قتل ٥٠ ألف أمريكي نتيجة العنف المتبادل في المجتمع الأمريكي، وفي عام ١٩٩٣ هزت المجتمع الإنجليزي حوادث قتل ارتكبها أطفال أو أباء لا يتوقع أحد أن يقتلوا ضحاياهم ،

وبعد كل حادثة عنف، تتضارب أقوال المهتمين بتفسيرها ، فمنهم من يحمل المتورط في أعمال عنف مسئولية تورطه، معتقدين أنه مهيأ بطبعه - عضويا ونفسيا - لهذا التورط ، ومنهم من يحمل المجتمع - بمؤسساته التربوية والإعلامية والاقتصادية- هذه المسئولية، فتدني درجة الالتزام بالقيم وغياب التنمية الشاملة ونشر ثقافة العنف والحث عليه (كما تفعل الأفلام) وراء تزايد أعمال العنف في العالم كله ،

والعنف نوع من العدوان، إذ يشمل السلوك العدواني نمطين من الاستجابات :

١ - استجابات عدوانية تتسم بدرجة من العنف تتفاوت بين سب من تعاديه وإزهاق روحه ،

---

* نشر في : مجلة "الدراسات الإعلامية، ١٩٩٦ ، ٨٥ : ٤٦ - ٦١ ،

٢ - استجابات عدوانية غير عنيفة مثل تجاهل من نعاديه - بخسه قدره - ترويج شائعات ضده .

ويجمع بين النوعين تعمد إلحاق الأذى بشكل ضمني أو صريح، وقد يستهدف هذا الأذى الفرد نفسه كالانتحار، أو فردا آخر كالضرب أو جماعة كما يفعل النازيون الجدد ضد الأتراك والصرب ضد مسلمي البوسنة والهندوس ضد مسلمي الهند وغير هؤلاء وأولئك في أنحاء العالم كله. وقد يكون العنف جماهيريا كأحداث "لوس أنجلوس، وادكو وأبو كبير وانتفاضة ١٩٧٧ .

والعدوان هو أي سلوك يصدره فرد (أو جماعة) صوب آخر (أو آخرين) أو صوب ذاته، لفظيا كان أم ماديا، صريحاً كان أم ضمنياً مباشر أم غير مباشر، وترتب عليه إلحاق أذى بدني أو نفسي بصورة متعمدة بالطرف الآخر. ويعد العنف شكلا من أشكال العدوان لأنه سلوك يستهدف إلحاق الأذى بالآخرين أو ممتلكاتهم .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: إذا تعرض شخصان لموقف تهديد، وكان رد فعلهما عدوانيا، فلماذا تختلف شدة العدوانية بينهما بحيث يكتفي أحدهما باعتداء ضمني وبشكل غير مباشر، على مصدر التهديد، في حين يتسم رد فعل الثاني بالعنف، وقد يصل به الأمر إلى قتل من هدده؟ لماذا هذا التفاوت في استجابتهما ؟

من المؤكد أن هناك عوامل معينة غير الاستثارة أو التعرض لموقف تهديد تعد محددات لاتسام الاستجابة بدرجة ما من العنف، وفي هذا الصدد توجد وجهتا نظر متعارضتين، إذ ترى إحداهما أن العنف - بدرجاته المتفاوتة، والقتل أحدها - سلوك فطري موروث، مؤكدة أساسه العضوي، في حين تنفي وجهة النظر الثانية - وبإصرار - ذلك، حيث لا يوجد - على

حد قول "بركوفيتز"- أي دليل حافز نحو السلوك العدواني مقرر وراثيا ، وأن العدوان الحيواني العفوي أمر نادر الحدوث نسبيا، وإذا حدث فبسبب الخيبة والحرمان[١]، مما يبرز دور العوامل البيئية (فيزيقية أو اجتماعية) كمحددات للعدوان وهناك وجهة نظر ثالثة تنادي بالتفاعل بين كلا النوعين من المحددات الحيوية والبيئية، مقدمة أدلة هذا التفاعل وفيما يلي عرض لحجج كل وجهة منها :

أولاً: المحددات الحيوية لسلوك القتل كسلوك عنيف :

لأن الكائنات الحية جميعها تشترك في إصدار استجابات تتسم بالعدوانية فقد أعتقد البعض أن للعدوان أساس عضوي [٢] بل وصل الأمر إلى اعتباره سلوكا غريزيا، إذ يعتقد "فرويد" أن لدى الإنسان حافز فطري لتدمير الآخرين، ورغبة في الموت، وما الحرب – من جهة نظره – إلا دليل صارخ على هذه الرغبة وذلك الحافز، ويرى "لورنز" Lorens أن لدى الإنسان حافز للعدوان ينشط تلقائيا وبشكل فطري، مؤكدا أن المحددات الداخلية تلعب دورا أساسيا في ظهور الاستجابة العدوانية، وذلك بالمقارنة بالمحددات البيئية التي ينحصر دورها فقط في استثارة الفعل لا تحديده، كما يعتقد "لورنز" بوجود مركز لغريزة العدوان في الجهاز العصبي المركزي، وأن كانت البحوث الحديثة لن تقدم الأدلة على ذلك[٣] إلا إنها لا تنفي وجود أساس عضوي (حيوي) للعدوان إذ : -

(١) هناك بحوث تشير إلى دور لعوامل وراثية Genetic كمحددات لبعض ضروب السلوك العدواني على الأقل، وأهم هذه العوامل هو الصبغية (كروموزوم) ثلاثي الجنس (xxy) الذي يوجد لدى بعض الذكور، ويرتبط بسلوكهم العدواني، فقد وجدت "جاكوبز" Jacobs ومساعدوها أن نسبة

من نسبتهم بين الجمهور العام [١٢]، كما تشير نتائج رسم المخ لعينة من المرضى العقليين المتهمين بارتكاب جرائم، إلى وجود اضطراب في النشاط الكهربي للمخ حيث كشفت النتائج عن تغيرات في رسم المخ في صورة بطء النشاط المخي لدى ٩٠% من الحالات، مما يؤكد وجود خلل حيوي لديهم [١٣].

(٥) يحدث تعاطي المخدرات خللا في التوازن الحيوي (الهيوموستازس) لدم المتعاطي، وقد ثبت أن هناك علاقة بين التعاطي وجرائم العنف، فقد وجد سويف وزملاؤه[١٤] فروقا ذات دلاله إحصائية مرتفعة بين متعاطي الحشيش المزمنين وغير المتعاطين المناظرين لهم، وذلك في عدد مرات التورط في أفعال تتسم بالعنف اللفظي أو البدني، وتؤكد البحوث الأمريكية ذلك، إذ تكشف أن تعاطي الماريوانا أو الامفتيامينات أو عقاقير الهلوسة أو الكحوليات يزيد – وبشكل واضح– من احتمالات تورط الفرد في أعمال عنف بما فيها القتل[١٥] .

ثانيا : المحددات البيئية لسلوك العنف بما فيه القتل :

يؤكد جون لويس[١٦] أن البحوث الأنثروبولوجية لم تدعم المحددات العضوية للعنف مشيرا إلى هيمنة المحددات البيئية، والاجتماعية منها على وجه الخصوص، ويمكن استعراض أدلة هذه الهيمنة على النحو التالي : –

أ – الظروف الفيزيقية :

تشير الدراسات المعملية إلى أن الفرد يكون أكثر عدوانية إذا كان غير مستريح لظروف بيئية مثل :

(١) درجة حرارة المكان الذي يتواجد فيه، إذ يوجد ارتباط إيجابي بين درجة حرارة الجو والمعدل اليومي لجرائم القتل، فالإحصاءات الأمريكية تشير

إلى حدوث ٦,٣ جريمة في المتوسط لكل يوم من الأيام الباردة، في مقابل ٧,٧ جريمة لكل يوم من الأيام الحارة [١٧] ومرد ذلك – في رأي البعض – أن حرارة الجو تزيد من توتر الأعصاب، نتيجة لضيق التنفس، مما يضعف التحكم الإرادي للفرد، ويؤدي إلى إصداره ردود أفعال بدون ترو، وربما عنيفة، لأي منبه يتعرض له، كما أن حرارة الجو تدفع لخروج الأفراد من حجراتهم، والتجمع في أماكن متسعة شديدة التهوية، تيسر الاحتكاك بينهم وربما التشاحن الذي قد يكون مسئولا عن العنف، وليس حرارة الجو[١٨]، ويعتقد بعض الباحثين أن ارتفاع درجة الحرارة عامل مساعد ليس إلا، وأن الظروف البيئية المرتبطة بالجو الحار هي المسئولة عن تزايد معدلات الجرائم ضد الأشخاص، ومن هذه الظروف : كون زراعات الطقس الحار تتسم بالطول ما ييسر القنص والاختفاء، كون ثقافة فرعية تشجع العنف (الثأر) تسود المناطق الحارة لمصر (وجه قبلي) مقارنة بالأقل حرارة [١٩] ، كما تلعب عوامل مثل: نوع المجني عليه (ذكر أم أنثى) ونوع الجريمة (قتل عمد أم خطأ) والحراك الاجتماعي، دورا معدلا لعلاقة جرائم القتل بارتفاع درجة حرارة الجو [٢٠]

(٢) الزحام، ويتفوق دوره كمحدد لجرائم القتل على دور ارتفاع درجة الحرارة لأن هذا الارتفاع يؤدي إلى زحام الأفراد في أماكن معينة – أسطح المنازل، الحدائق العامة، الشوارع ..الخ – مما يرفع من كثافتها السكانية، وهناك أدلة على وجود علاقة طردية بين كثافة المكان سكانيا ومعدلات جرائم العنف، ومرجع هذه العلاقة إما أن الزحام يزيد من محاولات انتهاك حق الفرد في الحيز الشخصي [٢١]، أو أن الزحام يضعف أواصر التضامن الاجتماعي، فلا يهتم كل فرد إلا بما ينفعه شخصيا، وتنتفي بالتالي الإدانة الشعبية للجريمة، مما يشجع شيوعها[٢٢] وتدعم دراسة ممدوحة سلامة[٢٣] هذه العلاقة بين الزحام والعدوان، حيث وجدت

علاقة دالة وقوية بين زيادة حجم الأسرة وعدوانية الأطفال، حيث زيادة عدد الأطفال تؤدي إلى زيادة فرص التنافس والاحتكاك بينهم، كما يزيد من فرص التعرض لنماذج – يقدمها الأشقاء – من أفعال العنف، بالإضافة إلى تناقص التفاعل الحميم بين الآباء والأبناء، مما يؤدى إلى إحساسهم بالإحباط . وتعتقد "شو"(٢٤) أن الشعور بالزحام يختلف باختلاف نوع الأفراد، وأن هناك تفاعل بين النوع وكثافة المكان سكانيا وسعته وخصائصه الفيزيقية، ومن المحتمل أن سلوك العنف يرجع إلى هذا التفاعل؛ وليس إلى متغير الزحام بمفرده .

(٣) تشير الإحصاءات الأمريكية إلى انتشار جرائم العنف في المدن الكبيرة بمعدل أكبر من انتشارها في كل من المدن الصغيرة والريف (٢٥)، ولأن المدن الكبيرة أكثر ضجيجا وصخبا، فقد يعتقد البعض في وجود ارتباط بين الضوضاء والتورط في جريمة قتل، ولم يحظ هذا الارتباط بانتباه الباحثين، وكذلك لم تحظ ظروف بيئية أخرى – باستثناء درجة الحرارة – بمثل هذا الانتباه .

ب – البيئة الاجتماعية :

مما سبق يتضح أن الظروف البيئية تمارس تأثيرها في سلوك العنف من خلال ما يترتب على هذه الظروف من آثار حيوية واجتماعية كسرعة الاستثارة وغياب التفاعل الحميم بين الأفراد والإحباط، مما يزيد من أهمية السياق الاجتماعي النفسي كمحدد لجرائم العنف، ويمكن الإشارة إلى علاقة هذه الجرائم بعدد من عناصر ذلك السياق كما يلي :

(١) تشير الإحصاءات الأمريكية إلى أن جرائم العنف يقوم بها ذكور* غالبا، ينتمون إلى الطبقة الدنيا أو المكانة الاقتصادية الاجتماعية المنخفضة(٢٦)، ويفسر "كابسواني" Kuppuswany(٢٧) ذلك بارتباط هذه المكانة بالإحباط المتكرر والحرمان والتعارض بين المتاح والمأمول، وأن معايشة الفرد لهذا يجعله يشعر بحرمانه من حقه في حياة كريمة، مما يزيد من احتمالات إصداره سلوك عنيف، حتى ولم تدفع إليه عقبات داخلية أو خارجية، وتدعم الإحصاءات الأمريكية هذا التفسير، حيث تبين أنه فيما بين الأفراد منخفضي المكانة الاقتصادية الاجتماعية، كان عدد مرتكبي جرائم العنف من السود ضعف عددهم من البيض، فيما يتساويان إذا كانوا ينتمون إلى الطبقة المتوسطة، وقد تلعب الثقافة الفرعية دورها الأساسي في ظهور هذا الفارق، وما زيادة جرائم العنف في الغرب الأمريكي مقارنة بالشمال إلا دليل على ذلك(٢٨) .

(٢) وينفي "ويلسون" (٢٩) علاقة الجريمة في المجتمع الأمريكي بالفقر، ودليله أن جرائم القتل عام ١٩٣٦ (أي بعد الكساد الكبير) كانت بمعدل ٦,٩ لكل ألف نسمة، وهي أقل من معدلها عام ١٩٧٠ (عصر ازدهار الاقتصاد الأمريكي) الذي أصبح ٩,٤ لكل ألف، وكذلك زادت معدلات جرائم السرقة من ٥٩,٤ في الآلف إلى ١٣١ في الآلف، مرد هذه الزيادة في رأيه. هو ضعف وسائل الضبط الاجتماعي الناتج عن

* معظم جرائم العنف تصدر عن ذكور، ومع ذلك يتزايد أعداد الأمريكيات المتهمات في جرائم القتل والسطو المسلح بمعدل يفوق معدل الزيادة في أعداد الذكور (٣٠) ويرجع هذا التزايد إلى تغير دور المرأة في المجتمع المعاصر، بالإضافة إلى تشجيع الثقافة الأمريكية – في رأي جونز، لعنف الإناث إذ ينظر المجتمع الأمريكي للمرأة غير العنيفة على أنها مجنونة لا تتصرف بحكمة(٣١) .

التغيرات الاجتماعية، وليس الفقر، وتؤيده "بروين" [٣٢] في ذلك، إذ تعتبر ارتباط جرائم القتل ارتباطا سلبيا بمستوى التعليم أو المستوى الاقتصادي الاجتماعي وهماً، إذ تشيع جرائم القتل بين أفراد الطبقة الوسطى، وفي كل المستويات التعليمية والاقتصادية الاجتماعية بنفس الدرجة .

(٣) وتؤكد نتائج البحوث وجود ارتباط قوي بين البيئة المنزلية السلبية (صراع الوالدين وخلافهم المستمر وعدوانهم المتبادل) وكون الأبناء قتلة عندما يكبرون، بل واعتمادهم أسلوب العنف في تنفيذ القتل فبإجراء مقارنة بين القاتلات اللاتي استخدمن السم والقاتلات اللاتي استخدمن أساليب عنيفة، تبين أن أفراد الفئة الأخيرة قد عوملن - بشكل متكرر - بقسوة، وخصوصا في مرحلة الطفولة [٣٣] وتؤكد بحوث "لويس" Lewis وزملائه [٣٤] ذلك، فمعظم جرائم العنف يرتكبها أفراد، أما أهملوا، أو تعرضوا بشكل متكرر لمعاملة بدنية سيئة (كالضرب المبرح) في مرحلة الطفولة، كما أن ٧٥% من الجانحين المتسمين بالعنف، كانوا ضحايا اعتداء إبائهم عليهم أو اعتداء متبادل بين الوالدين، إذ يرتبط العنف المتبادل بين الآباء بعدوانية الأبناء، فالبحوث تظهر أن مشاهدة العنف المتبادل تجعل الفرد أكثر اعتمادا عليه كأسلوب لفض الخلاف مع الآخرين، وأن تأثير المشاهدة هذه يتفوق على تأثير سوء معاملة الآباء لأبنائهم، وعلى تأثير ضغوط الحياة ومصاعبها [٣٥] ويمكن تفسير ذلك ب: أما أن الآباء يقدمون النموذج الذي يقتدي به الأبناء في تفاعلهم مع الآخرين مستقبلا، أو أن الأبناء يشعرون بالإحباط والاضطهاد وتتولد لديهم مشاعر الخوف والتوتر، مما يجعلهم أقل تحكما في سلوكهم الاندفاعي، أو أنهم يعتادون العنف وتصبح أفعاله مألوفة لهم .

(٤) وتعد الآلفة بأفعال العنف وهادياته عامل مهم لتورط الفرد في جرائم القتل إذ تؤكد نتائج بحوث أثر رؤية السلاح أن مجرد كونه في متناول يد الفرد يستثير – أي السلاح – لديه أفعال عدوانية اندفاعية ويتوقف هذا على انفعال الفرد، ودلالة السلاح بالنسبة له، أي أن السلاح يلعب دور الهادي Cue (علامة) لفعل القتل وللعنف[٣٦] وهذا الدور يأتي نتيجة لخبرات تعلم سابقة، فوجود السلاح يزيد من احتمالات إصدار الفرد الغاضب استجابة عنيفة، وذلك إذا تعلم ربط هذا السلاح بالعنف، وهكذا يصبح علامة أو منبه أولى لشبكة من التداعيات المعرفية الممهدة لارتكاب القتل والمبررة له.

ثالثا : المحددات النفسية لارتكاب الفرد جرائم القتل

مما سبق يتضح أن المحددات البيئية لجرائم العنف، ومن بينها القتل تمارس دورها من خلال متغيرات نفسية، بعضها عمليات (كاكتساب الخبرة أو التعلم) وبعضها خصال مزاجية، وتقوم هذه المتغيرات بدور وسيطي بين وجهتي النظر السابقتين، أي المحددات الحيوية والبيئية لجرائم العنف بحيث يتكاملان عند تفسير تورط فرد بعينه في لحظة محددة في إحدى هذه الجرائم، ويلخص "سكوت"[٣٧]هذا التفسير بقوله: أنه لا توجد أدلة فسيولوجية لغريزة العدوان، وأن كان الإنسان يولد ولديه وسع Capacity معين للعدوان فالبعض استعدادهم للعدوان، محدود، والبعض الآخر استعدادهم أكبر، وتتولى الخبرات المتعلمة تعديله، أو على حد قول "بروكوفيتز" [٣٨] يتعلم الإنسان الاستجابة بشكل عدواني إذ كان مهيأ فسيولوجيا لذلك.

وهكذا، يقدم علم النفس تفسيرا متكاملا لتورط فرد بعينه في جريمة عنف، وحجر الزاوية في هذا التفسير هو ربط العدوان بالإحباط، أو بتعرض الفرد لأحداث غير سارة عموما، وكان " جون دولارد – وزملاؤه "دوب" و "ميللر" – أول من أشاروا إلى هذه العلاقة سنة ١٩٣٩، معتبرين أن أي إحباط لا بد وأن يؤدي إلى عدوان ، وأن أي استجابة عدوانية ولا بد وأن يرجع سببها إلى خبرة سابقة محبطة وينتج الإحباط إذا فشل الفرد في أداء مهمة ما حيث يتوقع نجاحا . أو إذا خسر مكافأة ينتظر الحصول عليها، أو تعرض لإهانة، ويعتقد الباحثون أن الفشل حيث النجاح متوقع، أكثر مصادر الإحباط إثارة لاستجابات عنيفة (٣٩) ويعتقد "بروكوفيتز" (٤٠) أن الإحباط جزء من ظاهرة أعم هي الأحداث غير السارة وما تنتجه من خبرات سلبية، فهي المصدر الأساسي لسرعة الاستثارة والهياج والغضب، وما يصاحبها من أفعال عنف، فالإحباط خبرة مؤلمة تستثير مشاعر سلبية وأفعال مندفعة، وتشير البحوث إلى أن الألم البدني حدث غير سار كذلك يولد بالتالي سلوكا عدوانيا، كما أن سماع الفرد لأراء تعارض رأيه، خبرة غير سارة أيضا، تزيد من عدائه لصاحب الرأي المعارض، وفي ضوء ذلك يمكن تفسير العنف المتبادل أو الاغتيالات بين أعضاء جماعات سياسية أو دينية أو عرقية أو .. إلخ مختلفة، كما يمكن تفسير الارتباط المشار إليه أنفا بين جرائم العنف وكل من: ظروف بيئية طبيعية غير مريحة كارتفاع درجة حرارة الجو وارتفاع كثافة المكان سكانيا وانخفاض المكانة الاقتصادية الاجتماعية أو الفقر.

وتشكك البيانات الحديثة في عمومية علاقة العدوان بالإحباط أو الخبرة المؤلمة، فليس كل عدوان ناتج عن إحباط، ودليل ذلك ارتكاب الجريمة المنظمة بواسطة قاتل أجير، كما أن رد كل فرد لموقف محبط لا

يكون عنفا دائما، فقد يكون اعتمادا على المخدرات لدى البعض، أو انسحابا من الموقف لدي آخرين، أو شكوى من أعراض نفسجسمية لدى فريق ثالث[٤١]، والسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي العوامل التي تجعل الفرد يستجيب لموقف محبط بارتكاب جريمة قتل دون أن يلجأ لأحدى الاستجابات سالفة الذكر ؟

تتمثل الإجابة في كون التعرض لخبرة مؤلمة موقف مشقة تستثير خوف الفرد، والخوف يتبعه غضب والأشياء المخيفة مصدر تهديد يؤدي إلى زيادة التوتر والأستنفار العصبي، وتشكل مشاعر الخوف والغضب والتوتر مع الخبرة المؤلمة ومترتباتها اتجاهات عدائية نحو المتسبب في كل هذا[٤٢]، أي مصدر التهديد وقد يترجم الفرد هذه الاتجاهات إلى فعل عنيف يصل إلى درجة القتل، وقد لا يترجمها ، إذ يتوقف ذلك على توفر الشروط التالية : -

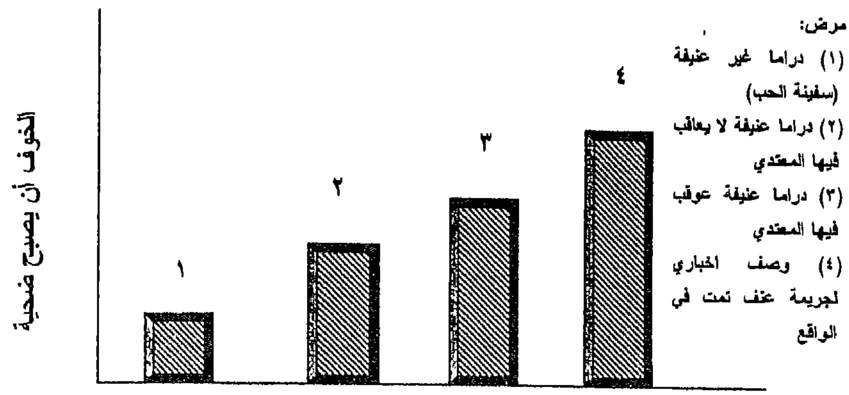
أ - الربط بين سلوك العنف ومصدر المشقة من خلال عمليات تعلم، إذ تبين أن:

١- الأطفال يتعلمون العدوان من خلال مشاهدة اعتداء الآخرين الأكبر سنا، فقد قارن "بانورا" Bandura وزملاؤه[٤٣] بين خمس مجموعات من الأطفال تشاهد المجموعة الأولى راشد يهاجم بعنف لعبة بلاستيكية تسمى Bobo doll لمدة عشر دقائق وتشاهد المجموعة الثانية فيلما للموقف الذي شاهدته المجموعة الأولى، أما المجموعة الثالثة فتشاهد فيلم كرتون يعبر عن نفس الموقف، وتشاهد المجموعة الرابعة راشد يوبخ - وبدون عنف - الدمية، أما المجموعة الخامسة، فلا تشاهد أي نموذج لسلوك عدواني، أي مجموعة ضابطة ، وبعد المشاهدة، مر كل طفل من المجموعات الخمس بموقف محبط، ثم ترك بمفرده بالحجرة مع الدمية

البلاستيكية ومسدس أسود، ولعب أخرى لا ترتبط بالعدوان. وذلك لمدة عشرين دقيقة، مع ملاحظة سلوكه.وتكشف الملاحظة أن أفراد المجموعات الثلاث الأولى قلدت وبشكل تام، بما في ذلك الألفاظ التي استخدمت والإيماءات التي صدرت، السلوك العدواني الذي أصدره الراشد، ولا توجد فروق بينهم، بمعني أنه بغض النظر عن كون النموذج حيا أو مصورا في فيلم أو يعبر عنه فيلم كارتون، فقد قلده الأطفال، بينما لم يصدر أفراد المجموعتين الرابعة والخامسة أي سلوك عنيف مع أنهم أحبطوا، مما يؤكد أن العدوان سلوك متعلم، ويوضح "تيرنر" Turner وآخرون[٤٤] أن عمليات اجتماعية تحدد ما إذا كان أشخاص بعينهم ينمون العدوان عبر خبرات مباشرة أو غير مباشرة كأسلوب معتاد لمواجهة أحداث الحياة .

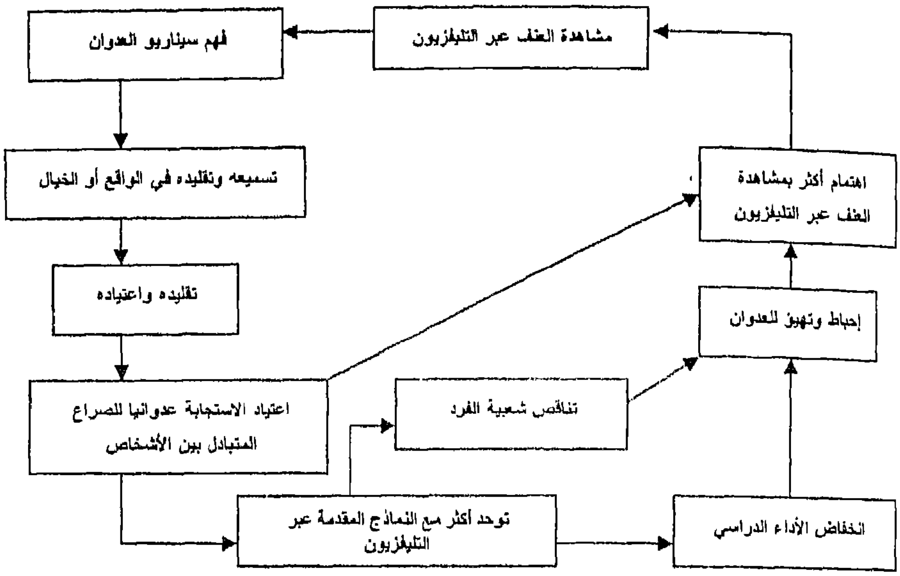
٢- وتكشف التجارب التي أجريت حديثاً- عرض لها "بارون،[٤٥] وزملاؤه أن العدوان الواقعي الحي أكثر تأثيرا من العدوان المصور على شرائط الفيديو كما في الأخبار المتلفزة والأفلام الدرامية، وأن مصدر العدوان الأكثر جاذبية والذي يدرك المتلقي أنه يشبهه، أكثر تأثيرا، أي يقلده بدرجة أكبر، بالمقارنة بمصدر أقل شبها بالمتلقي أو أقل جاذبية. ويتمثل هذا التأثير في اكتساب سيناريو الفعل العدواني، أي تتابع خطواته، وتعلم فنونه، والتعرف على مترتباته ومزاياه، واكتساب الثقة بمعرفة مواطن قوة الفرد ومواطن ضعف الآخر، ويضيف "بركوفيتز"[٤٦] أن اكتساب هذا السيناريو Script يمكن الفرد من تحديد أي المهددات تستوجب استجابة عدوانية، وأيها لا يتطلب ذلك، وإلى أي مدى يؤدي سلوكه العدواني إلى أبعاد مصدر الإحباط أو التهديد والتغلب عليه .

٣ - ويتم هذا الاكتساب من خلال مشاهدة أفراد يسلكون بشكل عدواني، وهكذا يمكن فهم ارتباط سوء المعاملة الوالدية بعدوانية الأطفال، وبزيادة احتمالات تورطهم في جرائم قتل مستقبلا، أي وهم أكبر سنا، كذلك يمكن فهم كون ضحية محاولة القتل يصبح قاتلاً فيما بعد[٤٧]، وفهم - أيضا - كون أهل المدن الكبيرة أكثر تورطا في جرائم القتل بالمقارنة بأهل المدن الصغيرة أو الريف، لأنهم أكثر تعرضا لخبرات عدوانية، سواء بشكل مباشر كرؤية أشخاص عدوانيين، أو بشكل غير مباشر، لأنهم أكثر اقتناء لأجهزة السينما والتليفزيون، التي تقدم وبشكل منظم وقائع العنف، وتكشف نتائج أحدي الدراسات المعملية - عرضها "بارون" وزملاؤه - [٤٨]، أن المشاهدة المتكررة لأفعال عدوانية - حية أو مصورة - تزيد من خوف المتلقي أن يصبح ضحية لمثل هذه المواقف، ويؤكد "بروكوفيتز"،[٤٩] أن الخوف يزيد من درجة العداء ومن احتمالات اللجوء إلى قتل مصدر الخوف، حتى أن البعض يعزو لجوء الإناث الهاربات من سوء معاملة والديهن أو أزواجهن لقتل من أساء معاملتهن إلى الخوف، الخوف أن يجدها والدها - أو زوجها ويعاقبها على هجرها غير المبرر من وجهة نظره[٥٠]؛ فغضبهن من الضحية وخوفهن من رد فعله وراء الأقدام على قتله ٠



شكل يوضح علاقة مشاهدة العنف بزيادة خوف المتلقي أن يصبح ضحية

٤ – وقد أكدت التجارب – عرض لها " هاكسمان، Hucsmann "وارن" Eron (١٩٨٦) [٥٠١]– أن مشاهدة الأطفال لأفلام العنف عير التليفزيون، والتي تعرض بشكل منظم ويشاهدونها لعدة سنوات من عمرهم، تيسر اكتسابهم لسيناريو السلوك العدواني، الذي يتم ترسيخه من خلال تسميعهم المتكرر له، سواء أثناء المحاورة مع الأقران، أو في خيالات Rehearsal أحلام اليقظة ويجعله هذا التسميع سهل الاستعادة عند التعرض لموقف محبط، أي ييسر تحوله من فكرة إلى عادة، لذا توجد علاقة قوية بين كثافة مشاهدة الطفل لأفلام العنف وسلوكه العدواني، وكذلك بين عدوانيته وهو طفل بتورطه في جرائم عنف وهو مراهق أو راشد، وإذا اعتاد الفرد العدوان، انخفض أداؤه الدراسي أو المهني، وتناقصت مهاراته الاجتماعية، وتكرر – وبالتالي – تعرضه لمواقف محبطة، تستثير بدورها غضبه، وما يتبعه من عدوان، كما يوضح الشكل التالي : –



وهكذا يدور الفرد في حلقة مشاهدة العنف، فالتوحد مع مقدمه وتقليده، مما يؤدي إلى انخفاض أدائه أكاديميا أو مهنيا واجتماعيا، فيتكرر إحباطه، ويزيد عدوانه، فيقل تقبل الآخرين له، مما يزيد من عزلته، نتيجة ذلك، يلجأ إلى مزيد من المشاهدة لبرامج العنف، ويظل يدور في هذا الحلقة.

٥- تؤكد التجارب المعملية-عرض لها "بارون" وآخرون (٥٢) و"بركوفيتز" (٥٣) أن اكتساب سيناريو العدوان يتطلب فهمه وتسميعه واستعادته، حتى يصبح مألوفا ومعتادا، ومن ثم يسهل تقليده، ويتطلب هذا التقليد أن يتصرف الفرد بشكل انفعالي، ولا يعتمد على معالجة منطقية ومتعمقة للموقف، وهكذا يكون الأفراد الأسرع غضبا أكثر استجابة لخبرات العدوان المعروضة عليهم (من قبل آخرين أو وسائل أعلام، بالمقارنة بأفراد أقل غضبا، وذلك لأن الأسرع غضبا أكثر إثارة

arousal انفعاليا، ولهذه الإثارة أساسها الفسيولوجي والعضوي، إلا أن الفرد يتعلم التحكم في مستواها • ويحدد مستوى الإثارة مدى انتباه الفرد لمصدر الإحباط أو التهديد، وإدراك نياته وفهمها، وهما عمليتان أساسيتان لاتخاذ قرار الاعتداء عليه أم لا• وكلتاهما تحددان مدى إدراك الفرد لمترتبات قراره وتبريره، اللتان هما عمليتان مهمتان للأقدام على تنفيذه• والتبرير يعتمد على عزو Attribution تصرفات لاحقة إلى أسباب مثل حالة الفرد المزاجية السلبية – شخص ما سيء النية يهوي الإعاقة، عقار معين •• الخ– ليست مسئولة عن تصرفات الفرد، أي أن هناك عزو خاطئ •

وكل هذه العمليات تؤثر في توظيف الفرد لاستعداده الحيوي للعنف، الذي يتأثر كذلك بخصال شخصية القاتل وخصال شخصية الضحية، وخصائص السياق البيئي والاجتماعي الذي يجمعهما معا في موقف، مما يشير إلى أن هذه العمليات – المشار إليها أنفا – تتوسط بين المحددات الحيوية والبيئية لجرائم العنف، وتعد آليات التفاعل المتبادل بينهما •

ب – خصال شخصية القاتل :

وتؤثر في اكتسابه لفنون العدوان، وإدراكه لمصدر الإحباط، وربطه بمواقف بعينها وباستجابات معينة ، مثال :

(١) اللاتفرد • deindividuation أي تناقص وسع تفكير الفرد في ذاته كشخص له كيانه المتفرد، وخصوصا فيما يصل بعلاقته بمعايير السلوك الاجتماعية والأخلاقية، وفي هذه الحالة، يقل اعتماده على اتجاهاته ومعتقداته، يسهل انقياده، مما يجعله أكثر استجابة لنماذج العنف التي يتعرض لها، وأكثر تأثرا بها وتقليداً لها، ويؤثر تعاطي المخدرات، وكذلك

الظروف البيئية الغير مريحة، في احتمالات تورط الفرد في جرائم عنف، من خلال تأثيرها في إحساس الفرد باللاتفرد [٥٤].

(٢) ويشير "أيزنك" إلى وجود استعداد للإجرام، يتمثل في ارتفاع درجة الفرد على مقاييس العصابية- والانبساط والذهانية، ويجعل المجرمين يتميزون بخصائص نفسية معينة تميز أسلوبهم في اكتساب العادات الأقدامية أو التجنبية، وتؤكد بعض البحوث أن هذا الاستعداد لا يختلف باختلاف نوع الجريمة التي يرتكبها الفرد، فالمجرم عموما، بغض النظر عن نوع جريمته غير قادر على تبني نظام للتحكم في الذات، مع ضعف القدرة على تجنب التأثر بالمواقف العابرة والامتناع عن الانسياق وراء الاستثارات المتواترة، بالإضافة إلى استعداد مرضي يتمثل في القابلية للإيحاء، والميل للعصابية والهستيريا والتقلب الوجداني، مما يؤكد عدم نضج الشخصية، وضعف القدرة على الاتزان الواجدني [٥٥].

(٣) يضاف إلى النقطة السابقة، معاناة الفرد لمظاهر معينة من الاضطراب النفسي، فالمصاب بفصام الاضطهاد (البارانويا) أكثر تورطا في جرائم القتل لاعتقاده أن الآخرين يضطهدونه ، وكذلك الذي يعاني من اكتئاب عصابي أو تفاعلي، لأنه يجعل الظروف المحيطة به مسئولة عن معاناته، ويقتل أحباءه – قبل أن ينتحر – لحمايتهم وتخليصهم من تلك الظروف غير المرغوبة، كذلك مرضى "الهوس- الاكتئاب" الذين يعانون من نوبات انفعالية متقلبة تدفعهم إلى الاعتداء على الآخرين[٥٦]، وتؤكد الإحصاءات الأمريكية أن نسبة كبيرة من المجرمين يعانون الاضطراب النفسي، فثلث المساجين ذوي شخصيات مريضة Pathology، وذلك لأنهم نشأوا في بيوت تعاني الصراع والنزاع والانفصال أو الطلاق [٥٧].

(٤) الحكم النمطي Stereotyping أي التصنيف المسبق للآخر – المستهدف بالقتل – في جماعة أو فئة نمطية معينة من خلال عزو خصائص معينة إليه، وتعميم هذه العزو على كل فرد يشبهه ولو بدرجة طفيفة، ويتأثر هذا الحكم النمطي ببناء شخصية القائم به ومتغيراته الديموجرافية، ويتم اكتسابه من خلال خبرات التفاعل المباشر مع أفراد تلك الجماعة [٥٨] وتؤثر وسائل الإعلام في سلوك العنف من هذا الجانب، فهي تقدم شخصيات نمطية يحتذيها الفرد، كما تقدم معلومات تسهم في تكوين أحكام نمطية لأشخاص بعينهم مما يجعلهم هدفا للاعتداء .

جـ - ظروف بيئية تيسر القتل :

وتؤدي إلى قيام الفرد بالربط بين مواقف – أو أشخاص – معينة والسلوك العنيف والقتل أحد صوره، من هذه الظروف: شيوع الاستجابات العدوانية في البيئة الأسرية، وشدة الضوضاء أو الإزعاج، وتعاطي المخدرات أو المسكرات وخشونة ظروف المعيشة أو شدتها والكوارث أو المصائب . وفي ضوء هذه الظروف ترتبط إساءة معاملة الأطفال بسلوكهم العدواني، كما يرتبط التاريخ الإجرامي للأسرة بتورط صغارها في جرائم قتل عندما يكبرون، ويرتبط – أيضا – الفقر بجرائم العنف، وكذلك يرتبط بها تعرض الفرد للمصائب، وخصوصا إذا كان هذا الفرد مهمشا اجتماعيا، فهذا التهميش الاجتماعي يزيد توتره النفسي[٥٩]، ويدفعه هذا التوتر إلى الاستجابة بشكل اندفاعي لأية علامة (إشارة) عدائية، كما يتضافر التوتر الناتج عن التهميش مع التوتر الناتج عن معايشة الكوارث أو الصدمات، ويقدم طاقة مضاعفة وضاغطة للاستجابة لأية استثاره بشكل عنيف وربما بالقتل ويمارس التهميش الاجتماعي دوره في تورط الفرد في جرائم القتل من خلال

ترسيخ اتجاهات سلبية نحو فئات أخرى من المجتمع، فهذه الاتجاهات السلبية تجعل أفراد من تلك الفئات هدفا للعداء ٠

مما سبق، يتضح أن سلوك القتل – والاستجابات العنيفة إجمالا – ليس فقط نتاج استعداد يولد الفرد به، كالعوامل الحيوية – صبغيات وهومونات – التي تهيئه للعدوان، أو نتاج وسع نفسي معين، كإتسام القاتل بخصال معينة أو معاناته من خلل في بناء الشخصية، كما أنه – أي القتل – ليس نتيجة الحرمان وظلف العيش والظروف المحيطة، وما يترتب على ذلك من تعلم فنون العدوان وممارسته، وإنما القتل محصلة التفاعل بين كل هذه العوامل، فالشخص الذي يقتل، هو شخص مستعد فسيولوجيا لذلك، وتهيئه خصال شخصيته لأن يقتل، إذ هو سريع الغضب سهل الاستثارة، وسعه ضيق لإدراك المنبهات التي حوله، وقدراته محدودة للتمييز بينها وإدراك مترتبات (آثار) الاستجابة بشكل ما لكل منها، وظروف معيشته خشنة وشاقة تخلق فرصا للاحتكاك والتشاحن، مما يدفعه لاكتساب العدوان أسلوبا للتعامل ٠ كل هذا يزيد احتمالات لجوئه إلى القتل كاستجابة لأدنى استثاره يتعرض لها، وبالتالي تقل هذه الاحتمالات إذا غاب واحد أو أكثر من العوامل السابقة، وكلما زاد عدد العوامل المغيبة كلما قلت احتمالات صدور سلوك عنيف، وعلى هيئات المجتمع ومؤسساته إدراك ذلك ٠

الهوامش

(١) جون لويس

١٩٨٦ الإنسان ذلك الكائن الفريد . (ترجمة : صالح جواد كاظم) الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ١٠٧ .

[2] R . Barron, et al, (1991) Social psychology . Florida : Holt, Rinchatrt & winstin , Inc . P. 313 .

[3] L . Berkowitz (1989) A Survey of social psychology. New York: Holt, Rinehar Winston . pp . 308 – 309

(٤) أنظر

P . Jacobs: et al. (1965) Aggressive behavior, Mental – normality and the XYY male . Nature , 208 : 1351 – 1352 .

H . Witken , et al . (1979) Crimimality in XYY and XXY men. Science, 193 . (4233) : 546 – 555 .

(٥) أنظر

R . Barron , et al. (1991) op . cit , p .316 ;

K . Ellison & R.Buckhout (1981) Psychology and Criminal Justice. New York : Harper & Row pub p . 8 .

(٦) انظر :

[7]K . Ellison & R . Buckhout, op , cit .

L . Rees (1973) Constitional Factors and abnormal behavior . (pp. 487 – 539) in: Eysenck (Ed.) Handbook of abnormal behavior. Sandior ; R . Knapp pub .

[8] P . Broodhust (1973) Aniaml Studies bearing on abnormal behavior (pp . 721 – 754) in : H . Eysenck (أنظر : ٧)

[9] C. Bartol (1980) Criminal behavior : A Psychological approach. New York : Prentice – Hall . p . 196 .

[10] S . Singh & A. Singh (1980) The relation between premenstrual tension and murder . Abstracts on Criminology and penology , 20 (1) : 42 .

(١١) كاترينا دالتون (١٩٦٢) الجريمة والطمث (ترجمة : انطوانيت دانيال) المجلة الجنائية القومية . ٥ (٣) : ٤٥٧ – ٤٥٨ .

(١٢) أحمد عكاشة (١٩٧٢) الطب النفسي المعاصر . القاهرة . دار المعارف . ص ١٧٤ ص١٧٥

(١٣) مجدي محمود، حمدي مكاوي (١٩٨٩) خصائص مرتكبي السلوك الإجرامي: دراسة سيكوبيولوجية . علم النفس، ٩: ١٩ – ٢٨ .

[14] M. Saueif, et al. (1980) The Egyotian study of chronic cannabis consumption . Cairo : NCSCR . pp . 141 . 180 .

[١٥] أنظر

J. Coleman, et al . (1980) Abnormal psychology and modern life . Illinois Scott, Foresman – pp . 321 , 348 . 350 .

D. Kandel, et al. (1978) (Eds) Lengitudinal research on dryg use : empirical finding and method logical issues . NewYork: wiley & Sons ltd .

[١٦] جون لويس / مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

[17] Berkowitz , op . cit . p . 317 .

[١٨] محمد عثمان نجاتي (١٩٧٠) ملامح جريمة القتل، القاهرة، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، ص ٦٤ .

[١٩] حسن المرصفاوي (١٩٧٧) البيئة والجريمة . عالم الفكر ، ٧ : ٩٤٥ – ٩٩٨ .

[٢٠] محمد عثمان نجاتي، مرجع سبق ذكره ، ص ٥٩ ، ص ٦٢ .

[٢١] م . شو (١٩٨٦) ديناميات الجماعة (ترجمة: مصري حنورة، محي الدين أحمد حسين)، القاهرة : دار المعارف . ص ١٨٧ .

[22] J . Wilson (1975) Thinking about crime . Newyork : Basic books , P . 26 .

[٢٣] ممدوحة سلامة (١٩٩٠) علاقة حجم الأسرة بالاعتمادية والعدوانية لدى الأطفال،علم النفس، ١٤ : ٣٤ – ٤٣ .

[٢٤] م . شو مرجع سبق ذكره ، ص ١٩٤ .

[25] J . Coleman , et al , op . cit , p . 295 .
[26] Ellison & Buckhout , op . cit . p . 7
[27] B . Kuppuswamy (1975) Elements of Social psychology . Delhi : Vikas pub . House . pp . 168 – 169 .
[28] J . Coleman , et al . op . cit p . 295
[29] J . Eilson & Buckbout . op . cit pp . 23 , 35 , 42 . 80 .
[30] J . Coleman , et al , op . cit . p . 296 .
[31] A . Brwne . (1987) When battered women kill . New York : The Free Press, P. 176 .

[٣٢] المرجع السابق ، ص ٣

[33] E. Nou (1974) Female homicide and Suicide. Abastracts on Criminology & Penology, 14 (2) : 180 .

[34] D. Lewis : et al (1989) Child abuse , delinquency any violent criminality . (pp. 707 – 720)

In : D. Cicchetti & V. Carlson (Eds) child mal – Treatment : Theory and research on the causes and consequences of child abuse and neglect.

[35] A . Browne . op , cit , p . 32

[36] L . Berkowitz op , cit , pp . 322 – 323 .

[37] J . Scott (1958) Aggression . Chicago univ . Press . P . 62 .

[38] L. Berkowitz op . cit , p . 309 .

[39] Barron , et al . op cit p . 321 .

[40] Berkowitz op , cit , pp . 315 – 320 .

[41] Barron , et al . op . cit , P . 320 .

[42] Coleman , et al . op . cit , p . 133 .

[43] A . Bandura: et al . (1963) Imitation of film mediated aggressive models . J . Abno . Soc . Psychol ., 66 : 3 – 11 .

[44] C. Turner : et al (1981) A Social psychological analysis of violent behavior.

In: R. Stuatr (ed.) Vident behavior ; Social learning approaches to prediction , management and treatment. Newyork : Brunner/ Mazel .

[45] Barron , et al . op cit pp . 323 – 325 .

[46] Berkowitz op . cit p . 314 .

[47] Lewis, et al . op . cit

[48] Barron , et al op . cit p . 328 .

[49] Berkowitz op, cit p . 317 .

[50] A Browne . op . ct . p . 168 .

[51] L. Huesmann & L . Eron (1986) Television and the aggressive child : Across national Camparison . Hillsdale , NJ : Erlbaum .

[52] Barron , et al op cit , pp . 325 – 340 .

[53] Berkowitz , op cit pp . 324 – 325 .

[54] Coleman , et al op cit p . 164 ; Barron , et al . op cit p . 336 .

[٥٥] مصري حنورة (١٩٨٢) الخصائص الشخصية لدى مجموعة من مرتكبي جريمة القتل العمد ومجموعة من مرتكبي جرائم اللاعنف بحوث في السلوك والشخصية (تحرير: أحمد عبد الخالق) ٢: ١٨٧ – ٢١٠(القاهرة: دار المعارف) ،

[56] C . Harre & B. Koller – Westergren (1986) Depression and criminality . psychopathology . 19 (2) : 215 – 219 .

[57] Coleman , et al , op cit p . 299 .

[٥٨] أيفون ميليكان ، حسين الدريني (١٩٨٥) دراسة استطلاعية في بعدي التعقد والاتفاق في التعميمات النمطية (ص٢٨١ – ٢٩٤) في لويس مليكة (محرر) قراءات في علم النفس الاجتماعي، المجلد الرابع، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ،

[٥٩] مصطفي سويف (١٩٦٨) التطوف كأسلوب للاستجابة، القاهرة: الانجلو المصرية، ص ٤١

-٦-

الدراسة النفسية لشاهد العيان *

"لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض فإنما أقض بنحو ما أسمع"

حديث شريف

مقدمة :

أوضح "هول" T . Hall أن من خصائص السلوك الإجرامي، وجوب النص على كل من : –

أ – ما هو فعل مجرّم .   ب – ما عقوبة ارتكاب هذا الفعل .

والشريعة الإسلامية تقرر أنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص (١)، وأنه لا جريمة تمر بدون عقاب، فلابد من معاقبة المجرم، فالعقاب حق عام للمجتمع يحفظ سلامته وأمنه "ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب" (البقرة: ١٧٩)، والعقاب لا يكون إلا بحكم قضائي، هذا الحكم يصدره قاض، ليس بناء على قناعته النظرية أو أهوائه (٢)، وإنما يبني القاضي حكمه على أدلة عملية ومنطقية، أي بينة (٣)، وكما يذكر ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ص أنه قال "لو يعطي الناس بدعواهم لأدعي أناس دماء رجال وأموالهم، ولكن البينة على من ادعي واليمين على من أنكر" (متفق عليه)(٤) وتأتي الشهادة في مقدمة الإثبات، فهي حجة شرعية ، أي تظهر الحق وتبينه (٥) .

ولشاهد العيان دوره الخطير في مسار العدالة، فيقدر دقته بقدر ما تكون الأحكام القضائية دقيقة وعادلة، خاصة إذا كان هو دليل الإدانة – أو

---

*نشر في مجلة "المسلم المعاصر" ، ٢٠٠١ ، ٩٩ : ١٤٩ – ١٦٥ .

التبرئة – الوحيد ، وكثيراً ما يكون كذلك فعلى سبيل المثال، أصدرت المحاكم الأمريكية عام ١٩٨٧ وحده ٧٨ ألف حكم قضائي استناداً إلى ما قرره شهود عيان فقط (٦)، وهكذا تتوقف صحة هذه الأحكام وعدالتها على دقة الشهود وكفاءتهم من هنا تأتي ضرورة زيادة هذه الدقة وهذه الكفاءة، ولعلم النفس دور بارز في تحقيق هذه الزيادة، إذ تقوم الشهادة أساساً على جوانب نفسية بحته كالانتباه لجريمة ما تحدث وإدراك وقائعها، وتخزينها في الذاكرة، ثم استعادتها أثناء المحاكمة (٧) .

وإسهام علم النفس في هذا المجال ليس جديداً، ففي عام ١٨٩٣ حاول "كاتل" تقييم ما يدلي به شاهد العيان ، وتأثير محاولته الخلط وإصراره على ذلك، وبين الباحث أن بأمكان المحامي – أو غيره – توجيه أسئلة تشكك الشاهد العدل في شهادته وتظهرها وكأنها متناقضة، أي تأثير الإيحاء والعناد في دقة الشهادة وفي عام ١٨٩٦ اهتم عالم النفس الألماني "توتزنج" بتأثير الإعلام على دقة الشهادة، وفي عام ١٩٠١ حاول "شتيرن" كشف تأثير حالة الشاهد الانفعالية على كفاءة استرجاعه لما رآه من وقائع جريمة ما، وفي عام ١٩٠٦ أصدر "شتيرن" نفسه مجلة علمية تسمى"علم النفس والشهادة القضائية" تناولت المقالات التي نشرت فيها بالبحث:- دور الأسئلة الإيحائية في تحريف الشهادة – ودور الاتجاهات والأفكار المسبقة في إنحياز الشاهد – والعوامل التي تقلل كفاءة الشهود من الأطفال والمسنين. وفي عام ١٩٠٨ نشر "هيجو مونستربرج" كتابه "على منصة الشهادة" أكد فيه أهمية الاستفادة من البحوث النفسية في مجال الشهادة، وفي عام ١٩١٤ نشر "مونستربرج" أيضاً مقالاً عن تأثير الجوانب النفسية للمحلفين على دقة قرارهم بالإدانة (٨)، واستمر التطور في هذا المجال حتى خصص له علم النفس أحد فروعه، وهو "علم نفس الأدلة القضائية" Forensic Psychology

وهو فرع قدمه علماء النفس الإنجليز ويهتم بجمع الأدلة الجنائية وفحصها وتقويمها لأغراض قضائية ، حيث يشير اللفظ اللاتيني Forensic إلى وظائف المحكمة لدى الرومان – والأوربيين من بعدهم – وهي مناقشة الدليل وتمييزه [٩].

ولأهمية الشهادة في إثبات الحقوق وحفظ سلامة المجتمع، جعلها الله فرضاً على كل مسلم ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ (الطلاق: ٢)، ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله، وما الله بغافل عما تعملون﴾ (البقرة: ١٤٠)، وجعل الإقدام عليها مستحباً فعن ابن خالد الجهني أن النبي ص قال " ألا أخبركم بخير الشهداء، هو الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها " (وراه مسلم)، ونهي أيضا عن التردد فيها أو الامتناع عنها، إذ يروي عمران بن حصين عن رسول الله ص قوله" .. ثم يكون قوم يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون ..."(متفق عليه)[١٠]

والشهادة لغة مشتقة من لفظ شهد الفرد أي بين ما يعلمه وأظهره ، وقد ورد في القرآن الكريم بمعان ثلاثة :

أ – حضر "فمن شهد منكم الشهر فليصمه"، "وذلك يوم مشهود" أي محضور يحضره أهل السماء والأرض .

ب – أخبر، فأصل الشهادة الإخبار بما يعلم الفرد .

جـ – علم "شهد الله أن لا إله إلا هو"، والله على كل شيء شهيد " .

والشهيد من أسماء الله الحسني بمعنى الحاضر الأمين في شهادته ، والعليم الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء [١١] .

ويقول الجوهري: الشهادة خبر قاطع، والشاهد حامل الشهادة ومؤديها لأنه مشاهد لما غاب عن غيره [١٢] . وكل هذه المعاني تتوفر في

شاهد العيان، حيث الشهادة خبر يختص بمعين (فرد أو واقعة) لا يتعداه إلى غيره، ويترتب على هذا الخبر حكم وفصل قضاء ، ويشترط فيه : -

أ - العدد، أي أن يتفق أكثر من فرد في رواية الخبر، احتياطاً لاحتمال أن تكون هناك عداوة باطنة من شاهد على مدعي عليه، لهذا لا تقبل شهادة من تثبت عداوته وحقده بنص حديث شريف رواه ابن عمر "لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ، ولا ذي غمز (حقد) على أخيه ..." .

ب - الذكورة، وأن أباح الشرع شهادة الأنثى في المواطن التي لا يطلع عليها الرجال كما ذكر ابن عمر، وجعل المرأة كالرجل بشرط الاستظهار بأخرى تجنباً للخلط والنسيان ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ (البقرة: ٢٨٢) (١٣)، وتؤكد البحوث النفسية ذلك، فالنساء أكثر قابلية للإيحاء وأكثر انحيازاً للعاطفة بالمقارنة بالرجال* (١٤) .

* تشير البحوث المعملية التي ركزت غالباً على تذكر الوجوه - وليس الأحداث - إلى آداء أحسن قليلاً للإناث مقارنة بالذكور في مهام تحديد الوجوه، لكنهن أكثر وقوعاً في الأخطاء، ويشير بعض الباحثين إلى ضرورة- لفهم التباين المعقد الفروق بين النوعين كشهود عيان - السعي لإجابات عن أسئلة مثل محتوى الشهادة (وصف أفعال أشخاص واستخدام عبارات تعبر عن الذات أم الضحية ، ويعتقد الباحثون أن مصدر الفروق بين النوعين هو الاختلافات في تركيز الانتباه فالرجال مثلاً أكثر انتباهاً للسيارات المسرعة مقارنة بالإناث اللاتي هن أكثر دقة في تذكر الألوان.

R.Ainsworth (1998) Psychology, law & eyewitness testimoing. cxichester: Wiley (pp.46-47).

جـ - أن يتمتع الشاهد بدرجة متوسطة من الذكاء على الأقل، فلا تقبل شهادة متأخري العقول [١٥]، لعدم قدرتهم على تقدير عواقب شهاداتهم وعدم تمتعها بالدقة المطلوبة .

د - أن يتمتع الشاهد بالحرية، حتى لا يجبر على الكذب أو يدفع إليه، بنص الحديث المشار إليه عن ابن عمر" ... ولا تجوز شهادة القابع (الخادم) لأهل البيت " (متفق عليه) [١٦].

وكثيراً ما يقابل المحققون شهوداً إما يزيفون ما يدلون به على الرغم من حبكة رواياتهم، وإما يصدقونهم القول وإن افتقد حديثهم الاتساق والتجانس بل وأحياناً المنطق، وبامكان أهل الاختصاص في علم النفس أن يقدموا للمحقق ما يجعل مقابلته لشهود أثناء التحقيق أكثر كفاءة، فبالإضافة إلى تدريب المحقق على إجراء مقابلات يكتسب من خلالها ثقة الشهود ويزيد أثناءها شعورهم بالأمان والطمأنينة وذلك باستبعاد العوامل - بعد التعرف عليها وتحديدها - التي تعكر مزاج الشهود قبل الإستجواب وأثناءه مثل: طريقة استدعائهم واستقبالهم ومكان ومدى انتظارهم قبل الإستجواب، وتدريب المحقق على كيفية تحديد ما يسأل عنه وصياغة السؤال ونوعه وتوقيت إلقائه وكيفية هذا الإلقاء وأسلوب التعليق على إجابة الشهود [١٧]، بالإضافة إلى كل هذا، فإن بامكان علم النفس أن يزيد كفاءة المحققين أيضاً من خلال إكسابهم القدرة على :

١ - اكتشاف الشاهد المضلل .

٢ - فهم العوامل التي تقلل من دقة الشاهد .

٣ - معرفة كيفية زيادة دقة الشاهد .

أولاً : اكتشاف الشاهد المضلل :

من المحتمل جداً أن يسعى فرد ما للإدلاء بشهادته في جريمة معينة مدفوعاً برغبة جارفة إما لإدانة شخص برئ وإما لتبرئة شخص جاني، وذلك لسبب أو لأخر، في هذه الحال يكون الشاهد مدعياً يسعى لتضليل العدالة، ويجب على المحقق اكتشافه وعدم الاعتماد على شهادته كدليل، ويصبح السؤال هو كيف ذلك ؟

إن الفرق بين شاهد مدعي يضلل العدالة وأخر خالص النية في مساعدتها هو أن الأول يكذب مهما اتسمت روايته بالحبكة والاتساق، وأن الآخر صادق حتى مع افتقار روايته للدقة، ويمكن التمييز بين الاثنين بملاحظة ما يصدر عنهما من سلوك أثناء الأدلاء بالشهادة، فالذي يكذب يعاني توتراً شديداً يؤثر في عضلات الوجه والجسم والأنشطة الحيوية الحشوية، وإذا كان بإمكان الكاذب التحكم في عضلات وجهه وفي مضمون حديثه بحيث يعطي انطباعاً لسامعيه بأنه أميناً ومرتاحاً لأمانته كما يبدو في هدوئه واسترخائه المصطنع، إلا أنه لا يقدر على ممارسة هذا التحكم في عضلات جسمه [١٨]، وتعبر استجابات غير لفظية عن فشل تحكمه هذا ، كالعبث في شعر الرأس أو اللحية وكون ساقاه أو يداه أو وضعه جسمه أو كلاهم دائمة الحركة غير مستقره، ذلك نتيجة توتره المرتفع بسبب الكذب، وكونه يتحاشى دائماً النظر في عيني محدثه، ذلك لخوفه من أن يكتشف كذبه، وكون نبرة صوت الشاهد مرتفعة وإيقاع حديثه بطئياً، وذلك كي يترك انطباعاً بالثقة في أقواله، وميل الشاهد للتأخر في إجابة أسئلة حرصاً منه على اتساق أقواله، إذ يفكر في الإجابة كثيراً قبل النطق بها، وكون أخطاء حديثه كثيرة، وربما للاستثارة الناتجة عن تعمده الكذب [١٩]، إذ استشعر

المحقق تعمد شاهده الكذب عليه، يجب ألا يصارحه بذلك، بل يلجأ إلى توجيه أسئلة غير مباشرة، وأن يميل لتكرار توجيهها في مواضع مختلفة وبصيغ متنوعة، وياحبذا لو كان السؤال من النوع المفتوح، أي تتطلب إجابته تداعياً حراً يتيح للمحقق فرص اكتشاف نيات الشاهد [٢٠]، وتزداد قدرة المحقق على اكتشاف تضليل الشاهد إذا توفرت لديه - أي المحقق - الدافعية لذلك، إذ تجعله أكثر انتباهاً لأية بادرة تصدر عن المضلل ، وأكثر تركيزاً عند معالجة ما يسمعه [٢١]، وهذا المعالجة التي تعد شرطاً لإمكانية أن تؤدي ملاحظة المحقق لسلوك شاهده إلى اكتشاف التضليل، فهذا الاكتشاف يعتمد على مدى الربط بين التعبيرات غير اللفظية ومضمون الشهادة ، ويقتضي هذا الربط معالجة معرفية متقدمة يقوم بها المحقق [٢٢] تمكنه من كشف التعارض بين التعبيرات اللغوية والتعبيرات غير اللفظية المصاحبةُ لها .

وكان المحققون في السابق يستعينون بعقاقير تضعف قدرة الفرد على مقاومة تزييف أقواله وتضليل التحقيق، من هذه العقاقير "آميتال الصوديوم" [٢٣] التي تعمل على كسر حاجز الخوف والحرج [٢٤]، إلا أن إجابات الخاضع لتأثير هذه العقاقير تتأثر كثيراً بالأسئلة الموجهة إليه وبطريقة طرح السؤال، مما يؤدي إلى تشويه الحقائق تحت تأثير الإيحاء ، حتى أنه يمكن الاستعانة بهذه العقاقير في جعل المشتبه فيه يعترف بأشياء لم يفعلها[٢٥] .

ويمكن الاستعانة الآن بجهاز يسمي " المفضاح Polygraph " وهو جهاز مركب المقاييس، يرصد الاستجابات الحشوية اللاإرادية - أي يصعب التحكم في نشاطها وحركتها - التي تعبر عن الحالة الانفعالية للفرد (من هذه المقاييس: رسام حركات التنفس - رسام حركات النبض - رسام حركات توارد الدم في أوعيته - مقياس استجابة الجلد الكهربائية - رسام المخ -

كاشف الزمن) حيث يجلس الشاهد في مقعد وثير، ثم تركب أقطاب كل مقياس في الجهاز على العضو المخصص لقياس حركته، وبعد التأكد من صلاحية أداء الجهاز لمهامه، يوجه المحقق أسئلة للشاهد تكون الإجابة عليها إما نعم أو لا، بعض هذه الأسئلة يتناول إما أموراً من المرجح جداً حدوثها ولو لمرة واحدة في العمر، وبالتالي فإن الشاهد يكذب إذا نفي حدوثها (مثل : هل سبق لك أن سرقت شيئاً ما من فندق أو مطعم ؟)، أو تتناول الأسئلة أموراً لا يمكن نفي حدوثها لتعلقها بأمر لا يخص المجيب بل يخص شخصاً غيره، وبالتالي لا يملك أدلة إثبات وقوعها أو نفيه. والبعض الآخر من الأسئلة يتناول جوانب تتعلق بالجريمة موضع الشهادة. وكل محاولة للكذب تظهر في شكل تغيير ذبذبات مؤشرات مقاييس المفضاح، ويرجع هذا التغير لتوتر المجيب الناتج عن إحساسه بالذنب لمحاولته الكذب[٢٦].

ومع أن للمفضاح قدرة مرتفعة للتمييز بين شاهد يضلل وأخر ليس كذلك، إلا أنه لا يعتمد عليه كدليل في المحاكم الجنائية[٢٧]. ويستخدم المحققون في المحاكم الأمريكية والإسرائيلية التنويم المغناطيسي كوسيلة لجعل الجاني والشهود يدلون بأشياء يتحرجون من قولها وهم حال اليقظة، ويرى البعض[٢٨] أنه-أي التنويم- يتفوق سواء على المفضاح أو على الاستعانة بالعقاقير، وهي طرق تقدم معلومات قابلة للتحريف والتشويه والزيادة والنقصان، بينما يفتح التنويم العقل الباطن مكمن الأسرار، لذا يقدم معلومات كاملة .

وأيا كانت الوسيلة[٢٩]– أو المقياس – التي يستعين بها المحقق لاكتشاف الشاهد المضلل، فإنه من الضروري أن يكتسب المهارة التي تمكنه من هذا الاكتشاف، حتى لا يبني قضيته على أضاليل، كما أنه من الضروري

أن يكتسب المحقق القدرة على تحديد العوامل التي تقلل من دقة شاهد خالص النية في مساعدة العدالة، والتعامل السليم مع هذه العوامل ،

ثانياً : العوامل التي تقلل من دقة الشاهد

تتعلق دقة شهادة شاهد العيان بمهارته في التذكر، أي قدرة الشاهد على استدعاء معلومات سبق له معاينتها، وهذه العملية تمر بمراحل ثلاث هي: التسجيل أو الترميز- والتخزين أو الاحتفاظ- والاسترجاع أو الاستدعاء، وتعتمد كل مرحلة منها على المرحلة السابقة عليها (٣٠)، فدقة الاحتفاظ مرتبطة بحسن الترميز، حيث فشل الفرد الاحتفاظ بمعلومة ما يرجع إلى عدة عوامل على رأسها إخفاق الفرد في ترميز الخبرة الحسية التي تعرض لها، وكذلك الحال نفسه بالنسبة للاستدعاء، إذ تتوقف دقته على حسن الاحتفاظ الذي يتوقف بدوره على كفاءة الترميز، وكثيراً ما تفتقد شهادة شاهد العيان الدقة، وذلك لفشله إما في الترميز وإما في الاحتفاظ وإما في الاستدعاء، وإما فيهم معاً وهو المرجح حدوثه وتوجد عدة عوامل تؤثر في قدرة الفرد على القيام بإحدى - أو كل - هذه العمليات، من هذه العوامل :

أ- عوامل تؤدي إلى فشل الفرد في ترميز خبرة تعرض لها

وهي العوامل التي تعوق تحويل هذه الخبرة الحسية إلى خبرة قابلة للتخزين في الذاكرة ويمكن استدعاؤها وقت الحاجة (كالإدلاء بالشهادة)، ويعد تشتيت الانتباه هو العملية التي بموجبها تتم هذه الإعاقة، فالتذكر يقتضي حسن التخزين الذي يتطلب جودة الاحتفاظ وهذه الجودة لا تتحقق إلا بشدة انتباهنا لما نريد الاحتفاظ به، فللإنتباه دوره الرئيسي في بقاء الصور

الحسية مما يجعل تذكرها ميسوراً [٣١]، وهناك عدة متغيرات تؤثر في هذا الانتباه وتعمل على زيادة شدته أو خفضها، من هذه المتغيرات : -

١ - الإضاءة الخافتة، فالمجرم يتخير المكان والزمان اللذان يساعدانه على التخفي، والعنصر الأساسي في ذلك أن يرتكب جريمته في الظلام أو في ضوء خافت جداً، ومن المسلم به أن عدم كفاية الإضاءة تؤدي إلى تشتيت الانتباه[٣٢] وبالتالي فشل الاحتفاظ .

٢ - كون وقائع الحدث - الجريمة - تمر بسرعة مذهلة وغير قابلة للتكرار، مما يقلل من فرص انتباهنا لها .

٣ - حالة الشاهد الانفعالية أثناء مشاهدته وقائع الجريمة عند حدوثها، ويغلب على هذه الحالة الخوف والتوتر، وهذه المشاعر تؤدي إلى خفض الانتباه وتشويه الإدراك وإنقاص قدرة الفرد على الاكتساب، وجعل تفكيره متقطعاً وغير واضح ،وجعل معلوماته مفككة وغير مترابطة وغير متسقة [٣٣].

٤ - تعرض الفرد للخداع البصري، وهذا أمر شائع في الظروف الطبيعية، فما بالك بالحالة الانفعالية التي يكون في ظلها المشاهد لجريمة ما، وتلعب الرغبات والدوافع دوراً مؤثراً في مدى تعرض الفرد لهذا الخداع ومضمونه[٣٤] .

٥ - الصور النمطية السائدة والتي تجعل الشاهد يتسرع في إلصاق التهمه بفرد ينتمي غالباً للجماعة الخارجية (أي التي لا ينتمي إليها الشاهد)، حيث تكشف التجارب[٣٥] أن الأفراد يظهرون تحيزاً لأعضاء جماعتهم الداخلية وتعصباً ضد أعضاء الجماعات الخارجية، خاصة وأن الجاني قد يلجأ إلى التشبه بأعضاء جماعة ما كوسيلة للتمويه والتضليل .

ب - عوامل تؤدي إلى فشل الاستدعاء أثناء التحقيق ، ومنها :

١ - لجوء الجاني إلى اتخاذ الاحتياطات التي تمكنه من تضليل من شاهده، وبالتالي يصبح تحديد الجاني والتعرف عليه في جلسات التحقيق صعباً، من هذه الإحتياطات: صبغ الشعر، وتغيير بنية الجسم من حيث النحافة أو السمنة، وارتداء نظارات - عدسات لاصقة - ملونة، ولبس الأقنعة، وإجراء عمليات التجميل لتغيير بعض الملامح الفرعية للوجه (٣٦)، ،وما شابه ذلك ،

٢ - وجود فاصل بين مشاهدة الجريمة ورواية وقائعها في التحقيق، فكلما طال هذا الفاصل كلما قلت كفاءة الاستدعاء ،

٣ - وجود ميل تلقائي لدي البشر لإعادة بناء ما شاهدوه عند تذكره، فحينما ندرك عدداً من المنبهات - كما في رؤيتنا لوقائع جريمة ما - فإننا لا نراها على أنها متفرقة، بل ندركها على أنها تدخل في علاقات فيما بينها وتكون أبنية وفقاً لعدد من المبادئ الادراكية كالتقارب والتماثل، والأمر ذاته حينما نكون إنطباعاً عن فرد ما - كما يفعل الشاهد بالنسبة للجاني - فهذا الانطباع لا يكون مجموعة من الصفات المتفرقة، بل هو انطباع منظم له منطق معين يصل بين أجزائه، ونتيجة لهذا أمكن لصاحب الانطباع أن يستنتج صفات لم يرها في الفرد موضوع الانطباع (٣٧)، وذلك لأن لكل حدث - أو فرد - ندركه وقائع أساسية تحتل غالباً مركز الشعور وأخرى فرعية تحتل في معظم الأحيان هامش الشعور، وأثناء محاولتنا استعادة الحدث، فإننا ننسى وقائعه الفرعية ونتذكر الأساسية منها فقط، في هذه الحال، تكون روايتنا للحدث غير كاملة وغير متسقة ومنقوصة، فنعمل على جعلها أكثر اتساقاً وتكاملاً، فنملئ الثغرات

بإضافات من عندنا بناءً على اتساق هذه الإضافات مع الوقائع الفعلية للحدث التي مازلنا نذكرها، وهكذا يضيف الفرد ويحذف في روايته لحدث ما وفقاً للتنظيم الذاتي الذي يقوم به لهذا الحدث [٣٨]، ويعكس هذا التنظيم رغبات الفرد وتوقعاته وآراءه وانطباعاته عن أطراف هذا الحدث (جاني – وضحية – ومحقق – ومحامي – ... الخ)، إذ تظهر الدراسات أن الأفراد يتذكرون في العادة النقاط المنسجمة مع أرائهم الخاصة ، ويتناسون تلك التي لا تنسجم معها، وقد تبين ذلك من خلال سلسلة تجارب سميت "الإعادة المتسلسلة" حيث يروي المجرب قصة للشخص (أ) الذي يرويها بدوره للشخص (ب) وهو كذلك يرويها للشخص (جـ) ... وهكذا دواليك، وتدل النتائج أنه حتى في ظل العدد المحدود من الاعادات (خمس مرات في التجربة) تصبح القصة مشوهه إلى حد كبير، وتصبح روايتها فقيرة مختصرة، وجملها أكثر عمومية وأقل دقة، وتزداد الأخطاء نتيجة الخلط والتبديل وتغير الإطار الزماني والمكاني، وتغير الأسماء والتواريخ [٣٩]، وهكذا تختلف روايات الشهود لوقائع جريمة ما، بل وتختلف روايات الشاهد الواحد إذا تم استجوابه عدة مرات خصوصاً إذا تباعدت الفترات الفاصلة بينهما، وتصبح روايته الأخيرة أقل دقة من سابقتها ، ويرجع انخفاض الدقة في هذه الحال إلى عملية التنظيم الذاتي .

٤ – سمات شخصية الشاهد، والتي تشكل آلياته في الإدراك وفي الاحتفاظ وفي التذكر، تلعب دوراً أساسياً في اتخاذه لقرار مساعدة رجال العدالة والتعاون معهم، وتظهر البحوث التي تقارن بين الذين تتسم شهاداتهم بالدقة والذين تفتقد شهاداتهم الدقة، أن هناك فروقاً بين أفراد الفئتين في عدد من المتغيرات مثل :

(أ) العمر: فشهادة الراشدين أكثر دقة من شهادة الأطفال ربما لأن الأطفال أكثر قابلية للإيحاء وأقل مهارة في التذكر بالمقارنة بالراشدين . ويرجح "ليبي" Lieppe وزملاؤه[40]– بعد عرض البحوث التي أجريت في هذا المجال – اعتماد درجة ووجهة هذه الفروق على كل من التنميط Stereotyping ونوع الجريمة، فالتنميط الإيجابي للراشدين يجعل المحققين أكثر تهيؤ لتصديقهم، والتنميط السلبي للأطفال يجعل المحققين يعتقدون أنهم أقل مصداقية، ويزيد هذا الاعتقاد رسوخاً كون ردود أفعال الأطفال شديدة التنوع. كما أن اعتقاد المحققين أن الأطفال أقل ميلا للكذب يجعلهم يتعاملون مع وصف الأطفال للجرائم الجنسية على أنه أكثر دقة بالمقارنة بوصف الراشدين لهذه الجرائم أو بوصف الأطفال أنفسهم لجرائم أخرى .

(ب) الثقة: يعتقد كثير من المحققين أن الواثق من نفسه عند الإدلاء بالشهادة المصر على دقة روايته أكثر مصداقية ممن هو غير ذلك[41]، وتبين نتائج البحوث تعارضاً في هذا الأمر، فبعضها يظهر غياب فروق دالة إحصائيا بين الذين يؤكدون صحة ما شاهدوه والذين يتشككون فيها[42]، ويبين البعض الآخر من البحوث أن الذين تتسم شهادتهم بالدقة يظهرون ثقة أكبر وتأكداً أعلى من ذاكرتهم وحسنها بالمقارنة بالذين تفتقد شهادتهم الدقة [43].

(ج) درجة توكيد الذات، فالذين تتسم شهادتهم بالدقة أكثر توكيداً نسبياً بالمقارنة بالذين تفتقد شهادتهم الدقة [44].

(د) القابلية للإيحاء، ويقصد بها سرعة تصديق الفرد لما يسمعه من آراء ومعلومات دون تقييم أو تمحيص لها، فالذين تتسم شهادتهم بالدقة أقل قابلية للإيحاء بالمقارنة بالذين تفتقد شهادتهم الدقة .

(هـ) الخبرة : وهي من الجوانب التي تعتمد عليها العدالة كثيراً في السنوات الأخيرة، وبناء على خبرة الشاهد يمكن التمييز بين نوعين من الشهود:

(١) شاهد عادي، لديه معرفة مباشرة بالجريمة موضوع الشهادة، ويدلي ببيانات عنها استناداً إما إلى معاينة الجريمة حين وقوعها، وإما إلى معرفة مباشرة بأحد أطرافها .

(٢) شاهد خبير، لم يعاين الجريمة وقت وقوعها، وليس لديه سابق معرفة بأحد أطرافها، وإنما هو متخصص في علم ما أو أشتهر بممارسة لمهنة بعينها ويعد خبيراً فيها، واستناداً إلى هذا فقط هو يقدم معلومات إلى المحكمة تساعدها في الوصول إلى الحقيقة(٤٥)، مثل طبيب يقدم وصفاً لحالة الضحية الصحية لمعرفة مدى الإصابات الناتجة عن اعتداء الجاني عليه، أو أخصائي نفسي يقدم وصفاً لحالة الجاني العقلية(٤٦) لتحديد مدى مسئوليته عن جرمه، أو خبير خطوط يحكم على توقيع-أو وثيقة-ما في جرائم التزوير،أو .. الخ .

٥ – موقف الشهادة : وتلعب متغيراته دوراً في زيادة دقة الشهادة أو نقصانها ، ومن هذه المتغيرات : –

(أ) كون الشاهد ضحية ، فالشاهد غير الضحية لا يميل للكذب، إذ ليس لديه دافع لذلك، وفي حال كون الشاهد ضحية، فإن بإمكان المحقق الاستدلال على صدقه بملاحظة تعبيراته الانفعالية ومعالجة متقدمة لمضمون شهادته (٤٧).

(ب) طريقة الاستجواب ونوع الأسئلة ومدى وضوحها أو إلتوائها، فبإمكان هذه الأسئلة إما مساعدة الشاهد على حسن التذكر وإما تشويش ذاكرته وزعزعة ثقته في نفسه .

(جـ) استقبال المحقق للشاهد، ومكان انتظار الشاهد ومدى هذا الانتظار فإما هذه العوامل تزيد الشاهد اطمئناناً ورغبة في مساعدة العدالة، وإما تزيده نفوراً وسخطاً، وبالتالي رغبة في مغادرة المكان دون إتمام الشهادة .

هذه بعض العوامل التي تؤثر في دقة ما يدلي به شاهد العيان وتجعلها أقل اتساقاً، بل وتجعلها تفتقد أحياناً المنطق .

ثالثاً : كيفية زيادة دقة شهادة شاهد العيان

إذا كانت هناك عوامل تقلل من دقة شاهد خالص النية في مساعدة العدالة، فإن بإمكان المحقق التعامل بكفاءة مع هذه العوامل، بعد تحديدها، وذلك لتجنب آثارها السلبية والعمل على زيادة دقة الشهادة من خلال عدة إجراءات منها :

١ – أن يعمل المحقق على اكتساب ثقة شاهده وزيادة إحساسه بالطمأنينة وإظهار أهمية تعاونه لتحقيق العدالة، فكثير من شاهدي العيان يحجمون عن التعاون مع رجال العدالة إما خوفاً من انتقام الجاني وأهله وإما لانخفاض الثقة في رجال الشرطة، وإما لغياب مظاهر الضبط الاجتماعي والإدانة الشعبية[٤٨]، وبإمكان المحقق تجاوز كل هذه العقبات من خلال طريقة استدعائه للشاهد وطريقة استجوابه .

٢ – أن تتسم أسئلة المحقق للشاهد بالمباشرة ووضوح الرؤية، وأن يتناول أموراً تفصيلية لا مجملة، وأن تصاغ بلهجة تناسب الشاهد، وأن يتم

ترتيبها وفق التسلسل الزمني لوقائع الجريمة، ولا يخرج ترتيبها عن هذا التسلسل إلا إذا لاحظ المحقق أن شاهده يواجه صعوبة انفعالية – خاصة إذا كان الشاهد أو أحد ذويه هو الضحية – أو تذكرية [٤٩].

٣ – إذا تعدد الشهود في قضية ما ، فيجب التفريق بينهم[٥٠] ولا يسمح لهم بالجلوس معاً في حال انتظار المحقق أو أثناء جلسة التحقيق، فقد يكون أحدهم سريع التأثر بالآخرين، إما لأنه قابل للإيحاء، وإما لأنه لا يحتمل مخالفة الغير فيسايرهم (يجاريهم) في أقوالهم تأثرا بوجودهم، أو قد يكون لدى أحد الشهود فجوات في الذاكرة فيملئها من أقوال الشهود الآخرين .

٤ – أن يقوم رجال الشرطة بتصوير موقع الجريمة لحظة ضبطها، فقد تظل بعض العلامات الفزيائية في موضعها الذي كانت عليه وقت ارتكاب الجريمة، وعلى المحقق عرض هذه الصور أثناء التحقيق، الأمر الذي ينعش ذاكرة الشاهد، إذ من المبادئ الحاكمة للتذكر هو التداعي الذي يحققه ربط أشياء بأشياء أخرى.

٥ – العودة لموقع الجريمة واستجواب الشاهد فيه مما ييسر له تذكر وقائع الجريمة من خلال ربطها ببعض عناصر الموقع التي لا زالت موجودة، فأساس الاستدعاء أو التذكر هو الربط بين الأحداث والعناصر [٥١] .

٦ – إذا توفرت لدي المحقق والشاهد معلومات كافية لتحديد الجاني، فيجب الانتقال إلى هذه المرحلة والتي تعد مرحلة التحقيق الحرجة، وقوامها التعرف الذي يعد أيسر من الاستدعاء لأن الفرد يختار معلومات جزئية مما هو معروض أمامه، بينما يقدم في الاستدعاء معلومات كاملة يبحث عنها في الذاكرة، إلا أن التعرف أقل دقة حيث للتخمين أثر كبير بالمقارنة بالاستدعاء [٥٢]، كما أنه لا يمكن البدء بالتعرف وإنما

بالاستدعاء، حيث يجب أولاً تحديد المعلومات التي يجب الاختيار بينها . وهناك أسلوبان لتعرف الشاهد على مشتبه فيه، هما : -

(أ) تقديم مشتبه فيه واحد إلى شاهد ليتعرف عليه، ويسمي هذا الإجراء Show up كما يسمى أيضاً "التحديد في الميدان" in field identification or adrive by ويعده رجال الشرطة أسلوباً دقيقاً ويعتمد عليه خصوصاً إذا كان الفاصل الزمني بين وقوع الجريمة وتحديد الجاني وقتاً قصيراً .

(ب) تقديم عدة صور لمشتبه فيهم، يتعرف الشاهد على صورة أحدهم بوصفه الجاني ويسمي Line up ويعتقد علماء النفس أنه أفضل من الأسلوب السابق، حيث الأداء العقلي أيسر وأبسط، فالأسلوب الأول يعني قيام الشاهد بمهمتين عقليتين في الوقت نفسه، الأولى ما يسمى بسلوك حل المشكلات، والثانية هي عملية اتخاذ القرار ولكلتا العمليتين متغيراتهما المؤثرة العديدة التي يصعب وضعها في الحسبان، بينما يقوم الشاهد في الأسلوب الثاني بمهمة واحدة فقط هي التعرف على صورة الجاني واستبعاد الصور الأخرى (٥٣) .

وكانت محكمة Suprene الأمريكية هي أول من لفت الأنظار إلى ضرورة المقارنة بين الأسلوبين وذلك في العام ١٩٦٧، وبعدها أجريت بحوث عديدة تناولت هذه المقارنة وتظهر نتائجها أن حكم الشاهد يكون أكثر عرضة للتحيز وأكثر تأثراً بكل من الإيحاء والضغوط الموقفية المتمثلة في ضغوط رجال البوليس وحالة الشاهد الانفعالية والذهنية والعلاقات الاجتماعية المتبادلة ومسئولية التحديد مما يترتب عليه نسيان العديد من الأدلة، كما يكون هذا الحكم من النوع المطلق لا النسبي وذلك حينما يكون هذا الحكم هو تحديد ما إذا كان المشتبه فيه الذي يعرض عليه هو الجاني أم

لا (الأسلوب الأول) بالمقارنة بكون هذا الحكم هو تعرف الشاهد على صورة المشتبه فيه والمعروضة عليه ضمن عدة صور (الأسلوب الثاني) ، ويرى ٧٨% من الأخصائيين النفسيين العاملين في هذا المجال أن الأسلوب الأول (Show up) ليس دقيقاً وغير ثابت ولا يعتمد عليه، بينما يرى رجال الشرطة أنه أسلوب عملي جداً ومفيد (٥٤).

وإذا ما اعتمد المحقق على عرض المشتبه فيهم لتحديد الجاني، فبإمكان المحقق استنتاج ما إذا كان تعرف الشاهد على المشتبه فيه تعرفاً دقيقاً أم خاطئاً من خلال معرفة آليات وصول الشاهد إلى هذا التعرف، حيث تظهر التجارب أن الذين توصلوا إلى تعريف دقيق اعتمدوا في ذلك على طريقة التعرف الآلي Automatic التي تتيح لهم تعرفاً سريعاً دون معالجة معرفية متعمقة ودون أن يتأثروا بالصور الأخرى المقدمة لهم – في جلسة التحديد أثناء التحقيق – التي لا تحدث لهم تشويشاً أو تضليلاً، بينما الذين جاء تعرفهم خاطئاً اعتمدوا استراتيجية الإبعاد عند التعرف على صورة المتهم ، وذلك لتضييق مدى الاختيار حتى يمكنهم التعامل مع أوصاف الملامح الوجهية وعلاقاتها المتبادلة مما يترتب عليه استغراق وقت أطول ومعالجة معرفية أكثر عمقا(٥٥) ، أن سؤال المحقق لشاهده بعد تعرفه على الجاني عن طريقته في هذا التعرف تعطي المحقق انطباعاً بمدى دقة الشاهد أو افتقاده الدقة ،

(ج) وتتم الاستعانة في الآونة الأخيرة بالحاسب الآلي، حيث يتم تخزين صور المشتبه فيهم واستدعاؤها وعرضها على الشاهد بدلاً من الصور الفرتوغرافية، ويتمتع الحاسب بميزة أخرى بالإضافة إلى قدرته الفائقة على التخزين والاستدعاء، وهي أنه بالإمكان إدخال تعديلات على الصورة المعروضة أمام الشاهد، وهذه التعديلات تجعل الصورة أقرب

شبهاً بالجاني الذي رآه الشاهد أثناء الحدث (الجريمة)، كما أن هذه التعديلات تقابل محاولات الجاني الخداع والتمويه .

وهكذا يستطيع المحقق من خلال هذه الوسائل المختلفة والمتكاملة إنعاش ذاكرة شاهده واستخلاص بيانات دقيقة منه تعد أدلة يعتمد عليها .

الهوامش

(١) ربيع (محمد شحاته)، يوسف (جمعه) ، عبد الله (معتز) ،علم النفس الجنائي، القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٩٥ ص ٤٥ .

(٢) يشترط في القاضي تعلم نوعين من الفقه: أحكام الحوادث الكلية – وأحوال الناس ودلائل الحال ومعرفة شواهده، التي يمكنه فهمها من تمييز الصادق والكاذب، المحق والمبطل، ثم يطابق بين هذا وهذا، فيعطي حكمه من الواجب، ولا يجعل الواجب مخالفاً للواقع. انظر: بن قيم الجوزيه. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (تحقيق: أحمد العسكري) . القاهرة : المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦١، ص ٦ .

(٣) البينة اسم لكل ما يبين الحق ويظهره، وقد وردت في القرآن مراداً بها الحجة والدليل والبرهان والتبصرة والآية والعلامة والإمارة، سواء مفردة أو مجمعة، ويشير قول رسول الله ص "البينة على من إدعى" أن على المدعي أن يقدم أدلة صحة دعواه، ويقصد بالدليل وقائع قضية ما، أو الحجج التي تبرهن عليها طرق المحكمة وقواعدها في تقديم الإدانة، ويشترط في الدليل الوضوح والدقة وأن تكون صلته وثيقة بالقضية موضع التحاكم، وقد يكون الدليل عيانياً كسلاح الجريمة (كما في القتل) أو المال المسروق أو الوثيقة المزورة (في جرائم السرقة أو التزوير)، وقد يكون الدليل لفظيا، سواء قدم بشكل شفهي صريح كاعتراف الجاني أو رواية شاهد عيان تصف الجريمة أو تسمي الجاني بالاسم، وقد يكون الدليل شفهياً وقدم بشكل ضمني كنقل شاهد عن آخر أو الاستنتاج من كلام سمعه لأخر، وقد يكون الدليل مكتوباً كالوثائق وتقرير فحص حالة المريض الذهنية ... وما شابه. أنظر: بن قيم الجوزيه، ١٩٦١ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤ .

Haword, L. Forensic Psychology. London : Batsford & Eduational Ltd., 1981 . pp . 121 – 122 .

(٤) الصنعاني (محمد بن إسماعيل) . سبل السلام: شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، (صححه محمد عبد العزيز الخولي) . بيروت : دار الجبل، ١٩٨٠ ،ص ١٤٨٣ .

(٥) الديب (سعود) . موقف الشرع الإسلامي من استخدام الوسائل النفسية في الكشف عن الجريمة (ص ص ٣٠١ – ٣١٠) في: المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب (محرر) استخدام الوسائل النفسية في الكشف عن الجريمة . الرياض : منشورات المركز، ١٩٨٩ . وقد عرض بن قيم الجوزية، ١٩٦١، مرجع سبق ذكره، منازل الشهادة وأنواعها ومواضعها وشروطها وقارن بينها وبين القرائن والعلامات والإمارات .

(6) Dunning D. & Bethstern, L. Distinguishing accurate from inaccurate eyewitness identification via inquiries about decision processes. J. Pers. Soc. Psychol., 1994, 68 : 818 – 845.

(7) ربيع وآخرون ، ١٩٩٥، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٢ .

(8) المرجع السابق : ص ص ٢٥ – ٢٨ .

(9) ويعرف هذا العلم في الولايات المتحدة باسم Forensical ويشير هذا الاسم إلى تقديم الدليل – أي الحجج – وتلخيصه ومناقشته بحيث يؤدي إلى إثبات الإدانة أو نفيها .

انظر : Haword, 1981, op cit. p. 7

(10) أنظر الصنعاني ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٧٥ .

(11) ابن منظور (محمد بن مكرم الأنصاري) لسان العرب. القاهرة: دار المعارف ١٩٨٠، ص ص ٢٣٤٨ – ٢٣٥٠ .

(12) الصنعاني ، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٧٣ .

(13) ابن قيم الجوزية، ١٩٦١، مرجع سبق ذكره، ص ص ٩٧ – ٩٨، القرافي (شهاب الدين) الفروق، بيروت : دار المعرفة، ب ت، مجلدا ص ص ٥ – ٧، الصنعاني، ١٩٨٠ ، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧٧ .

(14) ربيع وآخرون ، ١٩٩٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٣٥ .

(15) المرجع السابق ، ص ٦٣٤ .

(16) القرافي ، ب ت ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧ .

(17) الغماز (إبراهيم) شخصية المحقق وأثرها في الكشف عن الجريمة (ص ص ١٣ – ٦٥) في :المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب (محرر) استخدام الوسائل النفسية في الكشف عن الجريمة الرياض: منشورات المركز، ١٩٨٩ .

(18) قدم " أكمان وفرش " عام ١٩٦٩ مدرجاً لتناقص القدرة على التحكم التلقائي Contrilability leakage حيث يكون الفرد أكثر تحكما في التعبير اللغوي وأقل تحكما في التعبير غير اللفظي، أي التعبير من خلال وضعة الجسم وحركة بعض أجزائه كاليدين ونبرة الصوت . وقد أعدت " جوديثي هال " عام ١٩٧٨ مقياساً يقدم تخطيطاً نفسياً للحساسية غير اللفظية (PONS) PROFILE NONVERBAL SENSITIVITY, 220 يشمل فقرة ، كل منها مصورة بالفيديو وتتضمن إشارة صوتية تعبر عن انفعال ما، مصحوبة بتعبير غير لفظي (بالوجه أو بوضعه جزء من الجسم) مناقضة لهذا الانفعال . وبعد عرض الفقرات ، يقوم المبحوث بتصنيفها على أساس السيادة – التنحي ، الإيجابية – السلبية . كما قدم " روزنثال

وبلاك " عام ١٩٨٢ مقياساً أخر سمي " مقياس الحساسية اللفظية وغير اللفظية " . لمزيد من التفاصيل أنظر :

BROWN , R . SOCIAL PSYCHOLOGY . NEW YORK : THE FREE PRESS 1986 , PP. 502 – 503

(١٩) المرجع السابق : 504 – 507

SEARS, D ; PEPLAU, L . & TAYLOR, S . SOCIAL PSYCHOLOGY . NEW YORK , PRENTICE – HALL , 1991 . PP 65 – 67 .

(٢٠) الغاز (إبراهيم) ، ١٩٨٩ ، مرجع سبق ذكره .

(21) BROWN, 1986 , OP CIT . P 506

(22) SEARS , ET AL., 1991 . OP CIT, P. 69

(٢٣) عكاشة (أحمد) علم النفس الفسيولوجي . القاهرة: دار المعارف ، ١٩٨٢ ص ١٦٩ (طبعة سادسة) .

(٢٤) الشمري (منورناشي) التنويم المغناطيس (ص ص ١٦٩ – ١٩٠) في: المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب (محرر) استخدام الوسائل النفسية في الكشف عن الجريمة . الرياض: منشورات المركز، ١٩٨٩ .

(٢٥) عكاشة (أحمد) ، ١٩٨٢ ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٩ .

(٢٦) BROWN , 1986 , OP , CIT , P . 507 ، عدس (عبد الرحمن) مدى صدق وثبات الاختبارات النفسية في الكشف عن الجريمة في الوطن العربي (ص ص ٩٧ – ١٥٦) في المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب (محرر) استخدام الوسائل النفسية في الكشف عن الجريمة . الرياض : منشورات المركز ، ١٩٨٩ .

(27) I BID

(٢٨) الشمرى (منورناشي) ، ١٩٨٩ ، مرجع سبق ذكره .

(٢٩) وأهم هذه الوسائل وأكثرها فاعلية ، الوسائل النفسية تلك التي تهدف إلى التأثير في سلوك الإنسان لا في بدنه كالتهديد بالتعذيب وليس التعذيب – وهو من أقدم هذه الوسائل – والفراسة ومصل الحقيقة وكاشف الكذب وأخيراً الاختبارات النفسية. أنظر: المجدوب (أحمد) موقف القضاء في استخدام الوسائل النفسية في الكشف عن الجريمة في البلاد العربية (ص ص ٦٧ – ٩٦): في المركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب (محرر) استخدام الوسائل النفسية في الكشف عن الجريمة . الرياض، منشورات المركز، ١٩٨٩ .

(٣٠) السيد (عبد الحليم محمود) وآخرون . علم النفس العام . القاهرة : مكتبة غريب، ١٩٩٠ ص ٨٩، (طبعة ثالثة) .

(31) المرجع السابق ص ١٨٥ ٠

(32) المرجع السابق ص ١٨٤ ٠

(33) المرجع السابق ص ١٨٢ ، ص ٢١٧ ، عكاشة (أحمد)، ١٩٨٢، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٥، ص ٢٠٣ ٠

(34) عرض السيد (عبد الحليم) وآخرون ، ١٩٩٠ ، مرجع سبق ذكره، نماذجاً لهذا الخداع البصري ص ص ٢٠٦ – ٢١٥ ٠

(35) BATHWELL, R.: BRIGHAM, J. & MALPASS, R. CROSS – RECIAL IDENTIFICA – TION. PRES. SOC. PSYCHOL. BUL., 1989. 15 : 19 – 25.

(36) ربيع (محمد شحاته) وآخرون ، ١٩٩٥ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٣٩ ٠

(37) سويف (مصطفى) مقدمة لعلم النفس الاجتماعي، القاهرة: الانجلو المصرية، ١٩٧٥، ص ص ٤٠ – ٤٣ (طبعة خامسة) ٠

(38) عكاشة (أحمد) ، ١٩٨٢ ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٧ ٠

(39) كلمبرج (أوتو) علم النفس الاجتماعي (ترجمة: حافظ الجمالي) بيروت: مكتبة الحياة ١٩٦٧ ، ص ص ٣١١ – ٣١٢ (طبعة ثالثة) ٠

(40) LEIPPE, M., MANION, A, & ROMANCZYK, A. EYEWITNESS PRESUASION : HOW AND HOW WELL DO EFFECT FINDERS, JUDGE THE ACCUARCY OF ADULT AND CHILDERN'S MEMORY REPORT. J. PRES. SOC. PSYCHOL., 1992, 63 : 181 – 197.

(41) KASSIN, S. EYEWITNESS IDENTIFICATION: RETROSPECTIVE SELF – AWARENESS AND THE ACCURACY – CONFIDENCE CORRELATIVE. J. PRES. SOC. PSYCHOL., 1985, 49 : 878 – 893.

(42) BETHWELL, R., DEFFENBACHER, K. & BRIGHAM, J. CORRELATION OF EYEWITNESS ACCURACY AND CONFIDENCE : THE OPTIMALITY HYPOTHESIS REVISITED. J. APP. PSYCHOL., 1987. 72 : 691 – 695.

(43) أنظر DUNNING & BETHSTERN, 1994, OP CIT.

(44) المرجع السابق ٠

(45) HOWARD, 1981, OP CIT, P. 167.

(46) لمعرفة دور الأخصائي النفسي كشاهد خبير ، والقواعد المنظمة لأدائه ،

أنظر : المرجع السابق 174-169، PP

(47) DUNNING & BETHSTERN, 1994, OP CIT

(48) الغماز (إبراهيم) ، ١٩٨٩ ، مرجع سبق ذكره ٠

(49) المرجع السابق ٠

(50) يختلف الفقهاء فيما يتعلق باجتماع الشهود في جريمة الزنا خصوصاً، إذ يري أبو حنيفة ضرورة ذلك، فالشاهد المفرد في هذه الحال قد يتهم بالقذف ، بينما يأخذ مالك والشافعي بظاهر

نص الآية ١٥ من سورة النساء، مشيرين إلى أنه لا فرق بين أن يؤدي الشهود الأربعة شهادتهم مجتمعين أو متفرقين وإنما كيفما اتفق ، وإذا كانوا مجتمعين وارتاب فيهم القاضي ، وجب التفريق [انظر: الصابوني (محمد علي) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن ، دمشق، مكتبة (لغزالي، ١٩٧٧، المجلد الثاني ص ٦٨] ٠ وقد فعل علي ابن أبي طالب ذلك في أمر النساء اللائي شهدن على فتاة بالبغي ٠ أنظر : بن قيم الجوزية ، ١٩٦١، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٢ ٠

(٥١) عكاشة (أحمد)، ١٩٨٢ ، مرجع سبق نكره ، ص ٢٠٧ ٠

(٥٢) السيد (عبد الحليم) وآخرون، ١٩٩٠ ، مرجع سبق نكره ، ص ٢٩٥ ٠

(53) GONAZALES , R ., ELLSWARTII, P . & PEMBROKE, M . RESPONSE BIASES IN LINEUPS AND SHOW UPS. J . PERS . SOC . PSYCHOL., 1993 , 64 : 525 – 537 .

(٥٤) المرجع السابق ٠

(55) DUNNING & BETHSTERN, 1994 , OP. CIT .

رابعا: في المجال العسكري

مدخل

كان الجيش مجالا خصبا لتطبيقات علم النفس عبر تاريخه؛ فتطور حركة القياس ارتبطت بالجيش مثلما التصقت بالمجال التربوي؛ حينما اعتمد الجيش الأمريكي على اختبارات الذكاء لانتقاء الجنود خلال الحرب العالمية الأولى، وامتدت الأساليب النفسية في الانتقاء إلى مجالات أخرى وبلدان أخرى حتى في وقت السلم (أيزنك، ب.ت. :٢-٣).

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد؛ فبحوث تغيير الاتجاه -ذات التطبيقات الحيوية في كافة مجالات الحياة- كانت بدايتها في الجيش أيضا؛ حينما بدأ "كارل هوفلاند" ومدرسة "ييل" بحوثه أثناء الحرب العالمية الثانية وأبانها.ولعل مؤتمر فرع "كاليفورنيا" لجمعية علم النفس الأمريكية يوم٥/٤/٢٠٠٣ والمعنون "التغلب على المشاعر الناتجة عن الحرب"مثال للاستفادة من علم النفس لتقوية الجبهة الداخلية للقائمين بالحرب،ويعرض المقال التالي لكيفية توظيف علم النفس في مجال الحرب.

هانز أيزنك (ب.ت.)مشكلات علم النفس (ترجمة: جابر عبد الحميد و يوسف الشيخ). القاهرة: النهضة العربية.

-٧-

الحرب النفسية

"كأسلحة حربية؛ لا تقل الكلمات تأثيرا عن المسدسات"

فلويد آلبورت

مقدمة:

تتعرض الأمة العربية والإسلامية إلى حملة متواصلة أعد لها بإحكام لا مثيل له في تاريخ البشرية؛ بهدف إضعاف معنويات الشعوب العربية والمسلمة وبث الفرقة بينهم حتى ينصاعوا كلية إلى الهيمنة الإسرائيلية ولا يطالبوا بحق لهم،وأساس هذه الحملة هو تشويه صورة العربي والمسلم لدى الرأي العام العالمي حتى تكسب إسرائيل – وقد حدث – دعمه ومساندته. وتسمى هذه الحملة "الحرب النفسية" psychological warfare والتي هي استخدام مقصود لسائر الأساليب غير القتالية (الدعاية بوجه خاص) التي تؤثر في النتائج النهائية للصراع (الدباغ، ١٩٩٨: ١٥) من خلال التأثير في معنويات الخصم لإضعافه وتعجيل هزيمته واستسلامه، فقد كان "بونابرت" يرى أن القوة المعنوية تساوي ٧٥% من مجموع القوى المستخدمة في المجهود الحربي ..وتعد ال٢٥% الباقية؛أي القوة المادية بمثابة الرافعات؛ إذ لا تعمل القوة المعنوية شيئا بدون ركيزة مادية ترتكز عليها؛ إلا أن هذه الركيزة لا قيمة لها إذا كان مستوى المعنويات يساوي صفرا (المرجع نفسه: ٤٧)،إذ لا تستفيد الدولة مما لديها من عدة وسلاح إذا غابت العزيمة ووهنت الإرادة،والمتأمل لوضع العرب اليوم أمام إسرائيل يرى

أنهم الأضعف؛ مع كون ميزان القوة العسكرية – بالمقاييس المادية – لصالحهم (انظر: سويلم، ٢٠٠٢)؛ويعد ضعفهم هذا نتاج غياب الإرادة بتأثير الدعاية الإسرائيلية.

ويحاول المقال الراهن أن يبرز الحرب النفسية التي تعد نموذجا للدور التطبيقي الذي يمكن أن يلعبه علم النفس؛ وعلم النفس الاجتماعي خصوصا؛ في تهيئة الأجواء قبل بدء الحرب العسكرية وأثنائها وبعد انتهائها، وتسمى تهيئة الأجواء هذه الحرب النفسية والتي يشير مفهومها الواسع إلى نوع من الدعاية يوجهها طرف للتأثير في معنويات أفراد طرف أخر بهدف ترسيخ اعتقاد أنهم لن ينتصروا في معركتهم معه (أي مصدر الدعاية أو الطرف الأول) مهما طالت الحرب ؛لأنه لا يقهر؛ فهو الأقوى وصاحب الحق؛ لذا هو المنتصر دائما(Brown,1969: 81) . وتعد هذه الدعاية تطبيقا لمبادئ تغيير الاتجاهات النفسية بوصفها سلاحا يمكن استخدامه لإضعاف إرادة العدو القتالية وبث الفرقة بين صفوفه من خلال التحكم في محتوى المعلومات الموجهة إليهم وفي عملية تداولها[1] بواسطة أدوات الإعلام وتقاناته المختلفة، ولهذا التحكم مستويات هي:–

أ–حجب معلومات بعينها تجنبا لما قد تحدثه هذه المعلومات من آثار إما إيجابية في نفوس الطرف المستهدف بالحرب كالتعتيم الإعلامي على خسائر أحدثها في موقعة ما من المعركة، وإما أثار سلبية في نفوس أفراد

---

[1] ليس في وقت الحرب فقط؛ وإنما في كل الأحوال، فقد كشف "شيللر"(١٩٨٦) أساليب هيئات الإعلام الأمريكية للسيطرة علي عملية تداول المعلومات في العالم كله، والتي من خلالها يتم تشكيل معتقدات الآخرين وسلوكهم وفق نماذج تخدم أهداف السياسة الأمريكية؛ وتحرص أمريكا علي استمرار هيمنتها الإعلامية هذه؛ حتى أنها انسحبت (ومازال انسحابها قائما) من "اليونسكو"–قبل ربع قرن مضى– لمجرد تفكير الأخيرة في نظام إعلامي يقلل هذه الهيمنة.

القائم بالحرب كوقوع أخطاء كما حدث في حرب الخليج الثانية حينما تعمدت هيئات الإعلام الأمريكية تقديم صورة بعينها لضرب العراق – وتكرر الأمر ذاته في أفغانستان– تظهر انطلاق الصواريخ وليس سقوطها حتى لا يظهر حجم الكارثة التي أحدثتها هذه الصواريخ بإصابتها مستشفيات أو مدارس...الخ، وقد كشفت سجلات الحكومة الأمريكية بعد الحرب أن ٧٠% من أطنان القنابل التي ألقيت على العراق والكويت لم تضرب الأهداف التي كان يراد ضربها (الدباغ،١٩٩٨: ٢٢٠)، كذلك يتم عزو حرص إسرائيل عزل بعض مناطق الضفة الغربية في إبريل ٢٠٠٢ – خاصة جنين– عن الإعلاميين إلى الهدف نفسه.

ب- تشويه المعلومات إما بحذف جانب منها وإما إضافة أجزاء إليها وإما إعادة ترتيب فقراتها بحيث يحدث ذلك تغييرا مقصودا في معناها مما يترتب عليه استنتاج بعينه يخدم أهداف القائم بالتشويه[1] (يظهر التاريخ الإسلامي دورا لليهود في هذا المضمار فيما يسمى "الإسرائيليات"،وفي الوقت الراهن تمارس إسرائيل هذا التشويه بمهارة شديدة ويقدم الواقع المعاش ووضع سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني أمثلة بارزة لذلك).

---

[1] لعب السفراء الأمريكيون عام ١٩٩٠ هذا الدور حينما قاموا بتمرير معلومات بعينها إلى العراق وتمرير أخرى مناقضة لها إلى الكويت حتى تفشل مفاوضاتهما بشأن حقل "الرميلة" واستعانوا في ذلك بوثائق وصور جوية مزيفة (الدباغ،١٩٩٨: ٢٢١) وتمارس حكومة "شارون" تزوير وثائق تظهر تورط فلسطينيين بعينهم في أعمال تصفها "إرهابية"، وتقدم الشهور الأولى لعام ٢٠٠٣نموزجا لحرب الوثائق التي مارستها أمريكا وبريطانيا في حربهما على العراق؛ لعل جلسة مجلس الأمن فبراير ٢٠٠٣ وبيان "كولن باول" فيها خير مثال.

ج-تقديم المعلومات بطريقة غامضة تساعد على تضارب الفهم والتأويل مما يرسخ الخلافات ويعمقها ويشعل الفتن(كما فعل المستشرقون بأحداث تاريخ الأمة الإسلامية ومصادر فكرها علي سبيل المثال).

د-إعاقة تبادل المعلومات بخلق صعوبات تمنع الاتصال المباشر بين شرائح الشعب وإثارة التشكيك المتبادل بينهم (لذا تبدأ أمريكا معاركها -كما حدث في العراق ١٩٩١؛٢٠٠٣ وصربيا ١٩٩٩- بتدمير شبكات الاتصال ووسائل الإعلام).

هـ- تضخيم الأخطاء التي وقع فيها أفراد المستهدف بالحرب واستغلالها للنيل من روحهم المعنوية، وهكذا توظف أمريكا بعض الحوادث التي ارتكبها - أو تدعي ارتكابهم لها- أفراد من جماعات ما يسمى "الإسلام السياسي" للنيل من الأمة العربية والإسلامية.

هذه مستويات التحكم في عملية تبادل المعلومات التي تعد لب الحرب النفسية.

بداية الاهتمام بالحرب النفسية:-

تشير عدة مصادر إلى أن الألمان هم أول من استخدم الدعاية كسلاح حربي [١] أثناء الحرب العالمية الأولى حينما ألقت طائراتهم- وكذلك المناطيد- منشورات خلف خطوط قوات الحلفاء وفي قلب لندن (Brown,1969: 82) ،إلا أن تعمد طرف إحداث تأثير نفسي معين في طرف أخر لخدمة هدف يقصده الطرف الأول أمر معروف منذ بدء الخليقة، ولعل "هابيل" أراد أن

[١] يشير المؤرخون إلى أن الفراعنة قد استخدموا الدعاية قبل سبعة وثلاثين قرنا،كما تضمنت المدونات الصينية في القرن الخامس قبل الميلاد وصفا لاستخدام القوة المعنوية في الحرب (الدباغ،١٩٩٨: ١٥).

يحدث هذا التأثير في نفس أخيه "قابيل" حينما قال له "إنما يتقبل الله من المتقين، إن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا باسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك..."(المائدة: ٢٧-٢٩) ويتضمن هذا الكلام – كما يقول ابن كثير (١، ١٩٨٠: ٥-٧) – موعظة له لو اتعظ وزجرا لو أنزجر. كذلك يروى أن أحد اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج؛ فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة؛ فبعث رجلا كان معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروب يوم "بعاث"؛ ففعل الرجل ولم يزل هذا دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا شعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى "الحرة"، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يسكنهم ويقول "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم"(المرجع نفسه،٢: ٨٥-٨٦).

وقد برع المسلمون الأوائل في استخدام هذا التأثير النفسي لإرهاب أعدائهم حتى إن ابن قتيبة قد أفرد في مؤلفه "عيون الأخبار" بابا للأساليب النفسية والمعنوية لإرهاب العدو عنوانه "مكايد الحروب وحيلها" يعد إرهاصا لنظرية متكاملة في الحرب النفسية (الدباغ،١٩٩٨: ١٦).

وكان الاتصال الشخصي (بالمواجهة) هو الوسيط المستخدم في الحرب النفسية حتى شهد منتصف القرن الخامس عشرة الميلادي تطورا مهما في مجال الدعاية تمثل في اختراع "جوتنبرج" Gutenberg الآلة الطابعة (Emery. et al, 1965: 55) مما ساعد علي سرعة طبع المنشورات والكتيبات الدعائية بأعداد ضخمة ليسهم في زيادة الاعتماد عليها كسلاح معنوي. والأمر ذاته تكرر أواخر القرن التاسع عشرة، حينما بدأ "لويس داجور" Daguerre تجارب خداع العمق والحركة من خلال إسقاط الصور الفوتوغرافية علي شاشة تمهيدا لصناعة السينما، واستمر تطوير هذه التجارب حتى

ظهرت الصور المتحركة سنة ١٩٠٣ ثم الفيلم الصامت في العقد الثاني من القرن العشرين فالسينما الناطقة بعد ذلك (المرجع نفسه: ٦٢).

وفي سنة ١٩١٧ أنشأ الرئيس الأمريكي "ويلسون" لجنة المعلومات العامة برئاسة خبير في الدعاية والإعلان يسمى "جورج كريل" مهمتها استخدام وسائل الدعاية المتاحة آنذاك – من صحف وكتيبات وملصقات وأفلام سينمائية – بهدف ترسيخ اتجاهات إيجابية متبادلة بين أفراد الشعب الأمريكي، وفي المقابل تكوين مشاعر واتجاهات سلبية لديهم نحو العدو أو كل من تعتبره الحكومة الأمريكية مصدر تهديد[1]، ويتم هذا التكوين وذاك الترسيخ بواسطة كل من:-

أ-ربط أفراد المجتمع بمظاهر المتعة ومصادرها مما يولد مشاعر مودة متبادلة بينهم.

ب- ربط أشخاص من العدو بخبرات الإحباط لإثارة مشاعر الامتعاض والكراهية ضدهم.

وخلال الحرب العالمية الثانية استعانت هذه اللجنة بفريق من علماء النفس برئاسة "كارل هوفلاند" لتخطيط برامج التخاطب داخل الجيش الأمريكي وإدارتها؛ وقد أدي استمرار هذا الفريق في إجراء بحوثه بعد انتهاء الحرب إلى تكوين مدرسة علمية – اشتهرت باسم فريق Yale – في مجال علم نفس التخاطب وتغيير الاتجاهات؛ أنتجت نظرية لتفسير الاستمالة ذات تطبيقات عملية عديدة (Petty & Wegner,1998) .

---

(١) ذكر "رامسفيلد" -وزير دفاع حكومة "بوش" الابن- منتصف عام ٢٠٠٢،أن لدى وزارته هيئة استخبارية مهمتها تلفيق أكاذيب ونشرها وفقا لخطط مدروسة -أي حرب نفسية- عن معارضي السياسة الأمريكية في العالم.

وفي صيف ١٩١٨ تأسس في الجيش البريطاني قسم Creaehouse لتطوير منحى علمي يستخدم الدعاية كسلاح حربي يهدف إلى تغيير صورة كل من الألمان والفرنسيين لدى الإنجليز، فقبل الحرب العالمية الأولى كان البريطانيون معجبين بالألمان ويرونهم أكثر تشابها معهم مقارنة بالفرنسيين الذين يمثلون العدو اللدود لإنجلترا عبر التاريخ. أما خلال الحرب فالصورة مختلفة إذ ألمانيا عدو وفرنسا حليف[1]، ومطلوب تغيير صورة كل منهما لدى البريطانيين إرساء لمشاعر التعاون مع الفرنسيين من ناحية ومشاعر العداوة والبغض نحو الألمان من ناحية أخرى (Winick,1996; Brown,1969: 83)، لذا شهد العام ١٩١٨ وحده إطلاق الإنجليز ألفين بالون دعاية يحمل كل منها ألف منشور؛ حتى انه خلال الحرب العالمية الأولي أسقط علي ألمانيا حوالي خمسة ملايين ونصف المليون منشور[2] (المرجع نفسه: ٩٤).

ودخلت الإذاعة كوسيلة للحرب النفسية منذ ظهر أول بث إذاعي من خلال محطة "واشنطن" في أمريكا سنة ١٩٢٠، وبعد قليل شارك التلفزيون حيث كان أول بث لصورة تلفزيونية من نيويورك إلى فيلادفيا سنة١٩٢٣، وظهرت أول محطة تلفزيونية عام ١٩٢٨ (Emery, et al, 1965: 63)؛ ومنذ ذلك الحين تلعب الصور التي يبثها التلفزيون

---

(١) شهدت الحرب العالمية الثانية أمرا مماثلا، إذ كان هدف الحرب النفسية الأمريكية خلالها تغيير صورة السوفييت لدى الأمريكان من صورة العدو إلى صورة الحليف، ثم تغير الهدف إلى النقيض خلال النصف الثاني من القرن العشرين.

(٢) يذكر أن القيادة الأمريكية ألقت ما يزيد علي أربعة عشرة مليون منشور علي القوات العراقية في حرب الخليج الثانية (الدباغ،١٩٩٨: ١٩٩)،والأمر تكرر في أفغانستان عام ٢٠٠١، وفي العراق ٢٠٠٣ حتى أن الطائرات أسقطت ١٧ مليون منشور ليلة بدء العمليات العسكرية أي ليلة ٢٠٠٣/٣/٢٠.

دورا جوهريا في الحرب النفسية؛ والمثال الأبرز لهذا الدور ما حدث ببغداد يوم ٢٠٠٣/٤/٨ من تركيز للصورة على مشاهد ضرب بعض مكاتب القنوات الفضائية؛ لإعطاء الانطباع بالأسوأ؛ ثم مفاجأة الجميع ٤/٩ من تركيز الصورة في ساحة الفردوس وتكثيفها على إسقاط تمثال الرئيس العراقي لإحداث الهزيمة في نفوس الجميع دون خسائر،إن هاتين الصورتين تجسدان الحرب النفسية من خلال الصور التلفزيونية.

وقد نشطت خلال الحرب العالمية الثانية هيئة الإذاعة البريطانية BBC في مجال الحرب النفسية فأسهمت في نشر شائعات حول زعماء النازية والفاشية، ومنذ سنة ١٩٤٢ حدث تزاوج بين الإذاعة البريطانية وإذاعة أمريكا الموجهة لا وربا (وكانت تبث من نيويورك وسان فرانسيسكو) ثم انطلق صوت أمريكا – للغرض ذاته – من لندن سنة ١٩٤٤ ثم لاحقا من شمال إفريقيا ونورماندي لتنفيذ خطط الحرب النفسية ضد السوفييت خلال الحرب الباردة.

ووظفت الصهيونية العالمية كل خبرات الحلفاء خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الباردة، ونجحت في تغيير الرأي العام العالمي لصالحها على مدى تاريخ الحركة الصهيونية، وتعكس قرارات مجلس الأمن ومواقف حكومات الدول الغربية نجاح الدعاية الإسرائيلية ويمثل ذروته وضع سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني مطلع ٢٠٠٢ والذي يعكس استفادة إسرائيل من ترسيخ المماثلة بين هذه السلطة وحكومة طالبان وبين منظمتي حماس والجهاد وتنظيم القاعدة.

ولا يمثل الأمر إخفاقا تاما للعرب في هذا المجال، فقد شهدت الفترة فيما بين نكسة ١٩٦٧ ونصر أكتوبر ١٩٧٣ تفوقا مضادا للمصريين الذين

نجحوا في تجاوز الدعاية الإسرائيلية التي استثمرت الهزيمة وما أحدثته من إحباط لمحاولة تدمير الروح القتالية للجيش المصري وإقناع جنوده باستحالة قدرتهم على مواجهة جيش لا يقهر؛والسعي إلى توجيه كراهيتهم الناتجة عن الإحباط إلى قادتهم (لعل حملة "النكات" التي راجت في مصر عقب النكبة تكشف ذلك)؛إلا أن سلاح الحرب المعنوية في الجيش المصري نجح في إفشال الدعاية الإسرائيلية كما تمكن من رفع الروح المعنوية للمصريين وتوجيه غضبهم نحو العدو ويعكس نصر أكتوبر هذا النجاح.

كذلك شن التلفزيون اللبناني في فبراير ٢٠٠٠ حملة دعائية ضد الحكومة الإسرائيلية موظفا المقارنة بين الوزير "ليفي" والزعيم النازي "هتلر" حيث أبرزت الحملة باستخدام الصور التشابه بينهما في الصراخ والإشارات ودلالات ما يقولان. كذلك يشكل اختراق لبنانيين (من حزب الله)[١] وفلسطينيين مواقع إسرائيلية في شبكة الإنترنت وتشويه مضمونها، بل واستدراج أفراد إسرائيليين تحقيقا لأهداف معينة (الأسر أو القتل) يشكل هذا الاختراق تفوقا وعيا للعرب في ميدان الحرب النفسية فيما يسمى حرب "الهاكرز".

أهداف الحرب النفسية:-

تعد الحرب النفسية مبادرة طرف ما بعرض موقفه أو وجهة نظره على جمهور بعينه يغرض استمالته إلى تبني الموقف أو وجهة النظر هذه ورفض غيرها(Winick, 1996)،لذا هي نوع من الدعاية[٢] يتغير

---

(١) نجح حزب الله عام ٢٠٠٠ في استدراج – عبر الإنترنت – أحد ضباط المخابرات الإسرائيلية إلى لبنان ومن ثم أسره.

(٢) تعد الدعاية propaganda هي الاصطلاح الأكثر ذيوعا في النصف الأول من القرن العشرين،إذ حل محله بعد ذلك مصطلح الاستمالة Persuasion وتغيير الاتجاهات (Petty & Wegner, 1998) .

مضمونها وأهدافها باختلاف الجمهور الذي تستهدفه؛ وهكذا تصبح أهداف الحرب النفسية علي النحو التالي:-

١-منها ما يستهدف أفراد العدو بواسطة ما يلي:-

أ- تضخيم أخطاء وقع فيها بالماضي واستغلالها للنيل من الروح المعنوية لأفراده لتثبيط همهم (الهاشمي،١٩٨٩: ٢٧٢).

ب - تلفيق أخبار وبث شائعات و فكاهات (نكات) تعمل علي إشاعة الفرقة بين قطاعات العدو وإثارة الشك داخلهم لإضعاف إيمانهم بقضيتهم ومبادئهم؛وهنا يميز أهل الاختصاص بين ثلاثة أنواع للحرب النفسية هي:-

١) الاستراتيجية، التي تسعى إلى تحطيم كامل لإرادة المستهدف بالحرب من خلال حملة شاملة وممتدة زمانا ومكانا لجعل وضع معين أمرا واقعا (ويتعرض المسلمون لحرب نفسية من هذا النوع ترسخ وضع الضعف والتشرذم).

٢) التعبوية، وتسعى للإسراع باستسلام العدو من خلال بث الشك في إمكانية صموده وإشاعة اليأس في تحقيق النصر وزعزعة الإيمان بالمبادئ والتقليل من فعالية عملياته وخلق حالة التذمر بين مقاتليه والتشكيك في قياداتهم وإيجاد رافضين للحرب مناوئين لحكوماتهم يدعون إلى الاستسلام أو الفرار (تشهد الأراضي الفلسطينية هذا النوع من الحرب النفسية وكذلك العراق).

٣) التعزيزية، التي تستخدم أساليب الترهيب والترغيب لإقناع المهزوم والمستسلم بأن وضعه الحالي نهائي وأن مصلحته مرتبطة بتقبله هذا الوضع وتعاونه مع المنتصر فيها (وتشهد

فلسطين المحتلة هذا النوع من الحـرب (الـدباغ،١٩٩٨: ٤٨-٥٠).

٢- ومنها ما يستهدف شعب القائم بالدعاية؛ مثل:-

أ-شحن مشاعر الكراهية نحو أفراد الطرف الأخر وتكثيفها ضدهم.

ب-المحافظة على الروح القتالية لأفراد المجتمع؛ ليس هذا فحسب؛ بل العمل على زيادتها بشكل تصاعدي مع اسـتمرار الحـرب قائمـة *(Brown, 1969: 82)*.

ج- تهيئة الشعب لتحمل مخاطر حرب قد تقع (أو التعرض لسلاح لـم يستخدم بعد في صراع قائم كالسلاح النووي)؛ ونموذج لهذه التهيئة جهود كل من: هيئة الخـدمات الإذاعيـة زمـن الحـرب WTBS – والمنظمة البريطانية للتحذير والمراقبة UKWMO التي نشطت خلال النصف الثاني للقرن العشرين؛ وتفرع عنها أكثر من ٣٠٠ألف لجنة عسكرية إضافة إلى عدة مجموعات من المتطوعين، وأسفرت هـذه الجهود عن إنتاج أفلام ونشرات وتنفيذ حمـلات متتابعـة لكشـف مخاطر حدوث انفجار نووي وتوعية الجمهور بكيفية التعامـل مـع نتائجه (Fox, 1996).

٣- *ومنها ما يستهدف طرفا ثالثا لا يشارك في الحرب*، بغرض الحفاظ على حياده في البداية ومن ثم جذبه إلى تبني موقف القائم بـالحرب كسبا لدعمه (Winick,1996) لذلك تركز الحملة الموجهة إليـه علـي إبراز التشابه بينهما وتقوية روابط الصداقة بين شعبيهما وتنميتها.

المبادئ التي تستند إليها الحرب النفسية:-

الحرب النفسية إذن هي نوع من الدعاية الموجهة إلى جماهير أطراف ثلاثة، هذه الدعاية تمثل مبادرة أحدها بتهيئة الجو لشن الحرب، هذه المبادرة تكتسب أهميتها في أنها تجنب القائم بالحرب أن يصبح في موقف الدفاع، فالمؤرخون يرون أن ألمانيا النازية فقدت المبادرة في الحرب النفسية وبدد قادتها جهودهم في الرد على الدعاية المضادة، ويعد هذا أحد العوامل التي أسهمت في هزيمتها (Brown, 1969: 86). ويتوقف نجاح هذه المبادرة على استفادة الحملات الدعائية من مبادئ الاستمالة وأسس تغيير الاتجاهات النفسية بما في ذلك فهم الخصائص الثقافية والنفسية للجمهور الذي تستهدفه، من هنا ضرورة إنشاء لجنة خبراء من تخصصات علمية متنوعة مهمتها وضع الأهداف العامة والمرحلية وخطط تحقيقها سواء على الأمد البعيد أو القريب في ضوء كل من:- مبادئ الاستمالة – وخصائص الجمهور الذي تستهدفه ؛إذ تختلف المبادئ العلمية التي يمكن أن توظفها الحرب النفسية تبعا للجمهور المستهدف علي النحو التالي:-

أولا:- في حال كون الدعاية موجهة إلى جمهور القائم بها أو جمهور محايد، يكون التركيز على ما يلي:-

١- ربط المعركة المزمع دخولها بنبوءات أو أفكار معينة تعمل على انتزاع – لاستنادها إلى نسق فكري "أيديولوجي" معين – التسليم المسبق بوجوبها وربما قدسيتها، أمثلة هذا الربط ادعاء أوربي العصور الوسطى أن معركتهم ضد المسلمين إنما هي لتحرير مهد المسيح من الكفار فيما سمي "الحروب الصليبية" بجولاتها المتعاقبة، مثال أخر يتمثل في الدعاية الإسرائيلية الموجهة إلى الغرب المسيحي ومؤداها أن معركة إسرائيل ضد

العرب هي نفسها الحرب التي تنبأ بها الإنجيل من أن معركة ستنشب بين أهل الخير (اليهود) وأهل الشر (العرب)،الأمر الذي مكن إسرائيل من حصد دعم لا محدود من المسيحيين لعل صورته الصارخة تقدمها الولايات المتحدة (انظر أحاديث الرئيس "بوش" الابن واستخدامه ألفاظ مثل الحرب الصليبية ومحور الشر).

٢- تبرير الدخول في المعركة كما فعلت الولايات المتحدة في حرب الخليج الثانية ؛وكذلك فيما تسميه "الحرب ضد الإرهاب" التي بدأتها من أفغانستان عام ٢٠٠١؛ إذ قال قادتها أنهم قاموا بالحرب لإنهاء المعارك القائمة ولتحقيق العدالة (المطلقة) وجعل الجميع يتمتع بالحرية والأمن والسلام والديمقراطية. وجزء من هذا التبرير هو تضخيم قوة الخصم وإبراز وحشيته كما فعل منفذو الدعاية البريطانية حينما صوروا هجوم ألمانيا على بلجيكا أثناء الحرب العالمية الثانية بأنه هجوم جيش جرار على صبي صغير(المرجع نفسه)، وكما فعلت الدعاية الأمريكية أثناء حرب الخليج الثانية برسم صورة للرئيس العراقي تربطه ب: "هتلر"،وربط الشخصيتين هو ربط لصورة الدمار الذي لحق بأوربا على أيدي "هتلر"؛والذي ينتظر العالم على أيدي "صدام"؛ وهو ربط قصد به حشد العالم ضد العراق كما كان ضد "هتلر" (الدباغ،١٩٩٨: ٢٣١).

٣- وحجر الزاوية في التبرير هذا هو إبراز الصورة الوحشية للخصم (توظيفا لنتائج بحوث تكوين الانطباع والإدراك الاجتماعي)؛ استنادا إلى مبدأ نفسي هو التنميط أو القولبة stereotyping أي عرض متكرر لصورة مسطحة وخاطئة ومفرطة التبسيط في مضمونها عن الشعب المستهدف؛ تتجاهل التنوع بينهم؛ ويتم تناقلها دون مطابقتها مع خبرات مباشرة – إن وجدت – مع أفراد من الشعب المستهدف (شحاته،٢٠٠١: ٢٦-٢٧)؛

وهذه الصورة النمطية تضخم ملامح بعينها حتى تبرز دلالة معينة كالقسوة والجهل والبدائية ... وما شابه كي تستثير رفض متلقيها وكراهيته وتعصبه ضد كل من يتشابه مع هذه الصورة، وهكذا تقدم وسائل الإعلام الإسرائيلية – الروايات والأفلام السينمائية والتلفزيونية وأفلام الرسوم المتحركة والإعلانات – أو المتحالفة معها كل ما هو مثير للكراهية في صورة العربي المسلم [1] وتسمه بالجبن والتخاذل والنفاق والتبذير والانقياد للشهوات والتخلف وتفويت الفرص للتقدم والسلام...الخ.

ثانيا: وفي حال كون الجمهور العدو هو المستهدف بحملات الحرب النفسية؛ يتم الاستناد إلى ما يلي:-

١-خلق حالة من الصراع النفسي (من نمط "الإقدام – الإحجام أو الاقتراب – الابتعاد) لدى الجنود بواسطة محتوى دعائي يؤكد تعرضهم لحرب مدمرة لا تبقي ولا تذر فخصمهم لا يقهر ولا أمل في مواجهته؛هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تبرز الدعاية إمكانية النجاة من القتل وحماية الأهل بالفرار أو الاستسلام (يعكس الجدل المثار عام ٢٠٠٢ حول جدوى العمليات الاستشهادية في فلسطين المحتلة استغلال الدعاية الإسرائيلية هذا المبدأ).

٢-استغلال الحاجات الأساسية الأولية كحافز الجوع والعطش...الخ لتحطيم معنويات الأفراد وإذلال القادة وتحقيق مكاسب تفاوضية؛ وتمارس

---

[1] كغلاف الكتاب الذي عنونه "ليون يوريس" "الحاج"ويمثل صورة عربي مسلم يشكل الخنجر – رمز الغدر والطعن من الخلف – جزء أساسي منها ، ومثال أخر هو أحد "أقنعة الوحوش" التي طرحتها مجموعة محلات "بارتي سيتي" ويمثل وجه شيخ عربي يحمل ملامح شريرة وأسنان وحش بارزة ويرتدي كوفية وعقال (الدباغ،١٩٩٨: ٢٧٥؛٢٨٠).

إسرائيل هذا باستمرار لعل أبرز الأمثلة استغلال تمرير المؤن إلى الجيش الثالث الميداني المصري عام ١٩٧٣ تفاوضيا ودعائيا لتحطيم معنويات المصريين ورفع معنويات الإسرائيليين، كما يقدم حصار كنيسة المهد في إبريل ٢٠٠٢والاستغلال التفاوضي لحاجة المحاصرين إلى الماء والطعام مثالا أخر.

٣-إثارة الأزمات - المعيشية أو الاجتماعية - داخل المجتمع بواسطة تلفيق الأخبار وترويج شائعات وفق جدول زمني مدروس فمن خلالها يتم:-

أ- التلاعب بمشاعر الأفراد وأحاسيسهم وتوجهاتهم.

ب- رصد ردود أفعالهم وتحليلها للتعرف علي قوة الجبهة الداخلية وتماسكها (من هنا تسمى "بالونات اختبار").

ج- صرف الانتباه نحو قضايا أقل أهمية (من هنا اختيار توقيت إطلاقها،واعتادت الساحة الإسلامية إثارة قضايا جانبية بقصد صرف الأنظار عن وضع ما).

د- إحداث بلبلة وفوضى نتيجة التشتيت الذهني الذي تسببه الشائعة (الطريري،١٩٩٣: ١٢٤-١٢٥).

والإشاعة rumar هي حكاية تتداولها الألسنة أو عبارة يتناقلها الأفراد وهي قابلة للتصديق دون وجود معايير مؤكدة لصدقها وتكتسب قوة انتشارها من مصدرين هما:- أهمية موضوعها - والغموض المصاحب لوقائعها نتيجة تضارب الروايات وتوتر المتلقين لها أو تعرضهم للإحباط .(Emery, et al, 1965: 64)

لذا يتم البدء بنشر وقائع يثبت صدقها حتى يكتسب مصدرها المصداقية وثقة متلقيها (مستفيدا من خصائص المصدر الفعال كما كشفت عنها بحوث الاستمالة) فيصبح مصدره المفضل ومن ثم استغلال هذا كغطاء

لترويج أكاذيب، وهكذا تفعل هيئات الأعلام اليهودية ضد العرب وكذلك وكالات الدعاية الأمريكية ضد معارضي السياسة الأمريكية.

والسؤال المهم هو لماذا يتقبل الجمهور الإشاعات ؟، ربما لأن:-

أ- الإشاعة في جزء منها إسقاط لاندفاعاتنا.

ب- يساعد تقبلها في تبرير بعض ما قمنا به من قبل.

ج- لدينا ميل تلقائي لملء الفجوات الناتجة عن نقص معرفتنا بالحدث موضوع الشائعة فنتقبلها لحاجتنا إلى الاتساق والغلق الادراكي.

د-الحرب موقف مشقة يفجر نزعات بدائية لدى الإنسان؛ ويعد تقبل الشائعة تنفيسا عن هذه النزعات (Brown, 1969:86).

وترويج الشائعات يوظف نتائج تجارب نفسية تسمى "الإعادة المتسلسلة" والتي تثبت الميل التلقائي لدى البشر لإعادة بناء ما سمعوه (كما هو حال الشائعة) أو شاهدوه عند تذكره، فحينما نتعرض لعدد من المنبهات - كرؤية وقائع حادث سير مثلا- فإننا لا نراها متفرقة بل ندركها علي أنها تدخل في علاقات فيما بينها مكونة أبنية وفقا لعدد من المبادئ الادراكية كالتقارب والتماثل، والأمر ذاته يحدث عندما نسمع خبرا أو رواية(شائعة)؛ فأية حدث أو خبر ندركه له وقائع أساسية تحتل بؤرة الشعور؛ وأخرى فرعية تقع في هامش الشعور؛ وعند استعادة الخبر أو الحدث ننسى غالبا وقائعه الفرعية ونتذكر الأساسية فقط، وفي هذه الحال تكون روايتنا للخبر منقوصة وغير متسقة؛ فنعمل علي جعلها متكاملة ومتسقة فنملأ الثغرات بإضافات من عندنا بناء علي اتساق هذه الإضافات مع الوقائع الأساسية التي نتذكرها، وهكذا يضيف الفرد ويحذف في روايته لحدث ما وفقا لمبدأ التنظيم الذاتي لما يتذكره عند نقل الخبر(عكاشة، ١٩٨٢: ٢٧)، ويعكس هذا التنظيم

رغبات الفرد – الراوي – وتوقعاته وأرائه وانطباعاته عن أطراف الحدث الذي يرويه؛ إذ تظهر الدراسات أن الأفراد يتذكرون في العادة النقاط المنسجمة مع آرائهم ويتناسون تلك التي تتعارض معها، هذا ما كشفت عنه تجارب الإعادة المتسلسلة والتي كان يروي فيها المجرب قصة للشخص (أ) الذي يحكيها بدوره للشخص (ب) وهو كذلك يذكرها للشخص (ج) ...وهكذا دواليك حتى تعود الحكاية إلى المجرب مرة أخرى بعد سلسلة من الاعادات، وتدل النتائج أنه حتى في ظل العدد المحدود من الإعادة (خمس مرات في التجربة) تصبح القصة مشوهة إلى حد كبير وتصبح روايتها فقيرة مختصرة وجملها قصيرة وأكثر عمومية وأقل دقة (خصائص الشائعة) وتزداد الأخطاء نتيجة الخلط وتبديل الإطار الزماني والمكاني وتغيير الأسماء والتواريخ(كلنبرج،١٩٦٧: ٣١١-٣١٢).

وهذا ما يحدث تماما في حال إطلاق الشائعات وما يتبعها من إعادة متسلسلة يترتب عليها الحذف والإضافة مما يغير في محتواها ويسبب الخلط؛ والذي يطلق الإشاعة يعي هذا المبدأ وتلك الكيفية ويوظفهما لإحداث البلبلة والارتباك بين فئات الشعب.

٤- إذاعة أفكار منحرفة (تعارض العرف السائد في المجتمع) لضرب تماسك المجتمع وخلق حالة من التنافر بين شرائحه (مثل: تنويريون وظلاميون) تكون بذرة لصراع يتصاعد ويقدم أرضا خصبة لمحاولات العدو ليس إضعاف المجتمع فحسب بل تفتيته، وكذلك ترويج عادات مرزولة ومرضية كتعاطي المخدرات، فقد استخدمته بريطانيا قبل أكثر من قرن للتحكم في الصين فيما سمي "حرب الأفيون" ؛وقدمت أمريكا مساعداتها – في الربع الأول من القرن العشرين- إلى الصين في

مكافحتها لتعاطي الأفيون وتناقله إضعافا لمركز بريطانيا [1] ،مثال أخر لاستخدام المخدرات كسلاح يتمثل في كم ما يضبط منها بمنطقة سيناء مصر مما يشير إلى سعي إسرائيل إضعاف المصريين من خلال تهريب المخدرات وترويجا بينهم؛ يؤيد هذا شهادة ثمانية ضباط إسرائيليين [2] تكشف أن الجيش الإسرائيلي قام وعلي مدى عشرين عاما متواصلة بحملات ترويج الحشيش في مصر.

وتعد المخدرات وسيلة لتحقيق هدف مزدوج؛فهي من ناحية تضعف قوة الخصم نتيجة تأثيرها الضار بجسم وذهن وإرادة المتعاطين لها كما تهدد الأمن الاجتماعي إذ تأمين الحصول علي المخدر يعد الباعث الأول لارتكاب الجريمة(عرض البحوث التي تثبت ذلك: شحاته،١٩٩٨: ٨-١٢)،ومن ناحية أخري تغد المخدرات مصدرا لتمويل القوة المروجة لها حيث النقود (الثروة) مصدر للقوة[3].

٥- ولأن الذاكرة الإنسانية محدودة الوسع فان تزاحم التفاصيل يؤدي بها إلى النسيان؛ لهذا كان حرص الدعاية علي استدراج الرأي العام الإقليمي والعالمي إلى تفاصيل تصرف انتباهه عن القضية الأصلية أو الأساسية موضوع الصراع حتى تنسى، ولعل الوضع الفلسطيني نموذجا لاستغلال السياسة الصهيونية هذا المبدأ؛ فقد نجحت في تحويل الانتباه من فلسطين ١٩٤٨الي الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧إلى الوضع قبل ٢٠٠٠/٩/٢٨إلى الوضع قبل ٢٠٠٢/٣/٢٩إلى شرعية الرئيس

---

[1] www.drugwar.com/2-8-2002

[2] نشرتها جريدة "صنداي تايمز" اللندنية في عددها الصادر يوم ١٩٩٦/١٢/١٢.

[3] اعتمد جيش كولومبيا علي ترويج المخدرات كمصدر تمويل ولتحقيق أنشطة سياسية، انظر: تقرير "الجيش النشط" www.drugwar.com/2-8-2002.

عرفات؛ كذلك من قرار التقسيم إلى القرار ٢٤٢ إلى "كامب ديفيد" الأولى إلى "مدريد" ثم "أوسلو" فشرم الشيخ وتقرير "ميتشل" وخطة "تينت" وورقة "باول" ورؤية "بوش" وخارطة الطريق....وهكذا.

هذه بعض المبادئ التي تقوم عليها الحرب النفسية،والتي يتعرض مسلمو اليوم لأكثر حملاتها شراسة مما أدى بهم إلى أن أصبحوا غثاء - بالرغم من كثرة عددهم وعتادهم -كغثاء السيل؛ وأن استعادة قوتهم - بعد ضعف - يقتضي فهم أسس الحرب النفسية حتى يمكنهم تجنب آثارها؛ ليس هذا فحسب؛ بل ورد الحملات إلى نحور أعدائهم.

المصــــــادر

- ابن كثير (١٩٨٠) تفسير القرآن الكريم. بيروت: دار الأندلس (ط.ثانية).
- الدباغ، مصطفى (١٩٩٨) المرجع في الحرب النفسية. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الطريري، عبد الرحمن (١٩٩٣) العقل العربي وإعادة التشكيل.الدوحة: كتاب الأمة(٣٥).
- الهاشمي،عبد الحميد (١٩٨٩) المرشد في علم النفس الاجتماعي.جدة: دار الشروق(ط.ثانية).
- سويلم، حسام (٢٠٠٢)أكذوبة التفوق الإسرائيلي.الأهرام العربي،٢٦٣: ٢٨-٢٩(٢٠٠٢/٤/٦).
- شحاته، عبد المنعم (١٩٩٧) خلافات المسلمين: رؤية نفسية. المسلم المعاصر، ٨٤: ١٣٧-١٧٤.
- ---------- (١٩٩٨) سيكولوجية التدخين. القاهرة :دار غريب.
- ---------- (٢٠٠١) آنا والآخر: سيكولوجية العلاقات المتبادلة. القاهرة: ايتراك.
- شيللر، هربرت (١٩٨٦) المتلاعبون بالعقول(ترجمة: عبد السلام هارون). الكويت: عالم المعرفة (١٠٦).
- عكاشة،أحمد (١٩٨٢) علم النفس الفسيولوجي. القاهرة: دار المعارف.
- كلينبرج، أوتو (١٩٦٧) علم النفس الاجتماعي(ترجمة: حافظ الجبالي).بيروت: مكتبة الحياة.

-Winick, C. (1996) Propaganda (p. 714) In: R. Cporsini & A. Auerbach (eds.) Concise encyclopedia of psychology. NewYork: Wiley & sons.

-Petty, R. & Wegner, D. (1998) Attitude change. (pp.323-390) In: O. Glbert; S. Fiske & G. Lindzy (eds.) The handbook of social psychology. Boston: McGraw-Hall.

-Fox, S. (1996) Beyond the war plan UK: Civil defense in the 1980s>Subterranea Britannica (www.drugwar.com/2-8-

خامسا: استشراف المستقبل

يطلق على هذا المجال عدة مسميات مثـل: بحـوث المسـتقبليات futuristic – والمستقبلية futurism – وعلم المستقبل futurology ، وكانـت البداية الفعلية له نهاية الحرب الثانية؛ حينما وضع "هرمان كاهن" H.Kahn وآخرون –أواسط القرن العشرين– أساليب توقع الضربات العسكرية بواسطة تحليل الاحتمالات؛تلته جامعة "هيوسـتن" ببرنامجهـا لدراسـة المسـتقبل، وبعدهما شاعت دراسة المستقبليات؛حتى أنه تصدر الآن مجلة نصف شهرية تسمى "المستقبلي Futurist "؛ كما حققت كتب المستقبليات أعلى المبيعـات*، وأسس المهتمون بهذا المجال جمعيات ومنتديات دولية؛ أحدها وهو "المنتدى الاقتصادي العالمي لقادة الغد الكبار"يعقد لقاء سنويا منذ سبعة وثلاثين عاما لاستكشاف المشكلات التي ستواجه العالم في الغد القريب من خلال تحليـل مسارات إدارة القضايا الدولية وفحص العائد ووضع استراتيجيات التنبؤ (www.newsweek.msnbc.com/26-8-2002).وفي القاهرة مكتب فرع الشـرق الأوسط لمنتدى العالم الثالث؛وقد أصدر ١٩٩٩ تقريرا عن "الأسس النظرية والمنهجية لسيناريوهات مصر ٢٠٢٠".

وتعد العلوم جميعها –بما فيها علم النفس– توجهـا للمسـتقبل إذ يسعى كل منها إلى تحليل مسار الظواهر التي يدرسها والتنبؤ بها كأسـاس للتعامل الكفء معها؛ ولا يقتصر هذا على العلماء فحسب بل يعد كـل فـرد متوجها نحو المستقبل إذ يرى "لينز" Lensأن الدافعية توجه للمستقبل لأنهـا تدفع الفرد للقيـام الآن بمهـام متتابعـة يحقـق بهـا أهـدافا مسـتقبلية (Fontaine,1998).

* مثل "الربيع الصامت" ل: "راشيل كارسون" عام ١٩٦٢،و"صدمة المستقبل" ل: "ألفين توفلر" سنة ١٩٧٠،و"حدود النمو" ل:معهد "ماسيتوشتس" ونادي روما سنة ١٩٧٢.

ويقترح المقال التالي استراتيجية لاستكشاف المستقبل مـــن خـــلال إدراك تناقضات الحاضر.

Fontaine, A. (1998)The development motivation (PP.351-398) In: A.Demetriou,W. Doise & C. vanLieshout (eds.) Life-span developmental psychology. Newyork: Wiley & Sons

-٨-

إدراك تناقضات الحاضر كخطوة لاستكشاف المستقبل *

" المستقبل: كم هو مهم،
فالماضي قد ذهب، والحاضر إلى انتهاء ،
وكل ما نفعله الآن، أو حتى نفكر فيه، يؤثر فقط في المستقبل"

مقدمة :

طبقاً لعلماء مناهج البحث، فإن الإحساس بتعارض معلوماتنا الآن، مصدر مهم للتفكير في إجراء بحوث تحسم نتائجها هذا التعارض مستقبلاً وتعيد صياغة معرفتنا العلمية (١)، وقياساً على هذا، فإن التخطيط للمستقبل يبدأ بإدراك مدى التناقض في الحياة اليومية لأفراد المجتمع، إذ يحمل هذا التناقض بين طياته أفاق المستقبل، لأنه مظهر لمشكلات تواجه المجتمع الآن، وتدفعه للبحث عن حلول لها، تشكل هذه الحلول أسلوب الحياة في المستقبل القريب، كما تمثل هذه الحلول تنبؤات بمسار التغير الاجتماعي وتوقع أحداثه، وهكذا يمكن استكشاف مستقبل المجتمع من خلال فهم آليات التغير الاجتماعي الذي يعايشه في الحاضر(٢) هذا التغير الذي يبدأ بإدراك مدى التناقض في جوانب الحياة الاجتماعية، وتحديد مظاهره ثم محاولة مواجهته والتغلب عليه، وهذه المواجهة تحدث تغييراً اجتماعيا، ويعد المستقبل هو الحصيلة التراكمية لهذه التغيرات ٠

من هذا المنطلق تأتي أهمية هذا البحث، والذي يسعى لمعرفة ما إذا كان ذاك التناقض موجوداً أم لا ؟ وتتدرج محاولة الإجابة عن هذا السؤال ضمن الدراسات المستقبلية التي تتسم بموضوعية تحليلها ودقته لمعطيات الواقع واتجاهات أحداثه (٣) ٠

---

* ألقي في المؤتمر العلمي الرابع بكلية الآداب – جامعة المنيا ١٨- ١٩٩٣/١٢/٢٠ ٠

والاهتمام بالمستقبل، والرغبة في معرفة ما يخبئه *، هدف الإنسان منذ بدء الخليقة، وتطور أسلوب تفذيره بهدف التنبؤ بأحداث المستقبل من الاعتماد على تكهنات العرافين وخرافات المنجمين إلى تأملات الفلاسفة وتخيلاتهم للمدن الفاضلة إلى الاعتماد على أسلوب البحث العلمي المتمثل في ظهور علم استقراء المستقبل Futarology ** (٤)، ويرجع استخدام هذا المصطلح إلى عام ١٩٦٦ حينما عنون المؤرخ الألماني " فلختهايم " Flachetim كتاباً بعنوان " التاريخ وعلم المستقبل"، وأن كان عالم الاجتماع "جلفن"- وفي سنة ١٩٠٧ - هو أول من أطلق اسماً على العلم الذي يحاول تحديد مدى دقة التنبؤات بالمستقبل حينما أسماه "ملنتولوجي" واشتقها من لفظ "مستقبل" باليونانية. ومع هذا التأخير في إيجاد اسم للنسق العلمي الذي تنتظم فيه محاولات الإنسان استكشاف المستقبل، إلا أن البداية المنظمة له بدأت أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وتحديداً عندما نشر توماس مور "Maore" كتابه "يوتوبيا "،(٥) والذي تلته محاولات عدة لفلاسفة مثل فرنسيس بيكون، وبرنارد "فونتنيل وسباشيان رسييه وأدباء مثل جول فيرن وجورج ويلز وليام ستابلدون، وعلماء اقتصاد مثل "مالتوس"، وعلماء اجتماع مثل "جلفن" .. وغيرهم . (٦)

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، والتوسع في استخدام الحاسبات الآلية ، كأداة لمعالجة المعلومات، والتي تطورت تقنياتها تطوراً متلاحقاً مكنها من التعامل مع كل جوانب الحياة بشكل أدى إلى أحداث تغييرات اجتماعية هائلة (٧)، ترتب عليها تسارع خطي العلماء في استكشاف المستقبل، وتعددت محاولات

---

* ويعد جزء أساسياً من أي تفكير يتسم بخصائص المنهج العلمي، إذ أن أحد أهداف العلم الأساسية، وأحد مؤشرات تقدمه، هو التنبؤ بالظواهر، أي توقع التغير في ظهورها أو في مصاحباته. وباعتبار أن علماء النفس يتبعون المنهج العلمي في بحوثهم ، فأحد أهدافهم التنبوء، على الرغم من ظهورها من يصفون علم النفس بأنه علم تشخيصي وليس تنبوياً (٥) .

** وابتكر العالم الفرنسي " جاستون برجيه " مصطلح بديلاً هو Prospctive

العلماء في ذلك ، حتى أن أحدهم وهو " ألفن توفلر " قدم وحده ٠ وخلال عشرين عاماً خمسة مؤلفات هي" صدمة المستقبل (١٩٧٠)، التعليم من أجل المستقبل (١٩٧٤)، الرجال المستقبليون (١٩٧٧) الموجه الثالثة (١٩٨٠) مفصل التاريخ (١٩٩٠) " * [٨] ٠ وفي أبريل ١٩٦٨ أنشئ ما يسمى "نادي روما" وهو مجموعة من العلماء يعملون بشكل تطوعي محاولين رسم مستقبل بديل للعالم إذا عدل توجهاته السياسية والاقتصادية والسكانية،وقد نشر تقريرين في هذا الصدد عنون أحدهما "حدود النمو" (١٩٧٢) وعنون الآخر "البشرية في مفترق الطريق" (١٩٧٤)، وتلافياً لأوجه تحيز هذين التقريرين لسكان العالم المتقدم، فقد قدمت مؤسسة "باريلوتش " للأبحاث – وتقع جنوب غرب الأرجنتين – نموذجاً بديلاً في تقريرها المعنون "كارثة ٠٠ أم مجتمع جديد: " نموذج أمريكا اللاتينية" (١٩٧٦)[٩]ومنذ ذلك الحين، حظيت الدراسات المستقبلية باهتمام الباحثين من مختلف التخصصات العلمية، وفي شتى بقاع الكرة الأرضية، فعلى سبيل المثال، وخلال العقد الماضي تعددت محاولات استكشاف مستقبل للمنطقة العربية، ووضع نماذج لتوقع الأحداث التي ستلم بها في السنوات القادمة، وقد تنوعت هذه المحاولات باختلاف كل من القائمين بها، والهيئات الممولة لهم، ومستوى المحاولة ومضمون خطابها ٠[١٠] والمحاولات المعاصرة لاستكشاف المستقبل، العربية منها والأجنبية، تتميز بأنها [١١] :

أ– تعبر عن جهد جماعي تموله إما هيئات حكومية (أو إقليمية أو دولية) أو مؤسسات رأسمالية محلية أو عابرة للقارات ٠

ب– تقدم نماذج عالمية للتنبؤ بأحداث ستقع لمجتمع ما (أو لتجمع إقليمي من عدة دول أو للعالم) في مدى زمني محدد، استقر باحثوا المستقبل على أن يكون كما يلي :

---

* تبعها سنة ١٩٩٣ ، كتابة "تحول السلطة" وكتاباً آخر وضعه بمشاركة زوجته عنوانه "الحرب ونقيضها" ٠

١- عاميين من الآن (المستقبل المباشر)
٢ – أو خمسة أعوام (المستقبل القريب) ٠
٣ – أو أكثر من عشرين عاماً وأقل من خمسين سنة (المستقبل المتوسط)
٤ – أو أكثر من خمسين عاماً (أي المستقبل البعيد وغير المنظور) ٠

ج – تهتم بتأصيل الأسس المنهجية من خلال توظيفها للتراث المنهجي للمعرفة العلمية في شتي الميادين، وفي هذا الصدد، يمكن التمييز بين أنماط الدراسات المستقبلية التالية :

١ – النمط المعياري، وهو تطور لأسلوب الحواس المعتمد على بصيرة المفكر وخياله، والشائع في الأعمال الأدبية، ويعكس هذا التطور الاستفادة من النماذج الرياضية التي تسمح بتحديد الخطوات التي تحقق هدف الباحث المستقبلي والمستمد من إطاره الأيديولوجي(الفكري)، ويشمل هذا النمط عدداً من أساليب التناول مثل :

– طريقة "دلفي" حيث يتم استطلاع رأي مجموعة من الخبراء حول موضوع الدراسة ٠
– الأسلوب المورفولوجي حيث يتم التعرف على كافة التأثيرات المحيطة بذاك الموضوع من خلال خطوات: تحديد المشكلة – تحديد ملامحها البارزة – تحديد احتمالات التغير في كل ملمح منها – تقويم هذه الاحتمالات ٠
– أسلوب شجرة العائلة، وتمثل جذورها الهدف المرغوب تحقيقه مستقبلاً، وأما فروعها فهي وسائل ربط هذا الهدف بجوانب الحاضر المعاش، وبهذه الطريقة يمكن تحديد البدائل لهذا الربط المرغوب تحقيقها في المستقبل، والتي تغير ذاك الواقع ٠

٢ – النماذج أو الأنساق الكلية حيث التعامل مع المستقبل باعتباره نتاج تشابك متغيرات الواقع وتفاعلها المتبادل ، ويتم ذلك بواسطة أحد الأساليب التالية :

- المشهد أو السيناريو أي وصف لمسار ظاهرة ما المحتمل والذي تم تصوره ذهنياً ٠
- الصياغة الرياضية لعمليات النمو الاقتصادي والاجتماعي عبر الزمن، ومن خلالها يتم توقع اتجاهات النمو مستقبلاً اعتماداً على اتجاهاته في الماضي ٠

مشكلة البحث :

قياساً على نظرية " الاتساق المعرفي " ل " فستنجر " ومؤداها أن غياب هذا الاتساق يدفع الفرد إلى تغيير اتجاهاته (١٢)، فإن التوجه نحو المستقبل لا يتوقف على كم معرفتنا بواقعنا الحاضر ونوعها فحسب ، وإنما متوقف أيضاً على مدى اتساق هذه المعرفة ٠ وهناك دلائل على غياب هذا الاتساق في المجتمع المصري في الوقت الراهن، حيث يعيش – كما يعيش العالم كله – انفجار المعرفة وتدفق المعلومات عبر أساليب الاتصال عن بعد، وقد أحدث تلقي المصرين لمعلومات لا يصنعونها حالة من الصدمة الثقافية Culturalshock وما تثيره من مشاعر سلبية وما يترتب عليها – على حد قول " توفلر " – من غياب القدرة على التعامل مع الواقع ومواجهته، ونتيجة لهذه الصدمة يتوقف تشكيل الأمة لمستقبلها على مدى وعي أفرادها بهذه الصدمة، ومدى ما تحدثه من مشاعر الاحباط والقلق والألم، ومدى توجههم نحو تغيير إطارهم المرجعي من خلال سعيهم للمراجعة الذاتية – بما تتضمنه من نقد للذات ولعلاقاتها الآن بالأنساق الاجتماعية – والثقافية في المجتمع(١٣)، أي أن التغيير الاجتماعي يبدأ بوجود وعي بتعارض العلاقات المتبادلة بين أنساق المجتمع، وأن المستقبل هو نتاج هذا التغيير ومحصلته ٠

والسؤال الذي يسعى البحث الحالي للإجابة عنه هو: هل يشعر أفراد المجتمع المصري بهذا التعارض، وما هي مظاهره وسبل مواجهته من وجهة نظرهم؟ ٠

وفي محاولة للإجابة تمت الخطوات التالية :

عينة البحث :

يقول " توفلر " – في كتابه "التعليم من أجل المستقبل"– أن التغيير حقيقة العصر، وأنه يحدث سواء أردنا أم أبينا، وأنه من الأفضل أن نتدارسه ونتنبأ به، ونحاول الاستجابة له وأن وسيلتنا في ذلك هي التربية بكل مؤسساتها. (١٤)وطبقاً لهذا المعني فالتربويون بمثابة قرون الاستشعار في المجتمع، أنهم يشكلون مستقبله من خلال تعاملهم مع صغاره في الحاضر الذين هم كباره في المستقبل، ومن هذا المنطلق، اختيرت عينة البحث من بين القائمين بالتربية كما يلي :

١ – ٣٧ عضو هيئة تدريس بكليات جامعة المنوفية ، متوسط أعمارهم ٤٥,٣ سنة بانحراف معياري ٧,١ سنة .

٢ – ٥٥ مدرس من ذوي التخصصات المختلفة ، والقائمين بتدريسها في مدارس الثانوي العام التابعة لمديرية التربية والتعليم بالمنوفية، متوسط أعمارهم ٤٢,٧ سنة بانحراف معياري ١٠,٥ سنة .

أداه البحث :

نظراً لنوع البحث، بوصفه بحثاً استكشافياً، ولعدم وجود– في حدود المعلومات المتاحة لنا – أداه يمكن استخدامها لقياس هذا الموضوع "التناقض في الحياة اليومية"، فسوف يتم الاعتماد على تحليل مضمون إجابات المبحوثين عن عدد من الأسئلة المفتوحة وهي :

١ – هل تشعر أن هناك تناقضاً في أسلوب حياتنا اليومية : نعم ( ) لا ( ) .

٢ – فما هي مظاهره، إذا كان موجوداً :

٣ – وكيف نتعامل معه، من وجهة نظرك :

وقد اعتمد على نسبة الاتفاق بين المحللين كمؤشر لثبات الأداة، أما صدقها فيستدل عليه من مدى اتساق النتائج مع توقعات مستمدة من تفسير

الخبراء لأوضاع المجتمع المصري، وعند عرض النتائج، سيتضح ذلك بشكل يجعل هذا الإجراء للقياس معتداً به .

النتائج :

أولاً: أقر ٣٦ عضو هيئة تدريس بالجامعة (٩٧,٣% من العينة)، ٣٩ مدرس (٧٠,٩%) بوجود تناقض في أساليب حياتنا اليومية، الفرق بين النسبتين دال إحصائياً عند مستوى ٠,٠١ ، حيث كا٢ = ١٠,٢٣٧، أي أن أعضاء هيئة التدريس بالجامعة أكثر إحساساً بالتناقض في الحياة اليومية والاجتماعية بالمقارنة بمدرسي التعليم العام، وربما يرجع هذا لاستغراق أعضاء هيئة التدريس في تأمل أحوال المجتمع والاهتمام بقضاياه والدعوة لنهضته تفوق اهتمام مدرسي التعليم العام واستغراقهم، وذلك لطبيعة عمل كل منهم ومستوى تأهيلهم، وهذا الفرق متوقع ومنطقي أيضا، ويعد مؤشراً لصدق الأداة .

ثانياً : يوضح الجدول التالي ترتيب مظاهر التناقض في حياتنا الاجتماعية بحسب أهميتها كما يتضح من تكرار ذكر المبحوثين لها، ويكشف الجدول عن اتفاق طفيف بين المجموعتين في مدى أهمية بعض مظاهر التناقض، فالتناقض بين أقوالنا وأفعالنا يحظى بالمرتبة الثانية لدى المجموعتين ، بينما تحظى التصرفات المتحيزة في الوقت الذي نصفها بالموضوعية بالمرتبة الثانية عشر (قبل الأخيرة)، وفيما عدا ذلك هناك تفاوت بين المجموعتين في تقدير مدى أهمية مظاهر التناقض، وقد يكون هذا التفاوت محدوداً كما في: غياب المشاركة الشعبية في ظل ادعاء الديمقراطية وإعاقة الإنتاج في ظل الأزمة الاقتصادية الطاحنة. وقد يكون التفاوت شديداً بين المجموعتين كما في تراجع معدلات الزواج مع المغالاة في تكاليفه، وارتفاع معدل البطالة مع وجود عجز في معظم المهن .. وهكذا . وقد حسب معامل ارتباط الرتب

جدول يوضح ترتيب ظاهر التناقض في حياتنا الاجتماعية كما يراه أساتذة الجامعة ومدرسو الثانوي العام

مظهر التناقض	أعضاء هيئة تدريس		مدرسو التعليم العلم	
	%	الرتبة	%	الرتبة
الدعوة للديمقراطية مع غياب المشاركة الشعبية	٩٧,٣	١	٦٩,٩	٣
المناداة بالحوار مع شيوع العنف	٧٨,٣٨	٨	٣٨,١٨	١٠
كثرة الحديث عن حقوق الإنسان مع استمرار انتهاكاتها	٦٧,٥٧	١١	٤١,٨٢	٨
مركزية الإدارة مع غياب التنسيق بين هيئاتها ووحداتها	٩١,٨٩	٤	..,٤٥٤,٠	٩
الدعوة لزيادة الإنتاج المحلي مع تشجيع الاستيراد	٩٤,٦	٣	٤٥	٧
أزمة اقتصادية مع إجراءات لإعاقة الإنتاج	٨٩,١٦	٥	٥٨,١٨	٦
ضعف مستوي الدخول مع إسراف وبذخ (مثل : الحفلات)	٨٩,١٦	٦	٧٠,١	١
معدل مرتفع للبطالة مع وجود عجز في معظم التخصصات المهنية	٨٩,١٦	٧	٦٧,٣	٤
ادعاء الموضوعية مع التصرف بشكل متحيز	٦٢,١٦	١٢	٣٤,٥٥	١٢
تراجع معدلات الزواج مع المغالاة في تكاليفه	٧٢,٩٧	٩	٦٧,٣	٥
التظاهر بالاستقلال الوطني في ظل تبعية اقتصادية إعلامية واضحة	٧٠,٣	١٠	٢٩,١	١٣
وجود مؤسسات عملها التخطيط فقط مع أداء ارتجالي لأجهزة الدولة	٦٢,١٦	١٣	٣٨,١٨	١١
قول أشياء وفعل ما يعارضها (تفعل عكس ما نعلن) ٠	٩٧,٣	٢	٧٠,١	٢

بين المجموعتين فبلغ ٠,٦٨٧ أي هناك علاقة متوسطة الشدة بين تقدير مدى أهمية مظاهر التعارض في حياتنا لدى أعضاء هيئة التدريس كل من الجامعة والتعليم العام، وتشير هذه الدرجة من الارتباط إلى وجود قدر من التفاوت بين المجموعتين، فبينما يحظى التناقض بين أقوال الجهاز التنفيذي وأفعاله بقدر أكبر من الشيوع لدى أعضاء هيئة تدريس الجامعة حيث كانت هذه المظاهر الأعلى تكراراً لديهم وهي: الدعوة للديمقراطية مع غياب المشاركة- وفعل عكس ما نعلن – والدعوة لزيادة الإنتاج مع تشجيع الاستيراد – ومركزية الإدارة مع غياب التنسيق بين هيئاتها، يحظى التناقض في الأداء الاجتماعي للجمهور – وما يتضمنه هذا الأداء من نسق قيمي – بالأولوية لدى مدرسي التعليم العام حيث

حظيت هذه المظاهر بالتقدير الأعلى لديهم: الإسراف في ظل ضعف مستوى الدخول – وفعل عكس ما نعلن– وغياب المشاركة الشعبية في ظل التشدق بالديمقراطية – ووجود عجز في المهنيين مع ارتفاع معدل البطالة – والمغالاة في تكاليف الزواج مع تناقص معدلاته ٠

وقد نستدل من هذا التفاوت بين المجموعتين اختلافاً في الاهتمامات والرؤى، فأعضاء هيئة تدريس الجامعة أكثر استغراقاً في المشكلات ذات الطابع السياسي، بينما يستغرق مدرسو التعليم العام في المشكلات ذات الطابع الاجتماعي، وربما يرجع ذلك إلى مستوى تأهيل كل منهما وسياق عمله وطموحاته الشخصية والعامة، ومن هذا المنطلق، يعد التفاوت الملحوظ منطقياً ومؤشراً لصدق الأداة المستخدمة في البحث ٠

ثالثا : وبسؤال مبحوثينا عن الأسلوب الأمثل للتغلب على التناقض المشار إليه، ذكر ٩٧,٣% من أعضاء هيئة تدريس الجامعة ٦٧,٣% من مدرسي التعليم العام، ضرورة قيام الأجهزة الشعبية والتنفيذية بعملية مراجعة شاملة ونقد للذات، يتم من خلالها إعادة صياغة الأهداف العامة ووضع آليات تنفيذها وضوابط هذا التنفيذ مع تقرير عقوبات صارمة لمن يعوق التنفيذ أو يستغل موقعه الوظيفي في إعاقة تحقيق الأهداف المخطط لها ٠

كما أشار ٨٩% من أعضاء هيئة تدريس الجامعة، ٤٥% من مدرسي التعليم العام إلى ضرورة التنسيق بين هذه الأجهزة والهيئات عند وضع الأهداف وتحديد خطوات التنفيذ بحيث يحدث تكامل بين تلك الأجهزة والفرق بين المجموعتين دال إحصائيا ، حيث قيمة كا^{2} في الحالتين = ١٢,١٦ ، ١٨,٤٥ على التوالي ٠

وأشار أعضاء هيئة التدريس بالجامعة وحدهم إلى ضرورة الاستجابة بشكل سريع لمستجدات الحياة كأسلوب أمثل للتغلب على التناقض الظاهر في الميادين الحياتية المختلفة، والذي يرجع في المقام الأول إلى بطء هذه الاستجابة،

وضرب بعضهم مثلاً لهذا البطء تتمثل في أسلوب معالجتنا لمشكلة الإرهاب*، فمع وجود مقدمات مبكرة لهذه المشكلة سواء على المستوى المحلي أو الدولي، إلا أن الاستجابة لها جاءت متأخرة جداً ومبتسرة أيضا إذ لا تعد استجابة شاملة للظاهرة وإنما هي استجابة جزئية تعكس قصوراً في الفهم وفي الاحاطة بالأسباب . كما ضرب البعض الأخر مثالاً ثانياً لهذا البطء في الاستجابة والمتمثل في أسلوب تعاملنا مع الأزمة الاقتصادية، فمع الظهور المبكر لخلل النظام الاقتصادي إلا أن خطوات معالجة هذا الخلل تأخرت كثيراً جداً، كما يضرب فريق ثالث مثالاً آخر لتأخر الاستجابة لمستجدات الحياة بما يحدث في مجال التعليم وكيف أن فلسفة التعليم ومقرراته بعيدة كل البعد عما يحدث في العالم – انظر: المقال الأول في هذا الكتاب . من حولنا بشكل تم ترجمته في معدلات البطالة الحالية والتي تعد بطالة متعلمين، مما يؤكد فشل التعليم في تحقيق أهدافه نتيجة عدم استجابته لمستجدات الحياة .

---

* أوائل تسعينيات القرن العشرين، ومن المفارقات أن المعالجة الدولية لمشكلة الإرهاب مازالت متأخرة ومبتسرة بل وتتراجع مما يزيد المشكلة تفاقماً مطلع القرن الحادي والعشرين .

الخلاصة :

نظراً لطبيعة موضوع البحث (١٥) وهدفه الاستكشافي ، فقد تم الاعتماد على أسلوب تحليل مضمون أستبار حر ل: ٩٢ من القائميين بالعملية التعليمية في جامعة المنوفية ومدارس الثانوي العام بالمحافظة ، وأسفر هذا التحليل عن وجود ١٣ مظهراً للتناقض في أساليب حياتنا، ويشير عدد من الباحثين إلى منطقية وجود هذا التناقض، فمن خلال كل من: التغييرات المتلاحقة في التقنية (١٦) والإعلام (المباشر وغير المباشر) والهجرة (بوجهتيها أي ذهاب المواطنين لخارج القطر للعمل أو الدراسة – واستقبال القطر للأجانب)(١٧)، يتلقى الشعب المصري منظومة قيم (بما تتضمنه من اتجاهات واهتمامات وتفضيلات وأفعال) مناقضة لمنظومتنا ، وترتب على هذا التلقي قيام الأفراد بتغيير إطار الدلالة الذي يستندون إليه عند اتخاذ قرار الأقدام على شيء ما أو الأحجام عنه، وهو إطار مستمد من سياق ثقافي نشأوا فيه. ففي ظل الانفجار المعرفي الحالي وثورة المعلومات يصبح الإحساس بالتناقض منطقياً، إذ يشير هذا الإحساس إلى صعوبة إحداث التغيير الاجتماعي الذي يتطلبه التقدم التقني، وأن مواطنينا حائرون بين نسق قيمي اعتادوا الالتزام به وأسلوب حياة ألفوه وبين نسق قيمي آخر يتلقونه خلال الاتصال – بمختلف صوره – بمجتمعات أخرى، وما يحدثه النسق الآخر من تغيير في تصوراتنا عن العالم وأساليبنا للتعامل معه .

ويتطلب التغلب على هذا التناقض إما أيجاد شكل للتوازن بين النسقين وتحمل التعارض بينهما بحيث لا يؤثر في التوافق الاجتماعي، أو التخلي عن أحد النسقين إذا أحدث تعارضهما درجة من عدم التوافق لا تحتمل. ويتوقف إتباع المجتمع لأحد السبيلين على مدى وعيه بالتناقض بين نسقين قيميين ومدى التزامه بكل منهما وإمكانية كل من النسقين في تحقيق الأهداف التي وضعها المجتمع لنفسه .

وهكذا، يطرح البحث مدخلاً لاستكشاف مستقبل المجتمع من خلال رصد التطور الذي يطرأ على منظومته القيمية المرجعية، وتقدير مدى التغير في هذه المنظومة ومساراته وجهته .

المراجع

(1) P . Dunhaum (1988) Research Methodes in Psychology. Newyork: Harper & Row pub .

(2) L . Wrightsman & K . Deaux (1981) social psychology in The 80s.California : Brooks / Cale P . 563 .

(٣) المهدي المنجره (١٩٨٨) من أجل استعمال ملائم للدراسات المستقبلية . عالم الفكر ، ١٨ : ٩٠٧ – ٩٦٠ .

(٤) لتفاصيل هذا التطور ، ومراحله ورموز كل مرحلة منها ، أنظر :

– عواطف عبد الرحمن (١٩٨٨) الدراسات المستقبلية: الإشكاليات والآفاق. عالم الفكر، ١٨ : ٩٦١ – ٩٩٢ .

–عطية حسين الافندى (١٩٩١)استقراء المستقبل: دراسة أولية في علم وليد . منبر الحوار، ٢١، ٢٢ : ٧٥ – ١٠٣ .

(5) G . Westland (1978) Current Crises of psychology. London : Heinemann. P . 153 .

(٦) عواطف عبد الرحمن (١٩٨٨) وعطية الافندى (١٩٩١) مرجعان سابقان .

(7) Perrolle (1987) Computers and Social change. California : Wadsworth pubushing Co . P . 46 .

(٨) عطية الأفندى (١٩٩١) مرجع سابق ، هاني عبد المنعم خلاف (١٩٨٦) المستقبلية والمجتمع المصري . القاهرة : كتاب الهلال رقم ٤٢٤ ، ص ١٣ .

(٩) نادر فرجاني (١٩٨٨) مستقبل البشرية بين رؤى العالم الثالث وفظاظة العالم . عالم الفكر ، ١٨ : ٩٩٣ – ١٠٠٤ .

(١٠) لتقويم هذه المحاولات ، أنظر : محمود عبد الفضيل (١٩٨٨) الجهود العربية في مجال استشراف المستقبل : نظرة تقويمية ، عالم الفكر، ١٨: ١٠٠٥ – ١٠٢٦ .

(١١) لمزيد من التفصيل حول هذه المميزات ، أنظر : عطية الافندى (١٩٩١) مرجع سبق ذكره، عواطف عبد الرحمن (١٩٨٨) مرجع سبق ذكره، ناهد صالح (١٩٨٤) المنهج في البحوث المستقبلية . عالم الفكر ، ١٥ : ٢٠١ : ٢١٣ .

(12) E . Aronson (1968) Dissonace Theory : Progress and Problem . (PP . 5 – 27) in : R . Abelson, et al . (Eds) Theories of cognitive Consistency , Chicago :Rand Mcnaily .

(13) P . Adler (1987) Culture Shock and the cross Culrural learning experience (PP . 24 – 35) In : L . Luce & E . Smith (Eds) Toward internationalism . Cambridge ; Messachusetts : Newbury ttouse pub .

(١٤) عبد الله محمود سليمان (١٩٨٣) الموهبة والمستقبل . عالم الفكر ، ١٤ : ٨٤٧ – ٨٨٠ .

(١٥) تستخلص الدراسات المستقبلية تنبؤاتها من خلال إما أدوات التحليل الإحصائي لسجلات الواقع المعاش كما في حالة الأنشطة الاقتصادية، أو تحليل مضمون ما ينشر في وسائل الإعلام وما يذكره الخبراء في مقابلات الاستبار المقنن والحر . أنظر : ناهد صالح (١٩٨٤) مرجع سبق ذكره .

(١٦) تحدث التقنية الحديثة تغييراً في أنماط النشاط البشري ، فقد غير استخدام الحاسبات الآلية – على سبيل المثال – العلاقات الاجتماعية التي تعد أساس البناء الاجتماعي ، كما يتوقف إسهام هذه التقنية في حل المشكلات الاجتماعية على مدي التغير الذي يحدث في الحياة الاجتماعية أنظر
J. Perrolle (1987) op . Cit . P . 47 :

(١٧) لدور الاتصال المباشر وغير المباشر بين المجتمعات في إحداث تغيير في إطار الدلالة ، أنظر مقالي كل من :

E . Stewart (1987) American assumptions and values : Orientation to action (pp . 51 – 72)

L. Swalay & g. Gisher (1987) Communication orerseas (pp . 166 – 192) in: luce & Smith مرجع سبق ذكره في :١٣

طبع بمطابع الدار الهندسية
تليفون/فاكس : ٥٤٠٢٥٩٨